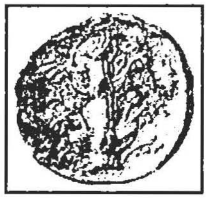
رهان المستقبل



يعد موضوع الإصلاح واحداً من أهم القضايا الرئيسة المطروحة على أجندة الوضع العربي القائم الآن، فبعد ما يقارب نصف قرن من حركة التغيير والتحرر التي شهدتها المجتمعات العربية عقب الحرب العالمية الثانية، في ما عرف بحركة التحرر الوطني المتمثلة في محاربة الاستعمار والتخلف وبناء مؤسسات اجتماعية واقتصادية حديثة، وتحقيق التنمية في مختلف المجالات، فقد آل هذا المشروع إلى إخفاقات مروعة في شتى مناحي الحياة. وأضحت آثاره المفجعة عنوانا لمأساوية الوضع العربي الراهن، بدءًا من انتشار الفقر والبطالة وانهيار وفساد المؤسسات التعليمية والصحية والاقتصادية، وهي عناوين لانهيار أكبر طال أمن واستقلال وسيادة أوطان ـ سقوطِ بغداد ـ هذه هي الحصيلة المُرة لما اشرأبت له الأعناق طويلاً وهتفت به الحناجر مَن (حرية/اشتراكية/وحدة).

لقد تم وأد حرية الوطن والمواطن على مشانق محاربة الإمبريالية والاستعمار وأعداء الوطن!! أما الاشتراكية فتحولت إلى جيوب منتفخة بالعملات ومزارع وأطيان لمن نصّبوا أنفسهم دعاة للاشتراكية العروبية، أصبح مآل ما أهدر فيها من ثروات المجتمع(خلال عقود من البناء والتشييد) البيع في سوق نخاسة الشركات الأوربية والأمريكية بابخس الأثمان.أما عن الوحدة فقد كفر المخلصون بها وعلى جانبيها سالت دموع ودماء كثيرة، ولم يعد لذكرها من وجود إلا في ذاكرة قلة من الحالمين!!

ذلك هو ما آلت إليه تجربتنا العربية التي سال كثير من الحبر في تحليلها ودراستها ونقدها، وأضحى مصيرها عبرة ودرسًا لكل ذي بصيرة، وكان لابد من أن تمتد الأيادي، وترتفع الأصوات منادية بوجوب وضرورة الإصلاح بوصفه ضرورة لاغنى عنها لوقف تردى الواقع العربي وتضميد جراحه المتقيحة.

والإصلاح المنشود ليس مجرد أحاديث ووعود براقة ولا هو مؤتمرات ودعوات وقرارت فوقية، إنما هو عملية مجتمعية شاملة تنخرط فيها مؤسسات المجتمع المدني وفعالياته وكل المواطنين بهدف تغيير الواقع الثابت، وتنميته بما يخدم مصالح الوطن ومستقبله، والضمانة الأساسية للإصلاح تتمثل في وجود

آليات ديمقراطية حقيقية تتيح لكل أبناء المجتمع بمختلف رؤاهم واتجاهاتهم واجتهاداتهم الفكرية المشاركة في بناء واقع جديد من خلال مؤسسات تشريعية وتنفيذية تنجز برنامجا إصلاحيا من بين عناصره:

1ـ إصلاح اقتصادي يتمثل بإعادة الهيكلة بما يحقق مصالح الوطن والمواطن في ثروة مجتمعه.

2ـ إصلاح الهياكل الإدارية بما يكفل القضاء على مظاهر الفساد من رشوة ومحسوبية ووساطة.

3ـ إصلاح البنية التعليمية: تطوير المناهج التعليمية بما يتلاءم مع التطور العلمي والتقني، وحرية البحث العلمي، وتنمية وتطوير القدرات والمهارات العلمية والمعرفية للطلاب والباحثين والمعلمين في مختلف المراحل التعليمية،بما يفسح مجال لانطلاق القدرات العقلية والعقلانية الخلاقة.

4ـ إصلاح الخدمات الصحية والعلاجية والارتقاء بها لمواكبة حاجات الناس.

5ـ استقلالية القضاء بما يضمن المساواة والعدالة أمام القانون بين كل أفراد المجتمع.

6ـ إفساح المجال أمام منظمات المجتمع المدني للعمل والمشاركة الفاعلة في عملية البناء والتغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي.

7ـ تمكين المرأة العربية، واعتبارها عنصرا فاعلا ومهما في صلب ما نطمح إليه من مجتمع مدني حديث.

إن ما تقدم تتطلب التأكيد على مفهوم المواطنة المرتبطة بمقومات قانونية وسياسية واجتماعية، تعد الأساس لخلق الثقة بين مختلف أفراد المجتمع على مختلف مستوياتهم ومسئولياتهم، وذلك عبر طرح منظومة الواجبات والحقوق للمناقشة والتداول بكل شفافية.

إن مواصلة كافة الجهود لتعزيز الإصلاح المنشود لا تستقيم دون عدالة ومساواة حقيقية، ودون إعادة النظر في مفهوم المواطنة ومراجعة المدونات التشريعية المحددة للعلاقات بين أبناء المجتمع الواحد. وقبل وبعد لابد من غرس كل هذه القيم بثقافة سياسية ديمقراطية لتتحول مضامينها إلى أسلوب حياة ومعايشة، ونمط لادارة العلاقات المتوازنة بدءًا من الأسرة وانتهاء بالوطن الكبير، وترسيخ قيم الأعتدال والتسامح والقبول بالاختلاف في الفكر والممارسة، وبالحق في التعبير عن الاختلاف، وتوظيف مؤسسات التعليم والإعلام والثقافة لمواصلة جهود الإصلاح وحث أعضاء المجتمع على طرح الاتكالية والسلبية جانبا، ذلك هو خيار المستقبل الذي لامناص من الرهان عليه، لأننا بدونه سنظل ندور في الحلقة المفرغة التي ضاقت علينا جميعا.

مراجع



المجتمع المدني والعلمانية

لا بد من الجلوس خلف المقود

سالم العوكلي

يدور الحديث دائماً عن المجتمع المدني باعتباره جوهراً للإصلاح السياسي ومضموناً مؤسسياً للديمقراطية، والحديث عن المجتمع المدني يتطرق غالباً إلى مكوناته المتمثلة في المؤسسات الأهلية وبعض النظم التشريعية والإدارية التي تعطي حس المبادرة والمشاركة لأكبر قطاع من الناس في العملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي ظاهرها تبدو هذه المطالب شرعية وحضارية، لكن كونها مطالب وكفى هو أساس الأزمة والارتباك الذي نقع فيه، فثمة أمور عديدة فرضت نفسها عبر التاريخ والحراك الاجتماعي والإعداد الثقافي لها، ولم تكن مجرد مطالب بقدر ما هي نتاج طبيعي لنضج الواقع الاجتماعي ولتطور أنساق علاقات الإنتاج، ومن ثم تهيئة الذهنية لمثل هذه النتاجات التاريخية والسيكولوجية المتوافقة مع معطياتها الجديدة.. نطالب بكل هذه المكونات بتفاؤل نحسد عليه، وكأن الأرضية مؤهلة لهذه الروشتة الشافية من كل أمراض النظم الشمولية، وكأن مشروعنا التنويري كان ناجحاً واستطاع أن يعد المناخ لمثل هذه المباني الديمقراطية كي تفعل فعلها.

بداية سأقول جازماً – لأنني حتى الآن على الأقل لا أرى غير ذلك – إن الديمقراطية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، كلها دون مواربة نتاج للحداثة

بمعناها الاصطلاحي، وإن الحداثة مع تشابك تعريفات وتعدد طرق تحليلها تمثلت في محورين أساسيين (الحريات والذاتانية).

وسأقول أيضاً ـ بغض النظر عن اليوتوبيات المطروحة عبر تاريخ الاجتهاد الإنساني كمشاريع للسعادة الإنسانية المطلقة، التي ترسم العودة إلى الفردوس الإنساني المفقود، بأطروحات المطاف الأخير للصراع الإنساني ونهاية التاريخ وانتصار الخير الحتمي، من أفلاطون إلى هيجل ـ ماركس ـ ماو ـ فوكوياما.. إلخ ـ سأقول دون مواربة أيضاً: إن التجربة التاريخية في الممارسة الديمقراطية تؤكد صراحة، أنه لا يمكن أن توجد ديمقراطية إلا في ظل مجتمع مدني، ولا يقوم مجتمع مدني إلا في ظل مجتمع علماني (يبدو من الغريب هنا الحديث عن الديمقراطية بهذه الإطلاقية أو بلغة غير ديمقراطية، وهو منحى يعكس إلى حد ما أزمة ثقافتنا وأنا لست بمعزل عن هذا الإرث اللغوي والفكري، ولكن ما يشفع لي هو كوني أحاول أن أعطي هنا وجهات نظر إجرائية، وفي الوقت نفسه أحاول التقاط أحكامي مما آلت إليه التجارب التاريخية، وما نلمسه في تفاوت الواقع الإنساني الراهن الذي بالتأكيد وراءه عوامل مركبة ومعقدة، غير أننا باعتبارنا ضمن الحداثة الإنسانية ولو بكوننا مستهلكين أو مستمتعين بنتاجها، ملزم علينا بشكل أخلاقي أن نكون أيضاً ضمن سياقها الثقافي والفكري والسياسي، متحاشين محاولات الغربلة المستحيلة التي نرنو من خلالها إلى التمتع بالثورة التقنية دون التورط فيما أفرزته من قيم وعلاقات جديدة، بالتأكيد أهمها الديمقراطية وحقوق الإنسان التي نهضت على أرضية العلمنة لتلك المجتمعات).

وبعد هذا الفاصل التبريري الذي لابد منه، سأسأل دون مواربة أيضاً: هل ثمة مجتمع إسلامي ديمقراطي بما تعنيه الكلمة حتى الآن، يتداول السلطة ومتعدد، وفوق ذلك مستقر دون نزاعات دينية أو إثنية أو سجناء رأي، من موريتانيا إلى إندونيسيا؟ سؤال أترك الإجابة عنه عبر متابعة نشرات الأخبار اليومية، وهذا بدوره سيقودنا إلى مصادرة تضعنا من جديد في صميم مسألة الدجاجة والبيضة، فأقول: إن كل المباني الديمقراطية المنشودة لا يكفي أن تتواجد على الأرض بلافتاتها البراقة أو على ورق التعاقد الاجتماعي، لكن لابد لها أن تبنى في العقل أولاً.

العقل الذي قرر في أكثر لحظات عزلته وحيرته أن يكف عن النظر إلى السماء وينزاح إلى الأسفل.. العقل الذي لا تحركه قوى اللاوعي الجماعي والخرافة والوجديات الأسطورية الممعنة في التضليل.. العقل الذي لا يكتفي بالدعاء كل جمعة (ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا) العقل

الواثق بقدرات الإنسان بمعزل عن جماعته الدينية التي مازالت تذهب إلى صلاة الاستسقاء رغم توقعات الأرصاد الجوية الدقيقة، العقل الذي لا يتشفى في الآخرين، معتبراً الزلازل والعواصف والفيضانات عقاباً من الله إذا مست الكفرة!! وامتحاناً منه إذا مست المسلمين، العقل المأخوذ بانتظار المهدي أو الزعيم المخلص الأوحد، وأننا خير أمة أخرجت للناس حتى وهي تتمرغ في الوحل، العقل اللائذ بالكسل والمستمتع أيما استمتاع بالحكم على الأشياء قبل فهمها، وأن كل شيء مفصل تفصيلا، وليس في الإمكان أبدع مما كان، العقل الذي يستورد كل رفاهيته، وأدويته، وتقنيته، ومسبحاته، ومكيفاته ومكبرات صوت الأذان واللقاحات، يستورد كل ذلك من أناس يعتقد دون ذرة شك بأنهم في النار، العقل الذي يسبح في مناهج تعليمية تعبوية تؤكد له أن الآخر كافر وعدو حتى تثبت براءته، وأن عنترة العبسي والمهلهل أهم من ابن رشد وابن خلدون.. العقل الذي يعتبر الخرافة أكثر حضوراً من الحياة اليومية، والأسطورة أكثر حضوراً من التاريخ.. العقل الذي يستورد من الغرب أنظمة السجون وأدوات التعذيب وسيارات المطاردة البوليسية ويعتبر حقوق الإنسان والديمقراطية والمجتمع المدني نتاجات غربية لا تناسبنا.. العقل المشحون بوعي نرجسي متكبر وعند الهزيمة يتحول إلى وعي عدواني.. العقل الذي هو باختصار مازال في مرحلة ما قبل الحداثة رغم أنه ضمن جسد يستمتع بكرنفال الحداثة.. عقل انفعالي مبني على الحدس وردود الأفعال.. وبالحصيلة هو عقل لا علمي يجتاز عصراً محركه العلم.

تقول "آلان تورين" في كتابها "نقد الحداثة": لا حداثة دون تكوّن ذات في العالم تحس بمسئوليتها إزاء نفسها والمجتمع).. العقلنة وإضفاء الذات يظهران في الوقت نفسه مثل النهضة والإصلاح، ثمة جدل لا يمكن تجاوزه بين اختراق العقل للبنى القبلية وبين اكتشاف الإنسان لذاته المستقلة التي منها يتشكل المجتمع والأمة والإنسانية، فالتفاعل بين الذات كمعطى إنساني منزوع عن سياقاته الدوغمائية، والعقل كأداة منهجية لفهم العالم والتاريخ، وإدراج الأسئلة الوجودية في صميم الثقافة والوجدان، من شأنه أن يبلور مفهوماً حديثاً للآخر، وبالتالي جوهر الحوار الذي عليه نبني قدرتنا على التعدد والتجاور والتسامح.ومحددات السلوك الديمقراطي الذي يتأصل في الذات الإنسانية، ومنها ينطلق إلى المؤسسة والتشريع.

الذات الموكلة للآخرين والمذابة في محاليل ورثتها ولم تخترها، دينية أو قبلية أو عرقية، تتخلى عن كونها ذاتاً مستقلة، وتدخل في حالة إدماج جماعي

يجعلها جزءاً من حالة تعصب عمياء منكِرة بطبيعتها للاختلاف والحوار، وبالتالي فهي تلوذ بحماية الجماعة لأنها جزء من لحمتها، فالقانون من أجل الذات المستقلة، والعرف من أجل الذات الذائبة في القبيلة، وما بين هذا وذاك مسافة شاسعة يتحقق فيها مصير ومصداقية مقولات مثل المجتمع المدني وحقوق الإنسان. وهذه المسافة هي التي تربك أيضاً مفهوم وفعالية نصوص حقوق الإنسان لدينا، باعتبارنا نناقش دوماً كلمة "حقوق" الأولى، ولم نلتفت إلى الكلمة الثانية: "إنسان"، هل حقاً لدينا إنسان فعلاً إذا ما تجاوزنا التعريف الوصفي والبيولوجي له ؟ الإنسان ذات مستقلة وإذا ما ذابت في أي مفهوم للقطيع فهي منقطعة عن وجودها الإنساني، وهذا ما يفسر توافق منجزنا في حقوق الإنسان مع منجز المجتمعات الأخرى في الرفق بالحيوان، إنها وقفت لدينا كمطالب عند تحسين وضع السجون وعدم الضرب والتعذيب، ومنع ذبح الإناث، وإدانة الإبادة الجماعية خوفاً من الانقراض، ولا مشروع لباقي الحريات، كحرية التعبير واختفاء الرقابة، والمساهمة السياسية وغيرها من المطالب التي يختلف فيها الإنسان عن الحيوان.

يقر ويبر "نقد الحداثة": (بأن روح الرأسمالية تقوم لا على الانتقال من الزهد إلى إرادة التملك والاستهلاك، بل العكس، على الانتقال من زهد خارج العالم إلى زهد في العالم، وبالتالي إلى استبطان الحركة التي بها يتحول الفرد إلى ذات لها الحق في تقرير كيانها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي) الذات الزاهدة في العالم من حقها أن تنتهك مسلماته وقوالبه الجاهزة وأن تكون فوق مقدساته، وفوق ذلك بقدر ما هي تشكل نسيج المجتمع بقدر ما هي ناتئة ومفصولة بحدود تنبع من طبيعة الثقافة وتضمنها مجموعة من القوانين والتشريعات المنطلقة من حقيقة كينونتها الخاصة.

فهل بإمكاننا أن ندعي أن تلك الذات قد تم اكتشافها وإنجازها داخل مجتمعنا الذي مازال شغوفاً بالتجريد والتعميم. إن التضحية بالذات على مذبح الكتل الهلامية أصبح لدينا طقساً أخلاقياً وبطولة، وليس أدل على ذلك من الشعارات التي نهتف بها والتي تكاد مفردة الموت تشكل أكثر من تسعين بالمائة منها، الموت من أجل ماذا ومن؟ لن نعرف أبداً.. صار الوطن أهم من المواطن، والإنسانية أهم من الإنسان، والرمال أهم من الدماء، والاستقرار أهم من الحرية، والانفتاح استلاباً، والفشل مؤامرة، والآخر عدواً متآمراً حتى يثبت براءته، والمستقبل ضوءاً بعيداً علينا أن نسير إليه مغمضي العيون، والقبيلة جسد ملتبس

تتخلى فيه الأجساد المفردة عن حدودها (ما أنا إلا من غزية) وتغدو لبنة في بنيان مرصوص، لا ملامح له.

ومن هذا المنطلق، الذي ينبعث من افتراضات قاسية، ولكن لا مناص من ذلك، فحتى في الطب لا يخلو التشخيص من وسائل قاسية ومؤلمة، من هذا المنطلق سيبعث سؤال الذات سؤال الحرية ـ ليس ببعدها المطلق ولكن بشكلها الإجرائي ـ لأن الحرية الجماعية لا تتأتى إلا بذوات حرة.. إطلاق الحريات كان أحد مكونات الحداثة التي لا يهمها الثمن الذي سوف تدفعه من أجل هذه القيمة ـ إنه ثمن زهيد ندفعه على طريق التحرر بدل أثمانٍ باهظة ندفعها على طريق القمع والطغيان ـ الحريات التي تحاصرها مراراً السلطات الاجتماعية والدينية والسياسية، والتي تدفع بالمجتمع لأن يتربى ضمن تقاليد فيها المحرم أساسي والمباح عرضي.

الحرية المعنية هنا ليست شعاراً متورماً، أو لافتة مرفوعة ضد عدو نتوهمه ونعد له ما استطعنا من قوة، لكنها الحرية في أدق تفاصيلها المرتبطة بالحياة اليومية، من الأسرة إلى الفصل إلى الشارع إلى المجتمع برمته.. ترويض الضرورات الأمنية التي بحجتها يصبح القمع مسألة وطنية، وحضور القانون كمنظم لهذا الفيض من الحريات، وبإنسان يتربى في هكذا مجتمع يمكننا أن نقوى ونحاور الآخر ونعد ما استطعنا من قوة.

ثمة طغيان اجتماعي يخترق حياتنا، ويصادرها تحت العديد من اللافتات البراقة، ما هو في الواقع إلا أرضية طبيعية لولادة الطغيان السياسي، وللموضوع بعده السيكولوجي إضافة إلى كونه ثقافياً.. إننا ننشأ في مجتمع يبجل القهر والتربية القاسية المنطلقة أساساً من جذر ديني مؤول حسب عقل أبوي عاش أساساً تحت نير القمع..الأسرة عندنا دولة عرشية صغيرة، صورة الأب فيها تختزل صورة الحاكم التقليدي.. وبهكذا معطيات سيكون الاختلاف والتعددية وقابلية الانتقاد أشياء بعيدة عن متناول هذه الجماعة التي ألغت الذات وهاجسها الفطري في التحرر، وجعلتها غير قادرة على الحوار والمبادرة وتحسس حدود حقوقها رغم إتخامها بالواجبات.. هذه القيود ذات منشأ ديني تحيل بمجملها نمط التفكير إلى مجرد حدس عام يعتبر الحياة كمعطى واضح ومحدد منذ الأزل، والأمر مثل ما يحدد شايغان "النفس المبتورة":(لاشيء في الدين متروكاً للمصادفة، ولا شيء خاضع لتقلبات الزمن وحوادث التغيرات وأمزجتها، كل شيء مفروز ومبرمج ومحفوظ في الألواح منذ الأزمنة العريقة، إن الدين وممثليه يبعثون الطمأنينة لأنهم يعرفون الجواب، ولأنهم يدفعون المجهول، يحصرون

المصادفة في منطقة المؤذي وغيرِ الضروري، ويكتبونها بضوء الخلاص الساطع وصراطه المستقيم..) وهكذا في عقل تكون فيه الأسئلة مقلقة ومزعجة تغدو الأجوبة الجاهزة حظوة ونعمة، ومجتمع الأجوبة الجاهزة جامد وغير قابلٍ للحراك.. مشيحٍ عن عنت الأسئلة المهمة التي باستكناهها يطور حياته أخلاقياً واجتماعياً وتقنياً.. فالدين بنية تسليمية إيمانية وضمير شخصي، ولابد أن يكون كذلك، ويكف عن اقتحام الحياة السياسية وتكريس بناها، وأن يكف عن كونه مرجعية وحيدة لكل متطلبات الحياة المعاصرة التي لن تمضي قدماً إلا بمزيد من الأسئلة والمعالجة والتوق إلى التغيير والتطور، وهتك ستار المقدس والمحرم.

من هذا المنطلق ستكون العلمنة هي المجال الأكثر استيعاباً لكل قيم التقدم، بما فيها المجتمع المدني والديمقراطية، العلمانية المبنية على حراك اجتماعي يثق قبل كل شيء بموقع قدم الإنسان فوق هذا الكوكب، وبدوره في تطوير الحياة وحل مشكلاتها بغض النظر عن لونه أو دينه أو عرقه أو رأيه مهما كان. وعملياً كانت إرهاصات الحداثة من صنع العلمانيين الذين واجهوا بالبراهين المتراكمة سلطة الإكليروس، حتى غدت الحداثة قوة محتومة لا جدوى من مقاومتها، لأنها تنبع من حاجة أساسية للإنسان في شق طريقه نحو الرقي، ولأنها لا تنفك تثبت جدواها وحيويتها في وجه الجمود الذي فرضه الدين، أو بالأحرى طرق التدين الشائعة، أو كما يقول "محمد أركون": (إن العلمنة هي، أولاً، وقبل كل شيء إحدى مكتسبات وفتوحات الروح البشرية).

العلمانية موضوع مربك، فهي ليست محض حالة ثقافية أو تاريخية لها علاقة بآليات التفكير وممارسات العقل، لا يمكن ضبطها كصيرورة اجتماعية بقدر ما هي إجراء تتخذه النخب السياسية لتصبح واقعاً ملموساً، تعاقدياً وإدارياً أكثر منه نسيجاً حضارياً مثل مقولات كالحداثة والعقل العلمي، لكنها في الواقع هي تتويج دستوري لكل هذه المقولات المعقدة والمتداخلة، والتي تحتاج إلى ترتيب تاريخي وثقافي منهجي تقوده النخب المختلفة في المجتمع، هي ليست كالعقلانية أو النزعة الإنسانية المرتبطة بالظروف التاريخية نفسها، إنها تقع في منطقة غامضة بين الثقافة والإجراء.. بين الفكر والسياسة، لذلك ستكون العلمنة أقرب إلى كنه هذه المسألة، بمعنى أنها تحتاج إضافة إلى الثقافة والتطور العلمي، إلى التشريع الذي يضمن وجودها وممارستها، هي هنا مثل الديمقراطية التي بقدر ما هي نتاج لتطور آليات الصراع الإنساني بقدر ما تحتاج إلى تأسيس بنى إجرائية ملموسة لإيجادها وحمايتها، تحتاج إلى تشريعات قانونية ودستور واضح يحدد معالمها، إلى مؤسسات شفافة للمجتمع المدني، وقاعدة للتعاقد بين أطراف

المجتمع. لذلك على النخب السياسية المؤهلة لذلك أن تصوغ دساتيرها العلمانية الملزمة للموطن مؤمناً كان أو غير ذلك، وعلينا أن نقيم مؤسساتنا التي نتدرب فيها على الأداء الديمقراطي مهما كان محدداً، فمن الممكن أن يدرس أحدنا في أعلى الأكاديميات ولعدة سنوات طرق قيادة السيارات النظرية، ولكنه في الواقع لن يتعلم القيادة إلا بعد أن يجلس وراء المقود..

ثمة التباسات كبيرة كرسها الخطاب الديني الذي يصف نفسه بالمتنور، وهي أن الإسلام لا يتعارض مع العلمانية، وهي أغلوطة كبيرة نرى نتائجها على أرض الواقع، لأنه ببساطة لا يمكن أن تنجز المستقبل عبر مرجعيات ماضوية، ولا يمكن أن تحدد طرق الحياة المعاصرة بظلال غيبية يقينية لا تبرهن على معارفها، وهذه الأغلوطة التي تم تكريسها أفرزت مقولات شائعة في الدول الإسلامية مثل "القرآن دستورنا"، و"الإسلام دين الدولة" وغيرها، وهي ما خدت بالمفكرين الإسلاميين – في أكبر مظهر للتلفيق – أن يفتشوا عن مظاهر دستورية في القرآن، مثل: الصلح عند اقتتال فئتين من المسلمين، العدل في ممارسة الحكم، واجب الطاعة لولي الأمر، الردع بالمخلين بالنظام الاجتماعي، الشورى... وهي مظاهر مبهمة تراهن على ضمير الحاكم أكثر من مراهنتها على المؤسسات التي تراقب ضميره وتحدد صلاحياته وزمن تحمله للمسئولية، وتضعه في قلب المساءلة أمام نظام قضائي منفصل، وهي في المجمل لا تزيد عن كونها لافتات ابتدعها التحالف التاريخي بين السلطتين السياسية والدينية تدغدغ وجدان المجتمع وتعطي الحاكم رهبة كونه مبعوثاً من السماء، مُلْهَماً لا يأتيه الباطل أبداً، وأن السلطان ظل الله في الأرض.

وكما يقول "عياض بن عاشور" في كتابه "الضمير والتشريع": (ما يروج اليوم من أقوال متعلقة بآيات الشورى، مثل التي رأت فيها دعائم النظام الديمقراطي، وبذور النظام الاشتراكي وشيئاً من حقوق الإنسان، فهي تركيب معانينا الظرفية على المعاني الأزلية للكتاب، وآيات الشورى لا تمت إليها بصلة ولا إلى مفهوم العدل الاستوائي)، وهذا الهوس بالتصفيح هو الذي جمد حراكنا التاريخي وجعل مؤسساتنا الدينية هي المنوطة بتقويم أي اجتهاد معاصر وقياسه على النص، وهو في النهاية الذي كان وراء إخفاق مشروعنا التنويري، من المصادرة والنفي إلى الذبح. لقد امتلك النص الديني بدون حق حق أن يكون الذخيرة اللسانية الدائمة، يغرف منها العقل الاجتماعي رموزه ومصطلحاته ومعانيه في التغيير، (لنجد في النهاية تاريخ ليبيا الثقافي مثلاً قبل القرن العشرين ما هو إلا تاريخ فقهاء عابرين).

إن الإسلام يتعلمن عبر من يدعون أنهم يعملون على استرجاعه إلى عهده الأول طاهراً وبريئاً من كل شائبة، هم كلما عارضتهم الحياة يلجأون إلى حجة أن العيب في المسلمين وليس في الإسلام، وكأن الإسلام يعني في الواقع شيئاً آخر غير حركة المسلمين على الأرض منذ بدايته، ولكن وباختصار شديد لا يمكن لمجتمع مدني أو ديمقراطية أن تكون في برلمان أو قاعة كل رءوس نسائها مغطاة بالمحارم. وهذا الخلط هو ما حدا بدولة علمانية عريقة أن تتخذ قراراً جريئاً بمنع ارتداء الرموز الدينية في المدارس، لأنها لا تريد لتراثها العلماني العريق أن يدنس. وتأكيداً لمأزقنا الحضاري كان الاعتراض الهستيري من طرف المنابر الإسلامية فقط، وحتى المثقفون العرب تورطوا في هذه المعارضة بحجة الحرية، في أكبر مظهر للمزايدة على تقاليد فرنسا في الحرية، كان هذا القرار يبلور مفهوم المواطنة التي عليها أن تشارك بخصائصها الثقافية والاجتماعية في نسيج المجتمع العلماني، وعليها أن تقيم طقوس عبادتها في الأمكنة المحددة، ولا تشهر هذه الرموز كحدود عقائدية في ظل نظام تعليمي علماني، يسعى إلى التجاور والتعايش في ظل الدستور والقانون فقط، من هنا يأتي معنى المواطنة، لأن تكوين المواطن من أصعب شروط الهوية، فلا هوية دون دولة ولا دولة دون هوية، وفي ظل دولة تستقي كيانها وقوانينها من الدين ونخبته يغدو المواطن عبداً مؤمناً شديد الطاعة لسلطة تأخذ تفويضها من السماء، والمآل (مواطنة سلبية أساسها كثرة المطالبة والاستفادة والتعلق الاغترابي بالدولة وهو لب الديمقراطية الغفارية) كما يقول عياض بن عاشور.

الالتباس الثاني هو الذريعة التي يقول بها المراوغون كون المجتمعات المتجانسة التي لا تتشكل من أديان وطوائف وأعراق مختلفة لا تحتاج إلى نظام علماني، وهي ذريعة قاصرة وسطحية لا تعي معنى العلمانية التي في جوهرها تمثل حالة دنيوية لوضع البشر فوق الأرض باعتبارهم أدرى بأمور دنياهم، وباعتبار الأسئلة المعاصرة المعقدة والمركبة لا يمكن الإجابة عنها بالمعرفة الغيبية، ولا تفسيرها باللجوء إلى الأساطير، والعلم يحث خطاه في طريق من البحث الشاق عن إجابات مبرهنة لأزمات الإنسان في كوكبه ومراقبة مصيره المشترك أمام عوارض الطبيعة والأوبئة والمجاعات.

ثمة التباس آخر جوهري فعل فعله في حالة رفض شبه عامة للعلمانية، وهو ربط هذه المفردة بالكفر، وربما من أشاع هذا التفسير المختزل هم الساسة أنفسهم والمؤسسات الدينية والسلطات السياسية التي لا يناسبها بتاتاً أن يدخل هذا المفهوم إلى عقل المسلم،لأنه يهدد سلطاتهم ومكتسباتهم الوراثية، العلمانية ليست ضد

الدين، لكنها في الواقع تخدمه إذ تبعده على المجال العام، الذي يدخل به إلى معارك حتماً سيخسرها، لأنها ليست من دور الدين ولا من طبيعته، إن فصل العقل العلمي الذي يسميه ابن عاشور (العقل المصلحي) عن العقل الماورائي الذي يشمل الضمير الإيماني هو كنه العلمانية، وهي عملية تشبه لدينا عملية فصل التوأم الملتصق، يقاس نجاحها بحياة الاثنين، وكلما كان هذا الفصل مبكراً كلما زادت فرص العملية في النجاح، ولكن هل كانت مطالب العلمنة لدينا حديثة؟

يرجع تاريخ العلمانية إلى بداية القرن الثالث عشر في الصراع بين الكنيسة والسلطة الإمبراطورية، وما أعقبه من صراع بين الإكليروس والعلماء، وفي هذه الفترة كان ينهض لدينا صراع مماثل بين المعتزلة والأشاعرة، وبين المناطقة والنحويين، وبين أصحاب النقل وأصحاب العقل، وبين الفلسفة والشريعة، بل وأكثر من ذلك فإن من خاض هذا الصراع في أوروبا هم المثقفون الجامعيون والمنتمون إلى المدرسة الرشدية. وكل هذه الدعاوى في الغرب والشرق لاقت المعارضة والتنكيل، لكنها أثمرت نتائجها في الغرب بفعل المثابرة والمناخ المناسب، وكانت لدينا مثل البذور في الصحراء التي تنتعش كلما أغاثها مطر متباعد الفترات، ثم لا تلبث أن يتراكم عليها الرمل مجدداً، لم يتوقف هذا الجهد لدينا لكنه كان متناثر مكانياً وزمانياً وهشاً أمام أية عاصفة.

والآن الظروف التي تهيؤها ثورة الاتصالات والمعلومات والعولمة وتغير علاقات الإنتاج تجعل المناخ متاحاً لبلورة هذه المطالب التاريخية في خطوات إجرائية، بالتأكيد لن تأتي بمعجزة سريعة في تكوين عقل اجتماعي علمي ومصلحي، ولكنها تضع أقدامنا على الطريق لكي نبدأ ولا بد من البداية، التي سيخدمها عصر التسارع والاتصال في اختزال مراحل طويلة. إن النخب السياسية التي استطاعت أن تفرض نظم الطوارئ ودولة الإكراه الأمنية لعقود طويلة بإمكانها أن تفرض دستوراً علمانياً، ستولد فيه أجيال مسلمة، لكنها لم تعرف سوى العلمانية كنظام اجتماعي مصلحي. لقد كان هرم الأحكام التشريعية منفصلاً عن هرم السلطات السياسية، ومع إحداث الدولة العصرية أصبحت هي مصدر التشريع ومنفذه، آخذةً في العمل على إبعاد الدين من المجال التشريعي، ثمة شارع يتوق إلى ذلك وثمة ظرف تاريخي يسخر من فلكلورنا السياسي، الذي أصبح صالحاً للعرض في المتاحف أكثر من كونه مشروعاً قابلاً للترميم والمداراة.. فهل علينا أن ننتظر الحتمية التاريخية، وحالة النضج الاجتماعي التي يتحجج بها أرباب السلطة لنبدأ مشروعنا ؟ ونحن نملك تراثنا الفكري الذي علينا

أن نضعه في مرجل العصر ليغلي ويُنعش كل ما تخشب من أفكار لم نستطع في أغلب الأحيان الحفاظ على عرق أخضر فيها.

بعد كل هذا هل استطعت أن أخلص لهذا العنوان الكبير وهل استطعت أن أحدد تعريفاً للعلمانية وعلاقتها بالمجتمع المدني ؟ لا أدري، فأنا أكتب بعقل هو نتاج لكل هذه الالتباسات، ربما فضيلته الوحيدة أنه يعيها.. ثمة عاهة عقلية موروثة تطاردنا، وأنا على الأقل كمن يحاول أن يرسم لوحة بيد مقطوعة، وإن كان ثمة إعجاب، فلا أدري إن كان مرده إلى احترام الإرادة أم إلى الشفقة.



القبيلة والقبلية: بديل للمجتمع المدني(*)

د. أمال سيمان محمود

مفهوم القبيلة: إطار نظري

طبقاً لما جاء في دائرة معارف العلوم الاجتماعية، فإنه يمكن تعريف القبيلة والقبلية على أنها:

تنظيم اجتماعي من الأفراد يعيشون (عادة) في المناطق الاستوائية، ويستخدمون (عادة) تقنية محدودة...، القبيلة أيضاً أكبر من الأسرة، ولكنها ليست مثل الأمة. وهي ترتبط معاً بروابط القرابة والواجب.[1]

وفق لمعجم العلوم الاجتماعية، فإن القبيلة هي:

نظام من التنظيم الاجتماعي يشمل عدة جماعات محلية – قري، زمر، مقاطعات، أنساب – وعادة ما تشمل أراضي مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة. قد تكون العناصر المكونة للقبيلة خاضعة أولا لتنسيق سلطة سياسية رسمية أو مركزية. مثالياً، فإن مصطلح القبيلة يعني ضمنياً عنصراً كبيراً من التضامن يستند على مشاعر مشتركة قوية. ويصبح هذا التضامن تعاقدياً في الطبيعة عندما تصبح القبيلة أكثر تنظيماً من الناحية الرسمية.[2]

حسب ما يشير إليه التعريفان السابقان، فإن القبيلة تنظيم اجتماعي يستند على التضامن. وكان عبدالرحمن بن خلدون، عالم الاجتماع المؤرخ العربي المعروف

(*) فصل من كتاب "الثقافة السياسية في ليبيا" _ تحت الطبع _ نقله إلى العربية د/ محمد زاهي المغيربي.

(1332-1406)، أول من قدم مفهوم التضامن، وأطلق عليه تعبير "العصبية" (التضامن، إحساس الجماعة، أو وعي الجماعة) وهي كلمة استعارها من الاستخدام الكلاسيكي، وأعطاها معنى جديداً وإيجابياً. والجماعة التى يشعر الفرد بارتباطه الوثيق بها هي عشيرته أو قبيلته، أي الأفراد الذين يشاطرهم نفس الأصل المشترك. ولكن، سياسياً، يمكن أن تكون العصبية عاملاً "مشتركاً بين أفراد لا يرتبطون مع بعضهم البعض بروابط الدم، ولكن عن طريق اتصالات طويلة ووثيقة كأعضاء في جماعة ما [3] ويمكن أن يستعمل مصطلح " القبيلة " ليشير إلى الوضع الذي تحتل فيه الروابط القبيلة الأولوية على الولاءات الأوسع[4].

أدت الدراسات التحليلية للقبيلة في المجتمع العربي إلى إبراز مجموعة من الخصائص التى أعطت معنى للمفهوم. **أولاً**، أن التضامن بين أفراد القبيلة هو العنصر الرئيس فيها كتنظيم اجتماعي، **فالأصل** المشترك مهم ولكنه ليس العنصر الحصري. **ثانياً**، يهيمن الذكور على الإناث داخل القبيلة، وأدى ذلك إلى درجة أعلى من الاحترام والقيمة الاجتماعية للرجال. وذكرت نجوى أدار في دراستها حول، مفهوم القبيلة في اليمن، أن:

> المفهوم القبلي يتضمن تأكيداً على الذكورية. فالقبيلة يتم تقديمها للمجتمع ككل بصفتها الذكورية. فالقاعدة السائدة في الأنشطة الرسمية هي التمييز وفقاً للجنس، ويتم تمثيل النساء عن طريق أقاربهن من الذكور. فالنساء لا تقوم بالتصويت في الانتخابات ولا تشارك في الالتزامات القبلية المتعلقة بالحماية بصورة متساوية مع الرجال. الأمر المهم هو أن المرأة في القبيلة يطلق عليها تعبير "بنت القبيلة". على الرغم من المظهر الذكوري للقبيلة، فإن النساء لا تعتبر أقل انتماء للقبيلة من الرجال. فالمتوقع من نساء القبيلة الالتزام بالمعايير القبلية المرتبطة بالشرف والكرم والعمل. فمن المعروف أن النساء يحملن السلاح في بعض مناطق اليمن، والنساء اللائي ينجحن في أنشطة "الذكور" تنلن إعجاب الرجال والنساء على حد سواء[5].

تتأثر الديناميات القبلية بصورة كبيرة بطبيعة التنظيم القبلي. ولقد حدد علم الانثروبولوجيا ثلاثة أنواع من الوحدات القبيلة: قبائل بسيطة بدون زعيم أو رئيس، قبائل بدون زعيم أو رئيس مجزأة إلى قطاعات، وقبائل مركزية. وكما يشير جولد (Gould) وكولب (Kolp):

أولاً، تتكون القبائل البسيطة التي ليس لها زعيم أو رئيس من زمر أو قرى مستقلة. وتستند العضوية في هذه الوحدات على القرابة التي غالباً ما يتم الوعي بها والاعتراف بها بصورة ثنائية. ومن أمثلة هذه القبائل الميند والايبو والاسكيمو..إلخ. وهذه القبائل بدون زعيم أو رئيس لأنها تفتقد لرئيس مجلس محدد بوضوح. **ثانياً**، كذلك تفتقد القبائل التي بدون رئيس والمجزأة قطاعيا لرئيس محدد بوضوح، وهي تتكون من جماعات قرابة أحادية محلية، أنساب وعشائر، كل واحدة منها تدعى لنفسها قطعة أرض، وقد يكون لها تنظيم سياسي رسمي. سياسياً، كل مجموعة قرابية مستقلة عن الأخرى، على الرغم من وجود بعض الأحكام – أساساً احتفالية – التي تسمح لمجموعتين أو أكثر التصرف بصورة متوافقة في مناسبات معينة. **ثالثاً**، تمتلك القبائل المركزية مصدرا وحيدا للقوة – ملكاً، مجلساً، أو شكلاً إدارياً آخر. بصفة عامة، فإن هذه القبائل أكبر من النوعين السابقين. وبرزت في أفريقيا بعض القبائل المركزية عندما سيطرت مجموعة قرابية في نظام مجزأ قطاعيا، وأصبحت الأعلى سياسياً على المجموعات الأحادية الأخرى [6].

اهتم ابن خلدون اهتماماً خاصاً بأحد أبعاد الدينامية القبلية. وفسر ابن خلدون التاريخ العربي في إطار الصراع من أجل القوة والسلطة بين البدو والحضر [7]. بالنسبة له، فإن اختلاف ظروف وأحوال الناس هو نتيجة لاختلاف طرق حياتهم[8]. ووصف العلاقات بين البدو والحضر على أنها علاقة مواجهة نظرا للتصادم الجوهري بين مصالحهم [9]. ولا يزال هذا التقسيم التقليدي في المجتمع العربي، والمستند على مفهومي البدو والحضر، يمثل جزءًا من الثقافة العربية ولم يختف.

على الرغم من أن تبنى التقسيم التقليدي بين البدو والحضر قد يساعدنا على فهم بعض خصائص المجتمع العربي، وفي فهم البنية القبلية على وجه الخصوص، فإن نزعة وميل العلماء الباحثين إلى ربط القبيلة بالبداوة غير مقبولة. فالقبيلة قد توجد كتنظيم اجتماعي على حد سواء في المدن وفي المناطق الريفية وفي الصحراء بين البدو الرحل. فبعض القبائل تتكون من تركيبة من البدو الرحل والفلاحين وسكان المدن، فقبائل الفواغير في سوريا، وبنى ربيع في الكويت والعراق، والعنزا في المملكة العربية السعودية والبحرين والكويت، هي أمثلة لهذه التركيبة القبلية[10] وبدلاً من التقسيم إلى بدو وحضر، فقد اقترح بركات تقسيماً ثلاثياً يشمل حياة القبيلة:

من خلال تحديد القرية أو حياة الفلاح كنمط ثالث متميز من أنماط الحياة. أي، بدلاً من الاعتماد على الصورة النمطية المتمثلة في الصراع بين البدو والحضر من أجل فهم المجتمع العربي المعاصر، فإنه ينبغي أن توظف أبحاث العلوم الاجتماعية الحديثة حول القرية لتحديد ثلاثية من الأنماط الاجتماعية المتمايزة والمتجذرة في الحياة القبلية والقروية والحضرية (11).

إن تبنّى هذا النوع من التحليل سيكون مفيداً لفهم أهمية القبيلة كأحد التنظيمات الاجتماعية الرئيسة في المجتمع العربي المعاصر. فالقبيلة كتنظيم اجتماعي يمكن أن توجد في القرى والمدن، على الرغم من التغيرات الملحوظة التى حدثت في المجالين الاقتصادي والسياسي. فمن الطبيعي والمعتاد جداً أن نجد أفراداً يشيرون إلى أنفسهم على أنهم من قبائل معينة على الرغم من أنهم يعيشون في مناطق حضرية. لذلك، فإن الولاء والارتباط بالقبيلة لا يزال يلعب دوراً مهماً في الهوية الشخصية. وتبرز في معظم القبائل في ليبيا الأنماط الثلاثة للحياة (قبَيلة، قروية، حضرية)، ولكن هناك أيضاً بعض الأسر شبه القبلية التى ترجع أصولها إلى الفترة العثمانية، وهي حضرية بالكامل وليست بدوية. ويبدو أن هذا التقسيم بين القبائل والأسر شبه القبلية لم تعد له أهمية سياسية معاصرة، وأصبح التزاوج بين هذه المجموعات عملية طبيعية وعادية الآن.

من أجل فهم طبيعة أنماط الحياة الثلاثة التى تشكل المجتمع العربي المعاصر، نشير إلى دراسة **بركات**" العالم العربي: المجتمع والثقافة والدولة "التى تركز على هذه الأنماط الثلاثة: القبيلة والقرية والمدينة. ويمكن أن نرى أهمية ذلك في التنظيم الاجتماعي وفي توجهات القيم.

التنظيم الاجتماعي

يتميز التنظيم الاجتماعي البدوي بالتضامن القبلي المستند على روابط الدم والتكافل وأسس المساواة. فالوحدات الأساسية للتنظيم الاجتماعي البدوي هي القبيلة والعشيرة واللحمة والفخذة والبطن والأسرة التى تتكون من كل من الأهل (الأسرة الممتدة) والأسرة الذرية (المصغرة). ويشير بركات أيضا إلى أن الأنشطة الرئيسة للقبائل هي أنشطة سياسية تتكون من إدارة العلاقات مع القبائل الأخرى ومع الحكومة. ويتميز المجتمع البدوي بأنه مجتمع لا طبقي، بعكس قطاعات المجتمع العربي الأخرى (12).

يتكون التنظيم الاجتماعي للقرية من شبكة معقدة من العلاقات البينية بين أسر ممتدة. وتستند إحدى الاختلافات الرئيسة بين البدو والفلاحين على العلاقة مع الأرض بدلاً من روابط القرابة، أي أن " تكون بدون أرض أو تكون معزولا عن الأسرة، يعني أن تكون بدون جذور إلى أن تموت. أن تموت يعني العودة إلى الأرض مثل البذور، التي يعتبر غرسها – أي الدفن – بمثابة عملية التجديد أو الولادة من جديد. فالموت في الذاكرة الجماعية للفلاحين يتحدد باستمرارية زراعة الأرض" [13].

تمثل الأسرة الممتدة (الأهل)، وليس القبيلة، الوحدة القرابية الأساسية بين الفلاحين في القرى. وتستند بنية الأسرة على نسيج من العلاقات المتمركزة حول زراعة الأرض. بالإضافة إلى ذلك، فإن البنية الطبقية للقرية تستند على ملكية الأرض، ويشار إلى القرى في بعض البلدان العربية باسم كفر وبنى، الذي يدل على بعض العلاقة التاريخية بين التنظيم الاجتماعي في المجتمعات الزراعية وفي القبائل البدوية. ويمكن ملاحظة مثل هذه العلاقات في شمال وشمال شرق اليمن [14].

تستند السمة الرئيسة للمدينة على وظائفها وليس على حجم السكان. وتشمل وظائف المدينة العمل كمركز للأنشطة الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية. وذكر بركات أن المدينة هي مركز القوة السياسية والاقتصادية. وتعتبر أحياء الجوار والمؤسسات أساس التنظيم الاجتماعي في المدينة.

في ليبيا، لا يوجد فلاحون حقيقيون بالمعنى والصورة الموجودة في مصر واليمن. ولكن النظام البدوي للتنظيم الاجتماعي موجود في جميع أنحاء المجتمع، بما في ذلك الجماعات غير البدوية. هكذا، فإن النظام الاجتماعي للتنظيم البدوي يوجد على الأقل بصفة رسمية في المجتمع كله.

توجهات القيم

تتمثل التوجهات القيمية الرئيسة للثقافة البدوية في العصبية والفروسية والكرم والبساطة والفردية [15]. وتستخدم هذه القيم أحياناً للتمييز بين السكان القبليين وغير القبليين. فلقد أشارت **نجوى أدار** في دراستها، مفهوم القبيلة في ريف اليمن، إلى أنه:

عندما يسأل شخص رجلاً قبلياً حديثاً: " على أي أساس يعتبر المجتمع القبلي قبليا ومتميزا عن المجتمع غير القبلي؟" فإن الإجابة المحتملة تكون في إطار

التعبير عن الالتزام بنظام قيمي معين، حيث يتم إبلاغ الفرد بأنه شجاع وكريم وفطن ومدرك للعادات ومستقل (16).

يركز هذا القسم على نظام القيم وعلى القيم المشتركة التي يعرّف أفراد القبيلة أنفسهم كقبليين استناداً عليها. ويجمع المفهوم القبلي بين الالتزام الأخلاقي للتعاون مع أعضاء الجماعة وبين التركيز على الاستقلال الشخصي (17).

إن التوجهات القيمية للقرية في الثقافة العربية موجهة تجاه الأرض والأسرة والمجتمع المحلي والدين والطبقة الاجتماعية والوقت. ومن بين القيم المرتبطة بالأرض، الخصوبة والاستمرارية والصبر والعفوية.

أما التوجهات القيمية لسكان المدينة فمتضمنة في بنية اجتماعية متوازنة بصورة معقدة ودقيقة تستند على العلاقات البينية للطبقة والأسرة والمؤسسة الدينية. ولقد ميز **بركات** بين ثلاثة أنواع من البورجوازية الحضرية في البلدان العربية. **أولاً**، البورجوازية الحضرية التقليدية وتوجد في المغرب والأردن والمملكة العربية السعودية. وهؤلاء هم طبقة الأسر الوجيهة التي تسيطر على المؤسسة الدينية والنظام السياسي. بالإضافة إلى ذلك، فإن القيم الرئيسة لهذه المجموعة تستند على " الكفاح والنضال، وليس على أحلام اليقظة "، خاصة في البحث عن الأرباح المادية والقوة. ويؤكد هذا الكفاح على التقييمات الواقعية والاعتدال والبراعة والمكر والذكاء والانتهازية والابتكار (18).

يتمثل **النوع الثاني** من البورجوازية الحضرية العربية في البورجوازية القومية الجديدة التي سيطرت على النظام السياسي في عدد من البلدان العربية بعد الاستقلال مثل مصر وسوريا والعراق. في البداية، استندت قيم النخبة البورجوازية الجديدة على القيم القومية والاشتراكية من جانب (في العراق وسوريا ومصر) وعلى حركات التحرير القومية (في الجزائر وبين الفلسطينيين) من جانب آخر.

أما النوع الثالث فهو تركيبة من البورجوازية القديمة والجديدة، والأمثلة على ذلك لبنان وتونس. وتستند قيمها الليبرالية الغربية، مع التأكيد على قيم النجاح والبراغماتية والاقتصاد الحر والاستهلاك والتنظيم الغربي والفردي (19).

يؤدي البحث في الأنماط الثلاثة للمجتمع العربي، أي القبيلة والقرية والمدينة، إلى التساؤل عن العلاقة بينها. ولقد استكشف بركات العلاقات البينية التالية (20):

أ) الصراع والتعاون بين هذه الجماعات الثلاثة. ويستند التعاون على التبادل الاقتصادي، أي التجارة وتبادل السلع والخدمات الأساسية التي توفرها

المدينة لكل من القرية والبدو، مثل الصحة والخدمات الدينية والتعليمية. وتنتج الصراعات بين هذه الجماعات الثلاثة جزئياً من الحاجة للسيطرة على الأرض ومنتجاتها. فعلى سبيل المثال " حاول سكان المدن دائماً الهيمنة على القرى، وفي بعض الحالات استعملوا القبائل البدوية للقيام بذلك. وضَمَن هذا التحالف الهيمنة الحضرية على الفلاحين في الهلال الخصيب واليمن ووادي النيل والمغرب الكبير. وأدت الهيمنة الحضرية إلى فرض نظام إقطاعي والضرائب وملاك الأراضي الغائبين الذين يقطنون في المراكز الحضرية، كما أدى إلى بروز الفلاحين الذين لا يملكون أراضي." [21].

ب) القوالب والصور النمطية. توجد قوالب نمطية واضحة عن كل جماعة. على سبيل المثال، أظهر البدو، تقليدياً، فخراً كبيراً بثقافتهم الفرعية، ونظروا باختصار إلى الفلاحين باعتبارهم ضعفاء وخاضعين لسادتهم. كما أنهم رفضوا حياة المدينة التى يعتبرونها مصدراً للفساد والانحراف والضعف. وأظهر الفلاحون الفخر بحياة القرية والأرض التى يعتبرونها مصدر الكرامة، وكانوا يعتبرون البدو أناساً طفيليين وكسالى يعيشون على الغزو وسرقة المنتجات التى يصنعها الآخرون. أما سكان المدن فيعتبرون الفلاحين والبدو بدائيين. مع ذلك، فإن هناك بعض الصور الإيجابية بين هذه الثقافات الفرعية. على سبيل المثال، فإن البدو معروفون بشجاعتهم وكرمهم ونبلهم. كما أن الفلاحين وحياة القرية تمثل البساطة والهدوء والجمال الطبيعي. كذلك، فإن البدو والفلاحين مبهورون بالمدينة ورخائها المميز ومتعها [22].

جـ) مصادر القيم والمعايير المشتركة. تعتبر القبلية والتوجهات البدوية أحد المصادر الرئيسة للقيم في المدن والقرى. ونتج ذلك عن هجرة البدو إلى المجتمعات الزراعية وإلى المناطق الحضرية. ويمكن القول إن القيم البدوية لا تزال تهيمن على معظم البلدان العربية. ويقدم العراق إحدى هذه الأمثلة، حيث إن القيم البدوية عالية خاصة بين 60% من الشعب العراقي الذين تقترب طريقة حياتهم من حياة البدو، ويشاطرونهم قيّما معينة مثل التضامن والهيراركية الأبوية (البطريركية) والكرم والثأر وجرائم الشرف والعرض [23]. لا يزال المجتمع الليبي متأثراً بالقيم البدوية من خلال العادات والتقاليد، حتى في المجتمع الحضري. كذلك، فإن المدينة تمثل مصدراً آخر للقيم المشتركة. فمن المدينة جاء التحديث

والمعايير الاقتصادية الجديدة وبروز طبقات جديدة (على الرغم من أن التقسيمات الطبقية تكاد لا توجد في ليبيا). مع ذلك، لا تزال القبيلة والقرابة تلعب الأدوار الأكثر أهمية داخل المجتمع أكثر من التقسيمات الطبقية. أخيراً، تظل الأسرة، باعتبارها وحدة أساسية في التنظيم الاجتماعي، مصدرًا للتوجهات القيمية المشتركة.

تنتشر الهوية القبلية في عديد من المجتمعات العربية بين الفلاحين وسكان المدن على حد سواء، إلى جانب انتشارها بين جماعات البدو الرحل. ففي اليمن، حيث تهيمن الزراعة الفلاحية[24]، تعتبر القبائل مهمة جداً. وفي ليبيا، فإن لمعظم الأفراد روابط بدوية واضحة، حتى وإن كانوا الآن حضريين. ومن المحتمل بروز تمايزات مستندة على القبيلة والمدينة (حيث إن القرى لا تمثل شكلاً اجتماعياً مهماً). مع ذلك، ونظراً لأن العملية الحضرية الواسعة النطاق لا تزال ظاهرة جديدة نسبيا، فإن هذه التمايزات لم تتطور بصورة كاملة حتى الآن.

كذلك، فإن أهمية التقارب يمكن أن تبرز أيضاً في حجم الجهود والطاقات التى تم استثمارها في المحاولات الإيديولوجية لاستبدال الولاءات والاتجاهات القبلية التقليدية في عديد من البلدان العربية، خاصة في ليبيا. لذلك، وللمساعدة في فهم طبيعة ودور القبائل في ليبيا في الوقت الحاضر، قد يكون من المفيد التركيز على القبيلة كمفهوم في إيديولوجيا وممارسات وسياسات النظام الثوري.

القبيلة في إيديولوجيا وممارسات النظام الثوري

من أجل فهم دور القبيلة في المجتمع الليبي كتنظيم اجتماعي، وربما أيضاً كتنظيم سياسي غير منظور [25]، فإنه من المهم التركيز على إيديولوجيا النظام الثوري وعلى الجانب العملي المتعلق بسياساته وممارساته تجاه القبيلة والقبلية. مع ذلك، فإن تحليل الجانب الإيديولوجي والجانب العملي ليس بالأمر السهل. ويرى خوري (Khoury) وكوستنر (Kostiner)، أنه في بعض بلدان الشرق الأوسط، حلت تشكيلات اقتصادية والتزامات إيديولوجية جديدة محل الولاءات والمشاعر التقليدية الضيقة. إلا أن قيم المجتمع القبلي استمرت في التأثير على الدولة. في الواقع، ومن منظور الدولة، فقد تم النظر إلى التحديث والتغير الاجتماعي السريع على أنهما قد تسببا في نتائج عكسية، بمعنى أن القبائل اكتسبت دوراً متجدداً من خلال مشاركتها في الصراعات التى أنتجتها هذه التغيرات [26] .

في حالة ليبيا، قد يكون من المفيد إثارة التساؤلات التالية من أجل المساعدة في فهم الإطار الإيديولوجي والعملي للنظام الثوري الليبي تجاه القبيلة، **أولاً**، إلى أي مدى سعى النظام إلى إبعاد القبيلة **عن** لعب دور في المجتمع الليبي، خاصة في السياسة ؟ **ثانياً**، هل أصبحت القبيلة كتنظيم اجتماعي مصدرًا للشرعية السياسية للنظام الثوري، خاصة منذ بداية التسعينيات؟ أخيراً، هل نجح النظام في استبدال الولاءات التقليدية للقبائل والأسر بين مواطنيه من خلال عملية بناء وخلق هوية عربية؟ ويفترض أن الإجابات على هذه التساؤلات ستساعد على التمييز بين: **أولاً**، المنظورات الإيديولوجية للنظام الثوري تجاه القبيلة. **ثانيا**، التطبيق الفعلي للسياسات تجاه التجمعات القبلية، خاصة في السنوات القليلة الأخيرة.

القبيلة من المنظور الإيديولوجي

كان للقبائل في ليبيا دور واضح ومهم في ظل الحكم الملكي. تاريخيا، برزت الحركة السنوسية التى كانت أساس الشرعية السياسية للنظام، من مجتمع قائم على القبلية، وكان التطابق والتكافل بين قبائل السعادي في برقة والحركة السنوسية كاملاً تقريباً. كما أشار صلاح الدين سوري:

كانت القيادة السياسية في ليبيا في الفترة 1952– 1969، تركيبة من عناصر دينية وقبلية وأسرية، ومن العناصر البيروقراطية وخريجي الجامعات. ولقد هيمنت عليها طيلة العقد الأول وجزء من الثاني عناصر محافظة ذات خلفيات قبلية وأسرية ودينية، وكان معظمهم يشغلون مراكز قوية قبل إعلان الاستقلال[27].

اعتبر النظام الثوري القبيلة تنظيماً اجتماعياً مهماً وضرورياً للفرد كمصدر للقيم الاجتماعية، وكأداة للتعليم والتنشئة. ويحاجج العقيد معمر القذافي في الكتاب الأخضر بأن المجتمع يتضمن عدداً من البنى الاجتماعية التى تعتبر مركزية لحيويته ؛ وهذه البنى هي الأسرة والقبيلة والأمة، وجميعها ذات طبيعة غير سياسية.

يعتقد العقيد معمر القذافي أن القبيلة " مظلة" طبيعية للضمان الاجتماعي [28]. فالقبيلة، مثل الأسرة، توفر للأفراد منافعَ ومزايا وأفكار. على الرغم من أن عديداً من البلدان حاولت إضعاف، إن لم يكن تدمير، القبائل باسم التقدم والتحديث، فإن العقيد معمر القذافي يعتقد أن للقبيلة دوراً معيناً تلعبه في عملية التنشئة. فمنذ الطفولة إلى الكبر، يتشرب الناس بصورة تدريجية ومنتظمة العادات والتقاليد

القبلية التى تؤثر على قيمهم وأخلاقهم ومثلهم وسلوكهم. ويقترح معمر القذافي أن هذه الخبرة الحياتية العملية من التثقيف القبلي يمكن أن تفيد المجتمع إذا تم تحويلها إلى تعليم اجتماعي. بالنسبة له، فإن هذا التعليم ليس عملياً وقيما فحسب، ولكنه أيضاً " أفضل وأكثر إنسانية من أي تعليمٍ (رسمي) في المدرسة" [29]. بالإضافة إلى ذلك، لم تعتبر القبيلة تنظيماً سياسياً، فأي بعد سياسي سيغير دورها في توفير الأمان الاجتماعي وفي عملية التنشئة.

في البداية، اعتبر النظام الثوري أن القبيلة ضارة نظراً لآثارها الانشقاقية، ولتقويضها للقومية الجماعية (العروبة). من الناحية الإيديولوجية، يرفض العقيد معمر القذافي أي دور سياسي للقبائل، مثل رفضه لأي دور للنظام الحزبي، فهو يصر على أن الحزب هو الشكل الحديث للنظام القبلي والطائفي. فالمجتمع الذي يحكمه حزب واحد هو تماماً مثل ذلك الذي تحكمه قبيلة واحدة أو طائفة واحدة [30]. من الواضح أن النظام يسعى للتقليل من أي دور سياسي للقبائل وللتركيز على الدور الاجتماعي للقبائل كأداة للتعليم وكمصدر للأمان بالنسبة للفرد.

القبيلة من منظور الممارسة العملية

بدأ المنظور العملي للنظام الثوري تجاه القبيلة في السنوات الأولى للثورة. ومن أجل تعزيز الثورة، حاول النظام الثوري تفكيك النخبة القديمة والبنية القبلية. ولاحظ الفتحلي وبالمر:

> كان من الأسهل للنظام الجديد التعامل مع أولئك في المعارضة الذين تمتد جذورهم عميقاً في نسيج المجتمع الليبي. وكان الأمر حساساً بصفة خاصة فيما يتعلق بشيوخ القبائل. فلقد ازدهر شيوخ القبائل في ظل النظام الملكي. في الواقع، فإن الحدود الإدارية المحلية للقبائل المهيمنة كانت هي الحدود الفعلية للحكومة المحلية، وهيمن الزعماء القبليون على المناصب الإدارية المحلية [31].

لأغراض هذه الدراسة، لعله من المفيد تصنيف السياسات العملية للنظام الثوري تجاه القبيلة إلى مرحلتين. بدأت **المرحلة الأولى** مع بداية الثورة عام 1969، واستمرت إلى نهاية الثمانينيات. خلال هذه المرحلة، كان العداء تجاه القبيلة صريحاً، وبذلت جهود عظيمة للتقليل من، بل في الواقع إزالة، الولاءات والارتباطات القبلية [32]. وتم إعادة هيكلة الحدود الإدارية المستندة على الحدود القبلية الفعلية، وتلى ذلك عزل جمع المسئولين المحليين، بمن فيهم المحافظون والعمد، الذين كان معظمهم من شيوخ وزعماء القبائل أو أقاربهم، وحل محلهم

إداريون محليون جدد تتوافق قيمهم وأصولهم الاجتماعية مع قيم وأصول أعضاء مجلس قيادة الثورة، وكانوا عادة أفراداً متعلمين من قبائل أقل مكانة وليست لهم روابط مع بنية النخبة القديمة [33]. طيلة هذه المرحلة، بذل النظام الثوري تحت قيادة العقيد معمر القذافي جهداً كبيراً لتقويض البنية التقليدية، ومن أجل التقليل من الهوية والانتماء القبلي والإقليمي. وأشار الفتحلي وزملاؤه:

تم تفكيك النظام القبلي قانونيا، وتم خلق تنظيم سياسي وحيد، الاتحاد الاشتراكي العربي، في يونيو 1971 ليملأ الفراغ. وتم تدمير الوضع القانوني للقبائل عن طريق تقسيم المناطق القبلية إلى مقاطعات تتقاطع مع الحدود القبلية القديمة، وتضم أجزاء من قبائل مختلفة ضمن مقاطعة واحدة. كذلك، تم تغيير القيادة بصورة راديكالية، حيث إن الشيوخ،الذين كانت مناصبهم موروثة، كان يتم اختيارهم على أساس العزو، حل محلهم مديرون للمقاطعات تم اختيارهم على أساس المهارة والتعليم[34].

في المرحلة الثانية، قام النظام الثوري، وبصورة مثيرة للدهشة والاستغراب، بتوظيف البنية القبلية للترويج لأنشطته، وشكل ذلك تغييراً جوهرياً في سياساته. منذ أوائل التسعينيات، كان هناك حرص شديد في التعامل مع النظام القبلي، وكانت زيارات العقيد معمر القذافي للقبائل المختلفة من الأنشطة الملفتة للنظر في السنوات القليلة الأخيرة.

كذلك تم استخدام القبيلة كأداة ضغط للتخلص من أية معارضة للنظام الثوري، داخل وخارج البلاد. ففي مقابلة مع صحيفة "الحياة"، وهي صحيفة عربية تصدر من لندن، أشار أمين الوحدة [35]. إلى أنه من الممكن توظيف القبيلة كأداة " لمحاصرة ظاهرة الخيانة" في المجتمع الليبي (أي مواجهة المعارضة للنظام الثوري). وتم تشجيع معظم القبائل، ومن خلال شيوخها وزعمائها، على كتابة وثائق العهد والمبايعة لإثبات الولاء والارتباط بالثورة وقيادتها.

عبر العقيد معمر القذافي عن نفس الفكرة عندما أشار إلى ضرورة " قيام القبائل بحصار الخيانة الاجتماعية " [36]. وتضمنت الاستراتيجية الأخيرة تشجيع القبائل وزعمائها على إصدار بيانات تشجب وتتبرأ من أبناء القبيلة الذين خانوا البلاد والنظام الثوري. وقد يؤدي الضغط على القبائل إلى طردها لأبنائها الذين كانوا ضد النظام.

نتيجة لهذه التطورات، فإن النفوذ القبلي يتغلغل الآن في المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية. فخلال عملية تصعيد اللجان الشعبية عام 1990، كان البعد القبلي واضحاً في عملية التصعيد حتى في مدينة بنغازي [37]. وتبرز أهمية القبيلة

والقبلية بالنسبة لطلبة الجامعات من خلال الأنشطة السياسية التي ينخرطون فيها داخل الجامعة، خاصة خلال اختيار أمانات المؤتمرات الطلابية.

في السنوات الأخيرة، عاد عديد من الليبيين إلى القبيلة كملاذ للحماية والأمان والدعم، وكان ذلك واضحا في تصعيد اللجان الشعبية، وكما لاحظ الكيخيا، فإن:

عدداً كبيراً من المرشحين سعوا للترشيح، وتم اختيارهم على أساس الانتماء القبلي، وحدثت معارك دامية بين القبائل حول الأرض أو حول المناصب السياسية [38].

يواجه النظام الثوري الآن وضعاً متناقضاً حول علاقته بالنظام القبلي. فمن ناحية، سعى النظام إلى توظيف العلاقات الجيدة مع القبائل كمصدر للشرعية، إلى جانب بعض الوظائف الاجتماعية المهمة. من ناحية أخرى، ومن خلال قيامه بذلك، فإن النظام الثوري سمح للبعد القبلي – والذي كان النظام الثوري يتمنى قصره على المجال الاجتماعي – بالعودة من جديد للعملية السياسية، حتى وإن كان ذلك بطريقة غير رسمية. في عام 1993 جعل النظام الثوري الدور القبلي جزءا رسميا من المشهد السياسي، فلقد تم خلق مؤسسة جديدة ضمن إطار النظام السياسي وهي القيادات الشعبية الاجتماعية [39]. وتم تعريفها على أنها " المظلة الوطنية الرئيسة" لجميع القوى داخل ليبيا ومع التركيز عمليا على القيادات القبلية في كل منطقة، تم خلق قيادة شعبية اجتماعية تغطى المنطقة اجتماعيا وجغرافياً. وكان أعضاؤها من " القيادات الطبيعية المحترمة " للمجتمعات المحلية الذين يقومون بدورهم باختيار مجموعة من "المنسقين " لمدة ثلاث سنوات [40]. ومن بين المنسقين يتم اختيار منسق ليمثل المنطقة في القيادة الشعبية الاجتماعية على مستوى الشعبية. ومن بين المنسقين العموم للشعبيات يتم اختيار منسق عام على المستوى الوطني لمدة ستة أشهر.

تتضمن واجبات القيادة الشعبية الاجتماعية مواجهة " الفساد والانحراف ومحاولات المؤمرات الخيانية "، ونشر " الثقافة الثورية " وحل النزاعات المحلية، والاتصال مع المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية، ومتابعة خطط التنمية للمنطقة، وتحريض القوى المحلية لضمان تزايد الإنتاج [41].

من الواضح، بصفة عامة، أن هناك اختلافات بين الجوانب الإيديولوجية والعملية من سياسات النظام الثوري تجاه القبيلة. فالجانب الإيديولوجي يسعى إلى تحديد وحصر الدور السياسي للقبيلة، في الوقت الذي كان يشجع فيه دورها كتنظيم اجتماعي وكأداة للتعليم. كذلك، فإن الجانب العملي كان في المرحلة الأولى صدى لهذه الإيديولوجيا. إلا أن النظام الثوري أدرك في التسعينيات أهمية

دور القبائل في المجتمع الليبي. وأدى هذا الإدراك إلى سعي النظام للحصول على التأييد القبلي، وبالتالي الشرعية، من خلال الاعتراف بها والتنازل لها عن النفوذ والتأثير على المستوى الاجتماعي. في الواقع، فإن محاولات النظام لإبعاد القبائل عن دورها السياسي لم تكن ناجحة. مع أوائل التسعينيات، أصبح من الواضح أن القبائل قد صارت أحد المصادر الرئيسة للشرعية السياسية للنظام وأحد العوامل الجوهرية في استقرار الوضع الداخلي، خاصة بعد تزايد الضغوط الخارجية وفرض عقوبات الأمم المتحدة. ولم يكن التركيز على الدور القبلي في المناطق الريفية فحسب، بل أيضاً في المناطق الحضرية، حيث احتفظت القبائل بمكانة قوية بين السكان.

في عام 1995، أدخل النظام الثوري ما أسماه "وثيقة الشرف" التى ركزت على فكرة المسئولية الجماعية والعقوبة الجماعية في حالة قيام أعضاء من القبائل "بخيانة البلاد والنظام الثوري". كان على زعماء القبائل تحمل مسئولية تصرفات وأفعال أعضاء القبيلة، وأي فشل في معاقبة المخطئين يؤدي إلى عقوبة جماعية لكل القبيلة أو الأسرة. وبرزت مثل هذه الحالات بالنسبة لقبيلة ورفلة، وفيما يتعلق بالحماية التى منحتها بعض القبائل لبعض النشطين الإسلاميين في شرق ليبيا.

استكشاف الاتجاهات القبلية: تحليل البيانات

يهدف هذا القسم إلى استكشاف اتجاهات المبحوثين تجاه القبيلة والقبلية في ليبيا عن طريق ثلاثة أسئلة من أسئلة الاستبيان (19 أ، 19 ب، 20، 21، انظر: الملحق أ). سيتم النظر في الأبعاد المتعلقة بالولاء والارتباط بالقبيلة، وفي احتمالات تغيير أو التخلي عن، القبيلة كأحد مصادر الهوية.

نزعات وميول الولاء والارتباط بالقبيلة

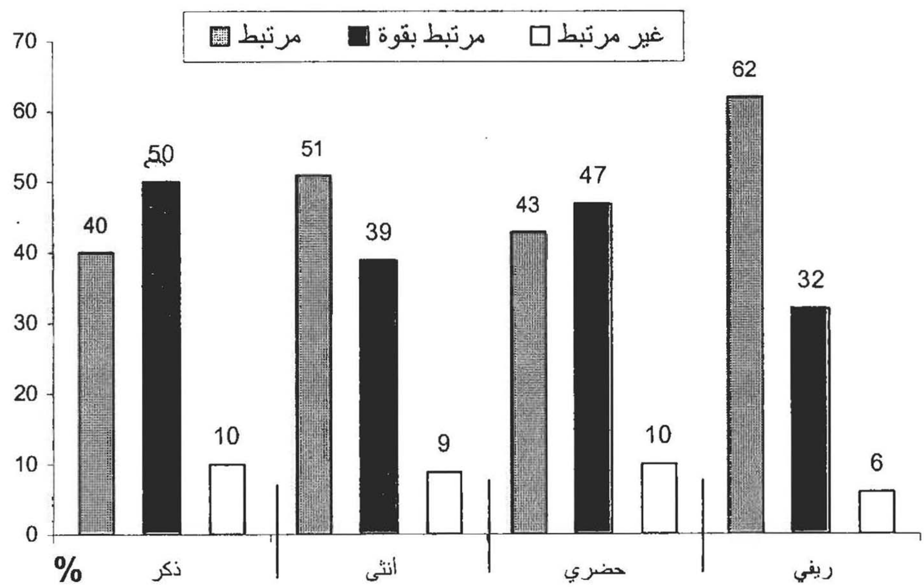
يستند الجانب الأول من الاتجاهات نحو القبيلة والقبلية التى تم فحصها على الإجابات على سؤالين. تضمن السؤال الأول الطلب من المبحوثين تحديد ما إذا كانوا ينتمون إلى قبيلة، بينما غطى السؤال الثاني قوة الشعور بالولاء والارتباط تجاه القبيلة.

تبين الإجابات عن السؤال الأول أن كل المبحوثين تقريباً عبروا عن ارتباطات قبلية، حيث إن 96% اعتبروا أنفسهم منتمين لقبيلة. ويبين الشكل 5-1

قوة ولاء وارتباط المبحوثين بالقبيلة حسب النوع الاجتماعي (ذكر / أنثى) وحسب مكان إقامة الأسرة (حضري/ ريفي). من بين 492 مبحوثاً، عبر 45% عن أنهم " مرتبطون بقوة"، و 45% عن أنهم " مرتبطون"، بينما لم يعبر سوى 10% عن أنهم " غير مرتبطين".

من المفيد مقارنة هذه النتائج بنتائج دراسة مسحية أخرى قام بها الفتحلي وبالمر عام 1973 حول التنمية السياسية والتغير الاجتماعي في ليبيا. احتوى استبيان تلك الدراسة المسحية على عدة أسئلة متعلقة بالقبلية. وكان أحد هذه الأسئلة مطابقاً لأحد أسئلة استبيان الدراسة الحالية وهو: " هل تشعر بالولاء والارتباط بقبيلتك ؟" وأظهرت نتائج أبحاث الفتحلي وبالمر أن القبيلة كانت جزءًا أساسيا من الحياة الليبية. فلقد عبر 33.2% من المبحوثين عن ارتباطهم القوى، 38.2% عن ارتباطهم، 9.4% عن ارتباطهم إلى حد ما، 19.1% عن عدم ارتباطهم. ويرى الباحثان أنه نظرا لأن الحكومة قد ألغت النظام القبلي قبل إجراء الدراسة المسحية، فإن ارتفاع نسبة حالات عدم الإجابة على البنود المتعلقة بالقبلية (حوالي 40%) يؤدي إلى صعوبة تفسير البيانات. مع ذلك، فإن ارتفاع نسبة عدم الإجابة جعل الباحثين يستنتجان أن القبلية لا تزال تشكل جزءا من الحياة الليبية [42].

الشكل 5-1: الولاء والارتباط تجاه القبيلة حسب النوع الاجتماعي ومكان إقامة الأسرة



إلى حد ما، فإن هذه النتائج مشابهة لنتائج الدراسة الحالية، على الرغم من أنه من المثير للانتباه والاهتمام أن نسبة غير المرتبطين بالقبيلة كانت أقل عام 1994 عما كانت عليه عام 1973. كشفت الدراستان اللتان أجريتا في 1973 و1994، أن الولاء والارتباط بالقبيلة واضح وقوى جداً، على الرغم من الاختلافات بين عينتي الدراستين. من الواضح أن جهود النظام لإضعاف النظام القبلي والهوية القبلية لم يصادفها النجاح. ويمكن إرجاع الاختلافات في البيانات (حتى أواخر الثمانينيات) إلى تزايد الانفتاح تجاه الولاء القبلي الذي أصبح ممكنا في 1994.

إن الاختلاف بين الذكور والإناث في الشكل 5-1 مثيراً للاهتمام. فلقد عبر 51% من الإناث عن الارتباط القوى بالقبيلة، و39% عن الارتباط، 9% عن عدم الارتباط. مقارنة بذلك، فإن 40% من الذكور عبروا عن ارتباطهم القوي، و 50% عن ارتباطهم، و10% عن عدم ارتباطهم. هكذا، فإنه يبدو أن الطالبات أكثر ارتباطاً وولاء للقبيلة من الطلاب.

كذلك، فإن الاختلاف بين المبحوثين الحضريين والريفيين واضح في الشكل 5-1. فالارتباط بالقبيلة كان قوياً بين المبحوثين الريفيين، فلقد كان 62% من المبحوثين الريفيين مرتبطين بقوة بالقبيلة، و 32% مرتبطين، و6% غير مرتبطين. بينما كان 43% فقط من المبحوثين الحضريين مرتبطين بقوة بقبيلتهم، و47% مرتبطين، و10% غير مرتبطين.

إن المؤشرات التى تدل على أن سكان الحضر أقل احتمالاً لأن يكونوا مرتبطين بقوة بالقبيلة تعكس النظرة المقبولة بصفة عامة حول اختلاف الاتجاهات بين السكان الحضريين والسكان الريفيين. التفسير المحتمل للاختلافات بين الذكور والإناث في ولائهم وارتباطهم بالقبيلة هو أن الذكور بصفة عامة أكثر انخراطا في أنشطة المجتمع العامة. وعادة ما تكون هذه الأنشطة، مثل العضوية في المنظمات غير الحكومية كالنوادي والروابط المهنية والنقابات، مقصورة على المناطق الحضرية.

يشير الجدول 5-1 إلى الولاء والارتباط بالقبيلة حسب دخل الأسرة ولم يكن هناك نمط واضح أو ارتباط مع الدخل. هكذا، فإن النمط العام لا يشير إلى وجود علاقة بين الانتماء القبلي والثروة. مع ذلك، من المثير للاهتمام أن النسبة الأعلى لغير المرتبطين بالقبيلة كانت بين الفئة الأفقر من المبحوثين.

الجدول 5-1: الولاء والارتباط حسب دخل الأسرة:

دخل الأسرة	عدد المبحوثين	٪ المرتبط بقوة	٪ المرتبط	٪ غير المرتبط
120 ديناراً فأقل	18	39	33	28
121 – 199	65	46	45	9
200 – 300	215	50	43	7
301 – 500	131	36	53	9
أكثر من 500 دينار	63	51	35	14

يبين الجدول 5–2 نسبة الولاء والارتباط بالقبيلة حسب مستوى تعليم الأب، ولقد توقعت الباحثة أنه كلما ارتفع مستوى تعليم الأب كلما قل ارتباط المبحوث بالقبيلة، إلا أن البيانات تبين عدم وجود اتجاه عام من هذا النوع.

الجدول 5-2: الولاء والارتباط حسب مستوى تعليم الأب:

مستوى تعليم الأب	عدد المبحوثين	٪ المرتبط بقوة	٪ المرتبط	٪ غير المرتبط
أمي	85	45	47	8
يقرأ فقط	23	44	35	22
يقرأ ويكتب	64	41	47	11
ابتدائي	69	58	36	6
إعدادي	65	49	43	8
ثانوي	61	44	43	13
متوسط	33	46	52	3
جامعي وما فوق	90	38	50	11

المصدر: الدراسة الحقلية، 1994.

كذلك، تم فحص الولاء والارتباط القبلي للمبحوثين حسب مستوى تعليم الأم. في هذه الحالة فإن البيانات تبين ميلاً عاماً لأن يتناقص الارتباط بالقبيلة كلما

ارتفع مستوى تعليم الام. فبين الفئات الثلاث الأولى من المبحوثين (كما هو مبين بالجدول 5-3)، كان الارتباط بالقبيلة مرتفعا جدا، وينعكس ذلك خاصة بين أولئك الذين يعبرون عن " الارتباط القوي ". ويبين هذا أن المبحوثين الذين كانت أمهاتهم غير متعلمات أو أن تعليمهن محدود جداً، كانوا أكثر ارتباطاً بالقبيلة، إلا أنه مع ذلك لا يوجد نمط واضح في مستويات التعليم المرتفعة.

الجدول 5-3: الولاء والارتباط حسب مستوى تعليم الأم

مستوى تعليم الأم	عدد المبحوثين	٪ المرتبط بقوة	٪ المرتبط	٪ غير المرتبط
أمي	245	49	41	10
تقرأ فقط	29	59	35	7
تقرأ وتكتب	37	46	51	0
ابتدائي	58	41	53	5
إعدادي	52	44	46	10
ثانوي	27	26	48	26
متوسط	26	31	50	19
جامعية وما فوق	18	39	50	6

المصدر: الدراسة الحقلية 1994.

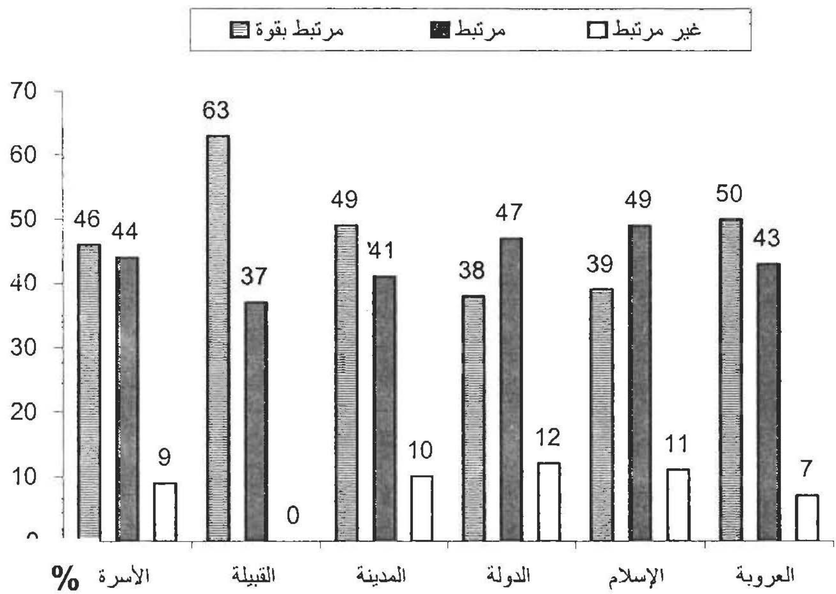
يبين الشكل 5-2 الولاء والارتباط القبلي حسب متغيرات مصادر الهوية (الأسرة، القبيلة، المدينة، الدولة، الإسلام، العروبة - انظر: الفصل الرابع). وتعكس البيانات بعض الاختلافات المهمة إحصائيا. فبين المبحوثين ذوي التوجهات الأسرية والذين ينتمون للأسرة كمصدر للهوية، كان 46% منهم مرتبطين بقوة بالقبيلة، و 44% كانوا مرتبطين،.و 9% غير مرتبطين. وبين أولئك الذين يعبرون عن انتمائهم للقبيلة كمصدر للهوية، فإن 63% منهم مرتبطون بقوة بالقبيلة، وهي أعلى نسبة بين المبحوثين بصفة عامة، و37% منهم مرتبطون، ولا يوجد أي واحد منهم غير مرتبط بالقبيلة. ولا تثير هذه

النتيجة الدهشة والاستغراب، لأنه كلما كان الأفراد يعبرون عن انتمائهم للقبيلة كمصدر للهوية كلما زادت درجة ولائهم وارتباطهم بها. وبين المبحوثين الذين يعبرون عن انتمائهم للمدينة، فإن 49% منهم مرتبطون بقوة بالقبيلة، و41% منهم مرتبطون، و10% غير مرتبطين.

أما بين الذين يعبرون عن انتمائهم للدولة كمصدر للهوية، فإن 38% منهم مرتبطون بقوة بالقبيلة، و47% مرتبطون، و12% غير مرتبطين.

كذلك، فإن 39% من الذين يعبرون عن انتمائهم الإسلامي كانوا مرتبطين بقوة بالقبيلة، و49% كانوا مرتبطين، و كان 11% غير مرتبطين – ويبدو أن نسبة أولئك الذين يعبرون عن انتمائهم للدولة والإسلام كمصدر للهوية يبرزون أدنى ارتباط بالقبيلة. وأخيراً، فبين أولئك الذين يعبرون عن انتمائهم العربي، فإن 50% منهم مرتبطون بقوة بالقبيلة، و43% مرتبطون، و7% منهم فقط غير مرتبطين.

الشكل 5-2: الولاء والارتباط حسب مصادر الهوية



التخلي عن – أو تغيير – الهوية القبلية

يستند البعد الثاني للقبيلة والقبلية على سؤالين رئيسين، وهما السؤال رقم 20 والسؤال رقم 21 (انظر: الملحق أ). وتضمن السؤال الأول الطلب من المبحوثين الإجابة على ما يلي:

* إذا كان ممكناً، فهل ترغب في أن يتخلى الليبيون عن الهوية القبلية وأن ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم ليبيين فقط ؟

أما السؤال الثاني فقد تناول إمكانية قيام الفرد بتغيير قبيلته إلى قبيلة أخرى. وطلب من المبحوثين الإجابة على ما يلي:

* إذا سنحت لك الفرصة، هل ترغب في التغيير إلى قبيلة أخرى ؟

لقد كانت الإجابات على السؤال الأول مثيرة للاهتمام حقاً. فعندما سُئل المبحوثون حول إمكانية التخلي عن الهوية القبلية داخل ليبيا واعتبار أنفسهم ليبيين فقط، وافق 47% من المبحوثين على هذه الفكرة، ولم يوافق عليها 52% من المبحوثين. أخذاً في الاعتبار مستوى الانتماء للقبيلة، فإن استعداد حوالي نصف المبحوثين للتخلي عن هويتهم القبلية هو أمر مثير للدهشة والاستغراب. مع ذلك، ينبغي أن نتذكر أن الناس يعلنون عن انتمائهم للنظام القبلي في المجتمع في ظروف معينة. فالكثير من الذين يعربون عن انتمائهم للقبيلة في مثل هذه الظروف قد يفضلون الحياة في مجتمع ليس فيه للقبيلة أهمية، وبالتالي يكونون على استعداد من حيث المبدأ للتخلي عن تلك الهوية. ويمكن مقارنة نتائج هذا السؤال مع نتائج دراسة الفتحلي وبالمر المذكورة أعلاه. فلقد تضمنت دراستهما المسحية سؤالاً مشابهاً: إذا سنحت لك الفرصة، هل ترغب في التخلي عن الهوية القبلية ؟ اكتشف الفتحلي وبالمر أن 40% من المبحوثين أجابوا بالإيجاب حول التخلي عن الهوية القبلية، وكان 59% ضد هذه الفكرة [43].

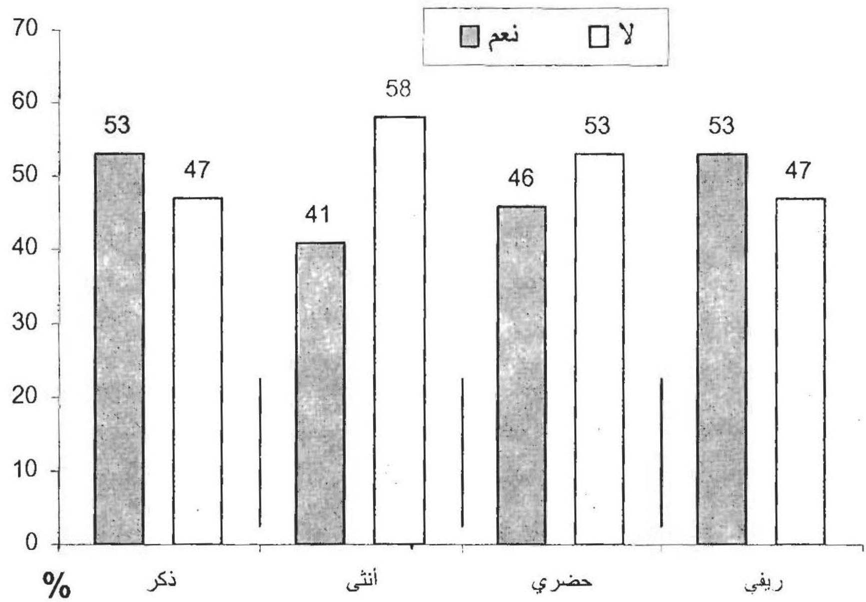
توجد بعض الاختلافات البسيطة بين الدراستين فيما يتعلق بالتخلي عن الهوية القبلية. فلقد كان عدد أكبر من المبحوثين في الدراسة الحالية (47%) على استعداد للتخلي عن الهوية القبلية، بينما كان 41% من المبحوثين في دراسة الفتحلي وبالمر على استعداد للقيام بذلك. إلا أن هذه الاختلافات ليست ذات أهمية ودلالة إحصائية كبيرة.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني، فإن الإجابة كانت متوقعة، أخذاً في الاعتبار أن معظم الليبيين ينتمون لقبائل ويبدو أنهم مرتبطون بها. فلقد وافق 3% فقط على التغيير إلى قبيلة أخرى، بينما رفض ذلك 95% من المبحوثين.

يبين الشكل 5-3 نسبة المبحوثين المستعدين للتخلي عن هويتهم القبلية حسب النوع الاجتماعي ومكان إقامة الأسرة (حضري وريفي). من خلال النظر إلى النتائج حسب النوع الاجتماعي، فإنه يبدو أن هناك بعض الاختلافات بين المبحوثين الذكور والإناث في اتجاهاتهم تجاه التخلي عن الهوية القبلية. كما هو مبين في الشكل، فإن المبحوثات الإناث هن الأكثر احتمالا لرفض التخلي عن

الهوية القبلية من الذكور، فلقد قبل 53% من المبحوثين الذكور فكرة التخلي عن الهوية القبلية، بينما قبل هذه الفكرة 41% فقط من المبحوثات الإناث.

الشكل 5-3: الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية حسب النوع الاجتماعي ومكان إقامة الأسرة



كما هو مبين في الشكل 5-3، فإن المبحوثين الريفيين كانوا أكثر استعداداً من المبحوثين الحضريين للتخلي عن هويتهم القبلية، الأمر الذي يثير الدهشة والاستغراب، وذلك لأن السكان الريفيين بصفة عامة أكثر ارتباطاً بقبائلهم، مع ذلك، فإن 53% من المبحوثين الريفيين قبلوا الفكرة، مقارنة بنسبة 46% بين المبحوثين الحضريين.

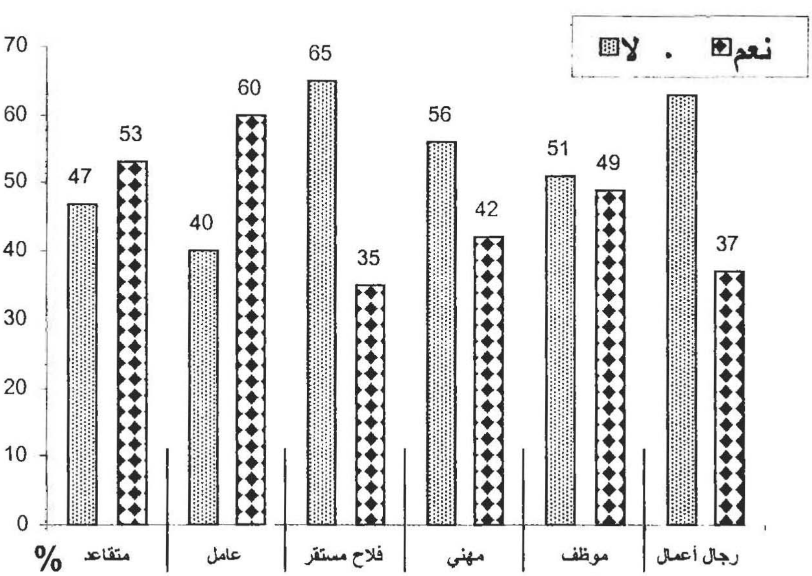
عند فحص الاتجاهات حسب دخل الأسرة، فإن النتائج تشير إلى أنه بين فئات الدخل الخمسة، فإن ذوي الدخل المنخفض كانوا أكثر استعداداً للتخلي عن الهوية القبلية من ذوي الدخل المرتفع. فلقد أجاب 61% من المبحوثين الذين يقل دخل أسرهم عن 120 ديناراً في الشهر بالإيجاب حول التخلي عن هويتهم القبلية، بينما أجاب 39% منهم فقط بالنفي. ويوجد توزيع مماثل بين المبحوثين الذين يتراوح دخل أسرهم ما بين 121 و 199 ديناراً ليبيا. أما بين المبحوثين الذين كان دخل أسرهم ما بين 200 و 300 ديناراً، فلقد أجاب 40% بالإيجاب و59% بالنفي. بينما بين المبحوثين الذين يتراوح دخل أسرهم ما بين 301 و500 دينار ليبي، فكانت النسبة 49% للمستعدين للتخلي عن هويتهم القبلية

و 51% لغير المستعدين للقيام بذلك. أما بالنسبة للفئة الأخيرة، أي أولئك الذين يزيد دخل أسرهم عن 501 دينار ليبي، فإن 51% أجابوا بالإيجاب و 49% أجابوا، بالنفي فيما يتعلق بالاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية.

تظهر البيانات أن الأفقر (حسب دخل الأسرة) ليسوا الأكثر ارتباطا بالقبيلة، وهذا لا يتوافق مع الافتراض الشائع بأن الهوية القبلية أقوى بين الفقراء، حيث إن فئة الدخل الأقل تمثل أعلى نسبة من المبحوثين الذين قبلوا فكرة التخلي عن الهوية القبلية. أيضاً من المثير للدهشة والاستغراب، أن فئة الدخل المتوسط هي التى تبدو الأكثر ارتباطا بالقبيلة. ولقد كانت هذه الاختلافات مهمة وذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05. وربما يمكن تفسير النتائج من خلال الإشارة إلى حقيقة أن الفقراء لا يستفيدون أحيانا من قبائلهم كشبكة اجتماعية واقتصادية، بعكس الطبقة المتوسطة.

يبين الشكل 5-4 اتجاهات المبحوثين تجاه التخلي عن الهوية القبلية حسب مهنة الأب. ويبدو أن المبحوثين الذين كانت مهنة آبائهم رجال أعمال أو فلاحين مستقرين هم أكثر احتمالا للارتباط بقبيلتهم، حيث إن هاتين الفئتين سجلتا أدنى نسبة (37%، 35%) بين الذين كانوا على استعداد للتخلي عن هويتهم القبلية. من ناحية أخرى، فإن المبحوثين الذين كان آباؤهم عمالا أو متقاعدين، يمثلون أعلى نسبة بين أولئك الذين وافقوا على التخلي عن هويتهم القبلية.

الشكل 5-4: الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية حسب مهنة الأب



أما الجدول 5-4 فيبرز اتجاهات المبحوثين حسب مستوى تعليم الأب. وكانت النتيجة الأكثر إثارة للاهتمام في هذا الجدول هي أن المبحوثين الذين كان آباؤهم أميين يشكلون أعلى نسبة (55%) بين الذين كانوا مستعدين للتخلي عن هويتهم القبلية. كذلك من المثير للاهتمام أن الذين كان آباؤهم جامعيين كانوا الأقل استعدادا للتخلي عن الهوية القبلية. أما بالنسبة للفئات الأخرى فلا توجد علاقة واضحة.

كذلك تم النظر في الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية وفقا للتخصص الدراسي. بصفة عامة، فإن النتائج تشير إلى أن اختلاف التخصص بين العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية لا يؤدي إلى اختلافات مهمة في هذا الإطار. وتوجد بعض الاختلافات البسيطة بين الكليات، إلا أن أكبر الاختلافات كانت بين مجموعات التخصص.(انظر الجدول 5-5)

يبين الشكل 5-5 اتجاهات المبحوثين حسب مصادر الهوية، ومنه يتضح أن المبحوثين الذي يعربون عن انتمائهم للإسلام أو الدولة هم الأكثر استعداداً للتخلي عن الهوية القبلية، وبنسبة 51% من المبحوثين.

الجدول 5-4: الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية حسب مستوى تعليم الأب

مستوى تعليم الأب	عدد المبحوثين	٪ نعم	٪ لا
أمي	87	55	45
يقرأ فقط	23	39	61
يقرأ ويكتب	68	52	47
ابتدائي	69	46	54
إعدادي	65	43	57
ثانوي	62	50	50
متوسط	33	42	52
جامعي وما فوق	91	41	59

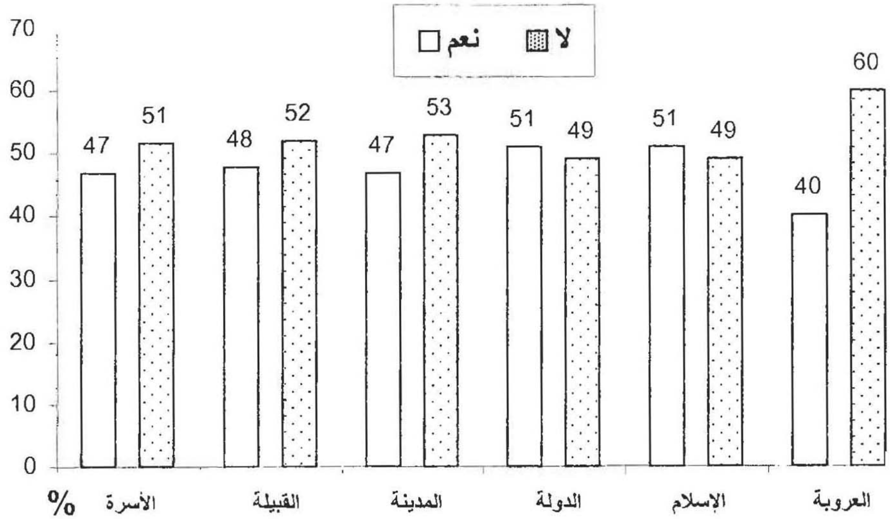
المصدر: الدراسة الحقلية 1994.

الجدول 5-5: الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية حسب التخصص الدراسي

الكلية والتخصص	عدد المبحوثين	٪ نعم	٪ لا
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية	241	–	–
* الاقتصاد	60	50	50
* إدارة الأعمال	60	48	50
* المحاسبة	60	40	60
* العلوم السياسية	61	57	43
كلية الآداب والتربية	124	–	–
* اللغة العربية	27	33	67
* اللغة الإنجليزية	23	30	70
* التاريخ	25	36	64
* علم الاجتماع	25	52	44
* الإعلام	24	42	54
كلية القانون	35	54	46
كلية العلوم	55	–	–
* الحيوان	21	38	63
* الرياضيات	17	29	71
* الكيمياء	17	65	35
كلية الهندسة	45	–	–
* الهندسة الكهربائية	16	38	62
* الهندسة الصناعية	13	69	31
* الهندسة المدنية	16	69	31

المصدر: الدراسة الحقلية1994.

الشكل 5-5: الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية حسب مصادر الهوية



بين أولئك الذين يعبرون عن انتمائهم للقبيلة، كان 48% منهم على استعداد للتخلي عن هويتهم القبلية، بينما رفض 52% منهم ذلك. كما أعلن 47% من الذين كانوا منتمين للأسرة عن استعدادهم للتخلي عن الهوية القبلية، ولم يكن 53% على استعداد للقيام بذلك. أما بين المنتمين للعروبة، فإن 60% من المبحوثين كانوا معارضين للتخلي عن هويتهم القبلية، بينما وافق 40% على ذلك.

بصفة عامة، فإن المثير للدهشة والاستغراب أن الذين يعتبرون القبيلة المصدر الرئيس لهويتهم الشخصية كانوا أكثر استعدادا للتخلي عن هويتهم القبلية من أولئك المنتمين للأسرة والمدينة والعروبة. والأكثر إثارة للدهشة والاستغراب أن الذين يعتبرون العروبة المصدر الأساس لهويتهم الشخصية كانوا الأقل استعدادا للتخلي عن هويتهم القبلية، مع أن المتوقع أن يكونوا الأقل ارتباطاً بالقبيلة.

ملاحظات ختامية

كان الهدف الرئيس لهذا الفصل هو استكشاف اتجاهات المبحوثين تجاه القبيلة والقبلية استناداً على ثلاثة أسئلة في الاستبيان. وبينت التحليلات عدم وجود تباين مهم في السؤال المتعلق بالتغيير من قبيلة لأخرى، حيث رفضت الغالبية العظمى هذا الخيار. وهذا أمر مثير للاهتمام في حد ذاته، لأنه يبرز استمرارية المحتوى العاطفي للهوية القبلية بين المبحوثين.

يبدو أن نتائج الدراسة الحالية مشابهة تماماً لنتائج الدراسة التى أجراها الفتحلي وبالمر عام 1973، والتى تضمنت أسئلة معينة حول القبيلة والقبلية، وبينت أن القبيلة لا تزال جزءًا من المجتمع الليبي. ولقد افترضت تلك الدراسة أن الذين امتنعوا عن الإجابة على السؤال المطروح يدعمون فرضية أن الأفراد لا يزالون يفضلون القبيلة والقبلية، وأن الخوف يمنعهم من التعبير عن ذلك، فاختاروا عدم الإجابة. وأظهرت الدراسة الحالية نتائج مماثلة، حيث أكد جميع المبحوثين تقريباً على الهوية القبلية، كما أن هناك أغلبية بسيطة منهم لم تكن مستعدة للتخلي عن تلك الهوية.

تبرز الدراسة الحالية أن القبيلة لا تزال مصدراً مهماً للهوية الشخصية في المجتمع الليبي. فالغالبية العظمى من المبحوثين في هذه الدراسة لم يكونوا راغبين في التغيير من قبائلهم الحالية إلى قبائل أخرى. مع ذلك، فإن أقلية كبيرة كانت مستعدة للتخلي عن الهوية القبلية بالكامل. وبينت التحليلات الإحصائية وجود اختلافات بسيطة بين المبحوثين في توجهاتهم تجاه القبيلة وفقاً لمتغيرات الخلفية، مثل الاختلافات المتعلقة بالنوع الاجتماعي، والاختلافات بين المبحوثين الحضر وبين الريفيين. بالإضافة إلى ذلك، فإن أولئك الذين جاءوا من خلفيات ذات مستويات تعليمية أدنى، كانوا أقل تفضيلاً للهوية القبلية، وبالتالي يمكن اقتراح أنهم يعتبرون أن القبلية تمثل شبكة من الامتيازات والتفضيلات، ويبدو أنهم يتصورون أنهم لا يحصلون على أية منافع من القبيلة، بعكس أولئك الذين جاءوا من خلفيات تعليمية واجتماعية أعلى.

بصفة عامة، فإن النتائج تظهر أن المجتمع الليبي لا يزال مجتمعاً قبلياً. فالقبيلة هي إحدى أقوى التنظيمات الاجتماعية، ولا تزال تلعب دوراً اجتماعياً مهماً. قد تكون القبيلة وحدة سياسية غير منظورة، ولكنها برزت كأحد أهم مصادر الشرعية للنظام الثوري في ليبيا في السنوات القليلة الأخيرة.

في نفس الوقت، فإن النتائج معقدة ومتداخلة ومثيرة للاهتمام، فغالبية كبيرة من الطلاب كانت مرتبطة بقوة أو مرتبطة بالقبيلة، وتقريبا لم يكن هناك أحد

يرغب في تغيير قبيلته والانتماء لقبيلة أخرى. مع ذلك، فإن نصف الطلاب تقريباً كانوا مؤيدين للتخلي عن الهويات القبلية في المجتمع الليبي. ولقد برزت إحدى النتائج المثيرة للدهشة والاستغراب في الدراسة المسحية عندما تم النظر في العلاقة بين قوة الارتباط بالقبيلة وبين الاستعداد للتخلي عن الهوية القبلية، حيث إن هذه العلاقة كانت قوية، فقد رغب 72% من غير المرتبطين بقبيلتهم في التخلي عن الهوية القبلية مقارنة بنسبة 31% من الذين كانوا مرتبطين بقوة بقبيلتهم. والنتيجة غير المتوقعة والمثيرة للاهتمام والدهشة في هذا الإطار هي أن أقلية كبيرة نسبياً من المرتبطين بقوة بالنظام القبلي كانوا على استعداد للتخلي عن القبيلة كشكل من أشكال الهوية. وفي الواقع، فإن هذا الانشطار والازدواجية في المواقف مشابه للموقف المتذبذب والمزدوج الذي عبر عنه النظام الثوري عبر الوقت. ويبدو واضحاً أن هناك أقلية كبيرة من الطلاب تفضل عدم وجود نظام قبلي، ولكنها تتعايش معه طالما أنه موجود ومهم. ويتطابق هذا بصورة وثيقة مع موقف النظام الثوري، الذي كان في البداية مضاداً للقبيلة، ولكنه اضطر لقبول القبيلة في شكل من أشكال الشراكة التى حلت بصورة أو أخرى محل المجتمع المدني [44]. على الرغم من رفض النظام الثوري لأي دور سياسي رسمي للقبيلة.

يمكن اعتبار أن وجهات النظر التى عبر عنها الطلاب تنقسم إلى ثلاث مجموعات. الأولى يمثلها أولئك المرتبطين بقوة والمرتبطين بقبائلهم، والذين لا يرغبون في التخلي عن هويتهم القبلية. ويبدو من المحتمل أن لهم وجهة نظر غير ذرائعية وأخرى ذرائعية حول دور القبيلة. بالنسبة للذين يريدون التخلي عن الهويات القبلية وغير المرتبطين بقبائلهم، فإنهم يرفضون الأسس الذرائعية وغير الذرائعية معاً. أما أولئك الذين يرغبون في التخلي عن الهويات القبلية ولكنهم لا يزالون مرتبطين بالقبيلة، فمن المحتمل أنهم يحملون وجهة نظر ذرائعية تجاه القبيلة – أي أن للقبيلة دوراً وبالتالي فإنهم يظلون جزءًا منها. أما موقف النظام الثوري فكان يميل للانتقال بين الموقفين المتطرفين. ففي البداية، حاول النظام رفض القبائل، ولكن فيما بعد أكد على دورها غير الذرائعي بالمعنى الإيديولوجي. وفي نفس الوقت، قبل النظام الدور الذرائعي للقبيلة خارج المجال السياسي الرسمي. وفي السنوات القليلة الأخيرة، ذهب النظام الثوري أبعد من ذلك، وجعل القبيلة جزءًا من المشهد السياسي عن طريق خلق القيادة الشعبية الاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، شجع العقيد معمر القذافي جميع القبائل على تشكيل الروابط الشبابية القبلية، وبالتالي زيادة الولاءات القبلية.

من المهم التذكر في هذا الإطار، أن جميع المبحوثين كانوا أقرب، من المنظور الجيلي، إلى ليبيا الأجداد، والتي كانت جوهريا مجتمعا منظما على الأساس القبلي. وعلى الرغم من التغيرات الديمغرافية والتعليمية الضخمة منذ ذلك الوقت، فمن المؤكد أن التنشئة الأسرية استمرت في تعزيز الهويات القبلية بطرق تعكس الأصل المشترك ونظم القيم البدوية في نفس الوقت، حتى وإن لم تعد الغالبية العظمى من الليبيين، خاصة السكان الحضريين، تعيش تجربة ونمط الحياة البدوية. ويصبح من الضروري القيام بأبحاث نوعية إثنوغرافية مفصلة لاستكشاف الخاصية الدقيقة للهوية للقبلية ضمن السياق الاجتماعي الجديد. مع ذلك، فإنه سيكون من المثير للاهتمام والملفت للنظر لو أن شكلاً من أشكال الهوية، بتاريخه الطويل ودوره المركزي في النظام الاجتماعي، قد اختفى بالفعل خلال جيلين.

يدعم هذا التفسير العام مراجعتنا لسياسات النظام الثوري تجاه القبيلة والقبلية. من ناحية، فإن جهود النظام الثوري المبدئية لإلغاء القبلية من المجتمع حل محلها القبول بوجودها. من ناحية أخرى، فإن هناك جهوداً (وإلى وقت قريب) لحصر دور القبائل في المجال الاجتماعي.

الهوامش

1. Adam Kuper and Jessica Kuper (eds) , The Social Science Encyclopaedia,(London : Routledge and kegan Paul , 1985) , P.869 .
2. Julius Gould and William L.Kolb (eds) , A Dictionary of the Social Sciences , (Norwich : Fletcher , 1964) , P729.
3. Abd-al-Rahman Ibn Khaldun , The Muqaddimah : An Introduction to History , translated by Franz Rosenthal , (London : Routledge and kegan Paul, 1987), P.xi.
4. Nidal Al-Hawamdeh , Political Development in Jordan from 1988 until the Present , (Temple University , PhD thesis , 1994), P.238 .
5. Najwa Adar , "The Concept of Tribe in Rural Yemen", in Saad Eddin Ibrahim and Nicholas S.Hopkins (eds) , Arab Society :Social Science Perspectives, (Cairo : The American University Press , 1985) , P.280.
6. Julius Gould and William L.Kolb (eds) ; op.cit., PP. 729-730.
7. Halim Barakat , The Arab World : Society , Culture , and State , (California : University of California Press , 1993), P.48.
8. Abd-al Rahman Ibn khaldun , op.cit., P.91.
9. Halim Barakat, op.cit., P.48.
10. Fuad I.khouri; Al-Dihniya al-Arabiya : al-Unf Saiyd al-Ahkam [The Arab Mind : Violence is Master of Judgements] , (London : Dar al-Saqi, 1993), P.119 .
11. Halim Barakat , op.cit., P.48 .
12. Ibid., PP.50-52.
13. Ibid., P.54.
14. Ibid., PP.54-57.
15. Ibid., PP.52-53.
16. Najwa Adar , op.cit., P. 279.
17. Ibid., P.283.
18. Halim Barakat , op.cit., P.64.
19. Ibid., P.65.
20. Ibid., PP.65-69.
21. Ibid., P.66.
22. Ibid., PP.67-68.
23. Ibid., P.68.
24. Muhamad Muhsin Al-Zaahiri , Al-Daur al-Siyasi lil-Qabila fi al-Yaman : 1962-1990 [The Political Role of the Tribe in Yemen : 1962-1990] , (Al-Qahira : Maktabat Madbuuli , 1996) , PP. 70-71.
25. It can be said that , the political role of the tribe became a visible phenomenon within Libyan society , when the regime encourage the tribe to play such role especially after the rising of the Islamists in Libya as a security mean against them and within what so called the social security.
26. Philip khoury and Joseph kostiner , "Introduction : Tribes and the Complexities of State Formation in the Middle East" , in Philip khoury and Joseph kostiner (eds), State Formation in the Middle East, (London : I.B.Tauris , 1990), P.16 .
27. Salaheddin Hasan Sury, " The Political Development of Libya 1952-1969 : Transformation of Leadership" in Gunter Barthel and Lothar Rathmann (eds) , Libya- History , Experiences and Perspectives of a Revolution, (Berlin : Akademie – Verlag, 1980), P.105.

28. During the beginning of 1990s , tribes in Libya became responsible about what so called al-Amn al-Ijtima'iy [Social security] as a controlling security tool against the Islamists in Libya who became a visible phenomenon .
29. Mohamed A.El-kawas , Qaddafi : His Ideology in Theory and Practice, (Vermont : Amana Books , 1986), P.32.
30. Muammar Al-Qadhafi , The Green Book , vol.1, (Tripoli : Global Centre for Study and Research on the Green Book , 1979), P.15 .
31. Omar I.El-Fathaly and Monte Palmer, Political Development and Social Change in Libya , (Lexington , MA: Lexington Books, 1980),P.57.
32. Mohamed Z.El-Mogherbi , "Tribalism , Religion and the Challenge of Political Participation : The Case of Libya" , Paper presented at Democratic Challenge in the Arab World , Cairo 24-27 September, 1992,P.15.
33. Omar I.Fathaly and Monte Palmer , Political Development and Social Change in Libya ,(Lexington , MA : Lexington Books. 1980) , P.58.
34. Omar I. El-Fathaly et al , Political Development and Bureaucracy in Libya , (Lexington , MA : Lexington Books, 1977), P.92.
35. Amant al-Wahda has been abolished and a new Secretariat was established which is Amanat al-Wahad al-Afriqiyya [Secretariat for African Unity] after the regime re-directed its policies towards Africa instead of the Arab states .
36. Al-Hayat newspaper , 28.9.1995 , P.1.
37. Mohamed Z. El-Mogherbi, op.cit., P.15 .
38. Mansour O.El-kikhia , Libya's Qaddafi : The Politics of Contradiction , (Gainesville : University Press of Florida , 1997), P.103.
39. Amal S.M. Obeidi , " Libya Pariahood and Domestic Political Agenda" Unpublished Paper , Presented at BRISMES Conference , Religion and Pluralism Birmingham , 5-8 July , 1998.
40. Subhi Ganwus et al , Libya al-Thawra fi Thalathwon "Amman " al-Tahwulat al-Siyasiyya wa al-Iqtisadiya wa al-Ijtima'iya 1969-1999 , [Revolutionary Libya in Thirty years : Political-Economic – Social – Transformational 1969-1999] , (Misrata : Al-Dar al-Jamahiriyya lil-Nashir wa al-Tawuzi" wa al-Ilan , 1999) , P.150.
41. Subhi Ganwus et al , Libya al-Thawra fi Thalathwon Amman : al-Tahwulat al-Siyasiyya wa al-Iqtisadiya wa al-Ijtima'iya 1969-1999, [Revolutionary Libya in Thirty Years: Political-Economic –Social Transformational 1969-1999] , (Misrata : Al-Dar al-Jamahiriyya lil-Nashir wa al-Tawuz wa al-I'lan, 1999), P.150 .
42. Omar I.El-Fathaly and Monte Palmer, op.cit., P.33.
43. Ibid., P.35.
44. According to Saad Eddin Ibrahim , most ways of defining civil society all revolve around maximizing volitional organized collective participation in the public space between individuals and the state . In its institutional form , civil society is composed of non-state actors or non-governmental organizations (NGOs) –e.g., political parties , trade unions , professional associations, community development associations , and other interest groups. For more details , see Saad Eddin Ibrahim , "Civil Society and Prospects of Democratization in the Arab World", in Augustus Richard Norton (ed), v.1, Civil Society in The Middle East , (Leiden : E.J. Brill, 1995) ,PP.27-54.



جذور الدولة الوطنية في ليبيا

إمارة على الرمال و جمهورية على صهوات الخيل؟

(1916 - 1922)

د. محمد محمد المفتي

أبسط تعريف للدولة، أنها نظام إدارى ومالى يمارس من خلاله السلطة (التوجيه، العقاب..) من يمتلك القوة المسلحة. السلطة والدولة إذن مرتبطة بوجود قوة / جيش / شرطة / قضاء، يوالى الحاكم ويأتمر بأمره ومنه يستمد معاشه. وبالطبع تطور مفهوم وآليات الدولة عبر العصور، بفصل السلطات وخاصة إقرار مبدأ حصانة القضاء والتى تجعل جميع أفراد الشعب (حكاماً ومحكومينٍ) سواسية أمام القانون، وتأكيد الرقابة على الحاكم وتبنى نظام تداول السلطة سلمياً، وإقرار مبادئ الحرية الشخصية وحرية التعبير والاعتقاد..إلخ.

لكن الدولة بهذا المعنى تخلق بدورها جملة من الظروف، كما تستفيد منها. فالدولة تحقق الأمن وتمنع الاعتداء وبالتالى تعزز الاستقرار والرخاء. ومن خلال تحقيق الأمن والعدل والازدهار، يزداد ريع الحاكم ويتسع جيشه وتزداد قوته. لكن اجراءات السيادة من اصدار النقد، وخضوع الناس داخل إقليمها لنفس القوانين ونفس الجيش والقضاة والضرائب ... وربما لنفس النظام التعليمى، كل ذلك من شأنه أن يعزز مظاهر التجانس والترابط (الهوية المشتركة) بين 'شعب' تلك الدولة.

متى تتكون الدولة إذن؟

أى متى ينشأ الإحساس بالانتماء المشترك، وضرورة تأسيس نظام إدارى دفاعى مشترك؟ هناك عدة مداخل، فقد تأسست فى العالم القديم دول من عدة شعوب، قاسمها المشترك هو الحاكم أو السلطان أو الإمبراطور وقواته المسلحة بالسيوف والسهام. بينما كان التجانس أحيانا وليد الأرض المشتركة خاصة إذا كانت جزيرة معزولة، أو مصدر حياة واحد كالنيل، أو ديناً كما حققه الإسلام أو المسيحية.

وفى العصر الحديث انضافت الى العناصر المساعدة على التجانس أساليب الاتصال (ظهور الطباعة والصحف، ثم التلغراف والتلفون..الخ) وتطور المواصلات (لنقل المواد الخام أو اليد العاملة أو السلع المصنعة أو الجند وعتادهم).

أين ومتى كانت بدايات الدولة الليبية الحديثة، هو محور هذه الدراسة؟

وكيف خرجت الدولة الحديثة، ومفهوم ليبيا كوطن، من جوف العلاقات القبلية القديمة؟ وماذا كان وقع الاحتلال على عملية التحول من جهة / قبيلة إلى دولة / وطن؟

لا شك أن المدن الليبية كانت قد قطعت شوطاً نحو انصهارها الثقافى والاجتماعى، قبل بداية القرن العشرين. لكن دواخل ليبيا ظلت إلى حد كبير، مجتمعاً قبلياً بحكم شحّة الموارد وموسميتها، وهو ما فرض أنماطاً ضيقة للعيش كالرعى والزراعة الموسمية وبعض التجارة. ولا شك أن انتشار الزوايا السنوسية قد ساهم بشكل كبير فى ترويض النظام القبلى فى بادية برقة، بحيث كونت تلك الزوايا معاً بناءً ' فوق- قبلى ' يتجاوز الولاءات القبلية، محايداً تنصاع لأحكامه كل القبائل.

وقد تسبب وصول الإيطاليين إلى ليبيا، فى خلق شروط خرقت الحواجز القبلية وأدت إلى تشظيها. وكانت البداية مع صدمة الغزو الأولى، حين وحد الهجومُ العسكرى الليبيين فى معسكرات مقاومة أذهلت كل من عاصرها. وفيما بعد قادت العمليات العسكرية والاستيطان الإيطالى إلى اقتِلاع الناس من أراضيهم وبالتالى من 'مواطنهم القبلية'، ودفعهم الى هجرات داخلية وخارجية. وفى برقة نفذ غراسيانى برنامج تهجير قبائل الجبل الأخضر لمحاصرة آخر مفارز المقاومة تحت قيادة "عمر المختار"، وتحول بدو الجبل الى لاجئين فى معسكرات الإبادة. وبالمقابل جند الطليان(!) الشباب الليبى، ودفع ببعضهم الى حرب الحبشة. وترتب

على التجنيد والتوظيف انتقال أفراد وأسر وإعادة استقرارها في أجزاء أخرى من البلاد.

كل تلك التطورات، وأخرى غيرها ولدت علاقات جديدة اخترقت الحواجز القديمة، سواء بالإنتماء الوظيفى المشترك، أو بالمصاهرة أو بالتجاور فى ظروف المعاناة.. الخ. وساهمت تلك العلاقات الجديدة فى إذابة وتجاوز الحواجز القبيلة من عزلة، وتعصب، وشكوك وربما ثارات قديمة.. ونمت بالمقابل أواصر الترابط والإحساس بالهوية المشتركة بين أبناء الوطن.

لكن الأمر لم يكن تطوراً فى اتجاه واحد، ذلك أن القبيلة بقيت وحدة دفاعية، متنقلة أحيانا فالمجاهدين كانوا عادة يحاربون مع أبناء قبيلتهم، وكثيراً ما كانوا ينقلون أسرهم وحيواناتهم الى ميدان المعركة أو الى المناطق التى ينسحبون اليها. وأحيانا كانت القبيلة كوحدة شبه عسكرية، تتخذ موقفا جماعيا، كأن تقاتل أو ترفض، أو تنحاز الى هذا الجانب أو ذاك، أو تستسلم معاً. ومن جهة أخرى كانت مواقف المشايخ تنسحب على أبناء قبيلتهم، مما فتح الباب لتحول نزاعات الرؤساء الى مواجهات أو حتى حروب قبلية.

لكننا هنا سوف نركز على مرحلة كانت حبلى بالآمال، بقدر ما ازدحمت بالصراعات الدموية. ففى الفترة ما بين 1916 و 1922، تراجع الاحتلال الإيطالى الى مدن السواحل، وبالتالى حققت دواخل ليبيا قدرًا من 'الاستقلال'. حدث ذلك فى طرابلس إثر انكسار الجيش الإيطالى فى معركة القرضابية[2] سنة 1915، كما حدث فى برقة بعد فشل هجمات المجاهدين بقيادة السيد أحمد الشريف على الحدود المصرية لمشاغلة القوات الإنجليزية. وكانت تلك المناوشات جزءًا من مخطط تركى غير ناضج، وبالتالى سيتحدد مصيره بفعل مواقف دولية. وبالفعل ضغطت بريطانيا فى اتجاه معادلة تحفظ السلام على الحدود.

لقد كانت تلك السنوات الست، فترة هدنة نسبية بين الليبيين والطليان. وسواء فى برقة أو طرابلس، فقد كان توقف المجابهة عائداً إلى رغبة إيطاليا التى كانت منشغلة فى الحرب العالمية الأولى. وهكذا وافقت إيطاليا على اعتراف بسيادة السنوسية على دواخل برقة، وتركت دواخل طرابلس فى أيدى الزعامات القبلية أو الجهوية المحلية، وسمحت فى 1919 بتأسيس حكم وطنى شكلى الى حد كبير كما سنرى.

إمارة اجدابيا:

عاد السيد إدريس من الحج سنة 1915، بعد رحلة دامت حوالى عاماً. ورغم قصر المدة (خاصة إذا حسبنا الوقت الضائع فى الترحال بالقوافل)، إلا أنه عـاد بوجهة نظر أكثر وضوحاً وصراحة. وعلى أية حال فقد اطلـع علـى تطـور الأمور فى الحجاز وبدايات تمرد الشريف حسين هناك ضد الأتراك. كما استقبل فى مصر من قبل الخديو واجتمع بموظفين فى مكتب المندوب السامى البريطانى الذين أبدوا استعدادهم لدعمه إذا ما نجح فى ايقاف الهجمات السنوسية على حدود مصر الغربية. وكان لإدريس أيضاً علاقة وثيقة بأدارسة الأقصر بمصر.

رجع إدريس، وأظهر صراحة معارضته للهجوم على القوات الإنجليزيـة-المصرية فى السلوم، وهو الهجوم الذى دبره الضباط العثمانيون بـوحى مـن المخابرات الألمانية، وتورط فيه السيد أحمد الشريف مدفوعا بعواطفه النضالية ضد الكفار وولائه للخلافة العثمانية[3].

ولعل كل العناصر التى سبق ذكرها هى التى كيّفت موقف إدريس الذى لم يكن قد تجاوز الخمس وعشرين سنة. ولكن الباحثين قد بالغوا، فى اعتقادى، فى تصوير حجم كل هذه المؤثرات، خاصة علاقته بالإنجليز. ومازالت تلك المرحلة على أية حال تفتقر للأدلة الموثقة. وفى الواقع ثمة سبب مباشر يفسـر سـعى إدريس الى إيقاف القتال، نجد صداه واضحاً فى ما تبقى من مراسـلات السـيد إدريس آنذاك، ألا وهو الضائقة التى كانت تعانيها بادية برقة آنذاك من مجاعـة وأوبئة ووفيات، جزئياً بسبب توقف حركة التجارة مع المدن السـاحلية، ومـع الغرب بسبب اعتراض مصراته ومع مصر شرقا. لقد كان ارتباط السيد إدريس الفعلى والنفسى، ببادية برقة حيث ترسخت الحركة السنوسية. ولذلك كان يقـيم الأحداث من تلك الزاوية. هذا فضلاً عن حرصه على الطريقة السنوسـية مـن جهة، وطموحه الشخصى من جهة أخرى.

إثر عودة إدريس، قام السيد أحمد الشـريف[4]، بتكليفـه بمنطقـة ‘ برقـة’ التاريخية ومركزها اجدابيا (من امساعد الى سرت، باستثناء الجبـل الأخضـر ومدن الساحل). وزاد وقع المجاعة على إدريس إبان رحلته عبـر برقـة الـى اجدابيا، فشاهد الأوبئة والموت الجماعى وصادف الفوضى وعصـابات السـلب والنهب وأمر بشنق بعضهم. ولعلنا نستطيع أن نتخيل قسوة الظروف من صورة بسيطة عابرة: فها هو إدريس، الأمير العائد من الحج، لا يجد ما يعطى لمستقبليه

سوى توزيع بعض الأرز على الناس فى اجدابيا: ''.. ست طاسات أرز غير مليانة للنفر..''!

المفاوضات:

فى اجدابيا وضع السيد إدريس أسس نظام إدارى ونواة لجيش نظامى، وتخلص من النفوذ التركى. كما يبدو أنه قدمت له أو هو طلب 'مضبطة' من أعيان القبائل تطالب بحل سلمى. وقام أدارسة الأقصر بدور الوسطاء بين السيد إدريس والإنجليز والطليان. ويذكر الدكتور ورجل المخابرات الإيطالى إنريكو انسا بتو[5] (1878 - 1963) المقيم فى مصر، أنه أجرى اتصالات تمهيدية متعددة مع القادة السنوسيين عبر عدد من الوسطاء، ومنهم يونس العابدية (شقيق على باشا). كما قامت السلطات الإيطالية فى بنغازى بتبادل عدد من المراسلات مع السيد إدريس وخاصة عن طريق منصور باشا الكيخيا وابنه عمر.

وبالفعل وصلت الوفود الى الزويتينة فى أغسطس 1916. وكان الوفد الإنجليزى (برئاسة الكولونيل تالبوت)، ومعهم الشيخ محمد الشريف الإدريسى وابنه المرغنى، قد جاءوا الى بنغازى ومنها بالباخرة يصطحبهم وفد إيطالى برئاسة الكولونيل بيلا. وفى الزويتينة التقاهم إدريس وأعوانه.

كان السيد إدريس يتطلع لحل مع الدولتين، وكلاهما كان أيضاً بحاجة الى هدنة. وفى صيف 1916، تم الوصول الى اتفاق الزويتينة، الذى حمله الوفد الإيطالى الى حكومته، ثم وُقع عند بئرعكرمة قرب طبرق (14 أبريل 1917)، وهو عبارة عن '' شروط تمهيدية لراحة خواطر أهل الوطن'' شملت:

- الكف عن المحاربة / السماح بالتجارة الداخلية مع نقاط بنغازى ودرنة وطبرق/
- تعهد ايطاليا بإبقاء المحاكم الشرعية /
- نزع السلاح من الناس مستقبلاً /
- إبعاد كل ساع الى الفتن (= أحمد الشريف والأتراك) بيننا وبين الحكومة الايطالية وغيرها من أصدقائنا وأصدقائها... وتم رفع الاتفاقيات الى مستوى هدنة بعقد اتفاقية الرجمة التى اعترفت فيها إيطاليا بإمارة سنوسية فى منطقة الدواخل[6].

كانت بيد السيد إدريس عدة أوراق رابحة فى تلك المفاوضات، يبدو أنه استغلها بمهارة. كان هناك الوعد بتخليص بريطانيا من صداع المناوشات على

حدود مصر الغربية. وكان لدى السنوسيين عدد من الأسرى الطليان وعد بإطلاق سراحهم. كما استغل ادريس الشكوك المتبادلة بين إيطاليا وبريطانيا. وهكذا أدار مفاوضاته بدهاء جذب انتباه من كان قريباً من تلك الاتصالات، واتبع تكتيك المماطلة (مثلاً بادعاء التعب والمرض)، و الإصرار على الحصول على تنازلات قابل الاستجابة لأى طلب. ولعل تماديه فى المراوغة هو الذى أفقد الطليان صبرهم، حتى أمر والى برقة، جيوفانى إميليو، بقطع مفاوضات الزويتينة.

لكن إدريس كان حريصًا على الإيفاء بوعوده مما خلق جواً من الثقة بينه وبين الطليان، وعزز أملهم فى الوصول الى اتفاق، وأن إدريس هو الرجل القادر على تنفيذ أى اتفاق. واستطاع، مبكراً، أن يحصل من الطليان على المال والسلاح والعتاد والسيارات، بحجة ضرورتها لتنفيذ وعوده وبسط سلطانه. ولا بد من الإشارة إلى أن ما وصلنا عن تلك المفاوضات، جاء عن طريق الأطراف الإيطالية بالدرجة الأولى. ونحن نعلم أن السيد إدريس قد استند الى مشورة بعض الرجال ذوى الخبرة. ولا تزال معرفتنا من تلك المصادر محدودة جداً، ولم يتوجه إليها البحث بعد، رغم أن معظمها قد دفن مع أصحابها. كما ان تقاريرالوفد البريطانى لم تنبش بعد!

ولم تكن المهادنة مطلباً يسعى اليه السيد إدريس وحده، وإنما كانت هدفاً سعى إليه الإيطاليون منذ أن تولى جاسبرى كولوسّيمو وزارة المستعمرات الإيطالية فى منتصف 1915. فقد أدرك الطليان ان: "إدريس كان يحاول الحصول على التأييد الإنجليزى وراضياً عن التسامح مع الإيطاليين، من أجل التخلص من الحصار ولاسترجاع كرامة الطريقة السنوسية. وقد أدركنا من جهتنا ان القضية لا يمكن أن تحل بقوة السلاح"(7).

صورة الإمارة:

قبل سنين، وحين كانت هذه الدراسات لا تزال مدونات أولية، اطلعت على مذكرة لضابطين بريطانيين زارا شرق ليبيا في صيف سنة 1918، في بعثة لتقييم اتفاقية السلام بين السيد إدريس والإيطاليين التي تم التوصل اليها سنة 1916 بوساطة إنجليزية، وبحضور الضابط البريطاني تالبوت. وطيلة السنين التالية كنت أتوقع من يترجم تلك المذكرة أو حتى يشير إليها في دراسة، خاصة وأنها متاحة للباحثين طيلة نصف القرن الماضى(8).

المذكرة عبارة عن تقرير سري يقدم معلومات لأصحاب القرار في الحكومة البريطانية والأهم أنها شيقة ... ترسم صورة مركبة للحياة والعلاقات، وتمنحنا إطلالة فريدة،، على إمارة اجدابيا، أشبه بالتحقيق الصحفي.. ظروفها، تنظيمها البدائي شبه عسكري بين كثبان الرمال.

تتناول المذكرة بشيء من الإسهاب تفاصيل ذلك الزمن فى برقة، بما في ذلك تاريخ الحركة السنوسية وخلاف إدريس وأحمد الشريف والمواجهة مع الطليان. ويؤكد الكاتبان على الشكوك التى تسم علاقات إدريس والإيطاليين. لكنهما يقرّان بأن معطيات الواقع هى التى جعلت " إيطاليا تتعهد بأن تمول وتجهز وتطعم وتدفع رواتب قوة من 2000 جندي، تحت إمرة السيد إدريس مقابل تعهده بحفظ الأمن والاستقرار فى دواخل البلاد". ويفصل أحد الملاحق قائمة الأسلحة والتجهيزات التى قدمتها إيطاليا وهى: 997 بندقية نمساوية، أربعة مدافع جبلية، أربعة رشاشات متراليوز، 997 بطانية، ألف بدلة كاكيٍ و 999 بدلة قطنية.

وفي يوم 1 / 8 / 1918، شهد الضابطان عرضاً لقوات الإمارة، وكانت بقيادة الشارف الغرياني، ‘‘ من 450 رجلاً، بحوزتهم ثلاثة مدافع وثلاثة رشاشات محمولة على جمال..’’.

ونلمس جوانب أخرى لإمارة اجدابيا.. وبوجه خاص بساطة احتياجاتها وتطلعاتها، حين نقرأ قائمة المطالب التي قدمها السيد إدريس لزائريه الإنجليز، ومن بينها:

- فتح الطريق بين سيوة والجغبوب، والسماح لتجار الجغبوب بشراء تمر.
- تعيين ضابط بريطاني مقيم في اجدابيا للمشورة ومراقبة تقدم الأمور والعلاقات مع الطليان.
- إرسال 50 طفلاً من أبناء شهداء المجاهدين، الى مصر لتعلم الحرف التقنية.
- السماح بشراء أدوية من مصر.
- ترتيب وصول رزمة صحيفتى المقطم واللطائف، كل أسبوع.

لكن المذكرة تحوي أيضاً تحليلات بعيدة النظر: ‘‘ فالإيطاليون يرون أنفسهم على أنهم أصحاب السيادة واليد العليا هنا، ويعتبرون وجود السيد إدريس مجرد مسألة تعايش مؤقت.. ويرون في اتصالات بريطانيا أو أى حكومة أخرى به، إهانة لسيادتهم.. بالمقابل فإن السيد إدريس شخصياً يكره الإيطاليين، ويحتقر قدراتهم العسكرية، ويشك في نواياهم.. كما أنه يشعر، كزعيم مسلم، أنه يلعب

دوراً صعباً وغير مقبول.. لأنه يحتل موقعاً قيادياً بمساعدة الطليان.. فهو يحتفظ بولاء أتباعه، إضافة الى مكانته الدينية، بفضل ارتباطه بحليف مسيحى غير محبوب.. وعليه فإن التوجس موجود على الجانبين.. مما يجعل أى ترتيبات محفوفة بالصعاب.. والزمن وحده سيكشف ما إذا كان الإيطاليون قد وضعوا أسس سياسة فعالة ومستقرة للمستقبل..''.

ختامها عاصفة:

فى تقرير للوزير كولوسيمو عن سياسته الجديدة، نجد توظيفاً طريفاً لمفردات لغته الليبرالية المستنيرة لتبرير استعمار استيطانى عنصرى، حين يقول:'' لقد اقتنعنا بتحمل مجاورة السنوسية المنظمة فى شكل حكومة، كأمر واقع. ولكننا كنا مصممين على حرمانها تدريجيا من جميع سلطاتها الزمنية بالوسائل السلمية وعن طريق المشاريع المدنية ... إن المواطنين سيدركون ان وكيلاً ايطالياً هو أحسن.. من شيخ زاوية نهم فى جمع الأعشار... نحن نخلق الثراء ولا نمنعه عن السكان المستسلمين، وإننا باختصار نحمل معنا حضارة وخيراً، ولكن الإقطاع الهمجى للطريقة (السنوسية) لا يقدم سوى الكلمات المعسولة والفقر المتزايد ... سيكون للاتفاق فوائد ... لقد فقدت السنوسية باتصالها بنا، إكليل البطولة ... وكسبنا نحن حق الدخول فى علاقات مع السكان ببث الوكلاء التجاريين والضباط الصحيين، ومن ثم اكتساب ثقتهم واحترامهم''(9).

وهكذا لا يجب تبسيط تعقيدات الظروف التى فرضت حلاً سلمياً فى سنة 1916. فقد كانت هناك المجاعة والأوبئة، نتيجة توقف التجارة، بين بادية برقة والمدن نتيجة الحصار الايطالى، ومع مصر نتيجة التوجس الإنجليزى، ومع طرابلس بسبب الجفوة مع السويحلى فى مصراتة. وقد أدرك السيد إدريس بحسّه البراغماتى العملى، أنه لا مناص من التفاوض كمخرج للأزمة. ثم ان محاولة الأتراك توريط المجاهدين فى معركة تقليدية، ضد الانجليزعند حدود مصر، قادت الى تحالف الطليان مع بريطانيا ضد أحمد الشريف. لقد كانت معركة خاسرة سلفاً، فضلاً عن عدم جدية الأتراك فى فتح جبهة فعالة. لكن النزوع الى المهادنة كان شديداً أيضاً لدى العدو الإيطالى آنذاك، وهو ما سيقودهم كذلك الى صلح بنيادم فى طرابلس.

وبعد سنوات سيؤدى صعود الفاشست الى السلطة فى إيطاليا (أكتوبر 1922) الى فك لجام التعقل، ولن يرضى الطليان بعد ذلك بأى تفاوض مع الليبيين، فيشنون حرب الاستعادة فى طرابلس، وتنهار حكومة / إمارة اجدابيا بهرب

الأمير إدريس. وإذ نجح الطليان فى إخضاع معظم التراب الليبى، ستتجدد المقاومة فى الجبل الأخضر، ولن يجد الطليان حلاً سوى المعتقلات الجماعية لمحاصرة المجاهدين. وباعتقال الشيخ عمر المختار وإعدامه سنة 1931، تكون نهاية المقاومة المسلحة.

حكومة مصراته:

يختار الشيخ الزاوى، يوم 5 أغسطس 1916، تاريخاً لقيام 'حكومة مصراته' برئاسة رمضان السويحلى، الذى يصفه بصدق العزيمة وعلو الهمة، والذى يجب أن نضيف، أنه لم يكن قد تجاوز 36 عاماً من العمر، كما كان الرجل الوحيد الذى امتلك قوة منظمة مسلحة. ذلك أن 'تأسيس' حكومة مصراته جاء بعد إجلاء السويحلى للحامية الإيطالية، فى أعقاب معركة القرضابية. و''دان له أهلها بالطاعة عن طيب نفس من الكثيرين، وعلى مضض من البعض..'' (10).

ويردف المؤرخ أن '' أول ما بدأ به جمع الغنائم وحصرها فى دفاتر، ووضعها فى مخازن فى ضمان جماعة من أغنياء مصراته.. على ألا يتصرفوا فى شيء منها إلا بإرادته.. ثم أخذ فى اختيار من يرى فيهم الكفاءة لمعاونته.. وأخذ الأمور بما تستحق من الحزم فاستقامت له.. ''(11) وامتدت حدود مصراته، أو على الأصح 'نفوذ' رمضان السويحلى ليشمل زليطن، وريف الخمس (باستثناء المدينة) ومسلاته، وسيبقى الوضع كذلك الى أن يعيد الطليان احتلالها سنة 1922.

صدام السويحلى بالسنوسية:

وبُعيد استقرار السويحلى فى مصراته، زارها صفى الدين السنوسى، الذى استقبل فى البداية بالترحاب، لكن العلاقة بين الرجلين سرعان ما توترت، بسبب طلب صفى الدين تسليم الغنائم والأرجح أنه حاول وضع السويحلى فى مقام التابع للهيمنة السنوسية. وقام أحد أعوان صفى الدين، وهو الشيخ أحمد التواتى، بدعوة أعيان طرابلس الى مسلاته بحجة لقاء السيد صفى الدين والسلام عليه، وهناك قام التواتى بالدعوة الى محاربة السويحلى، وحاول من الحاضرين، الشيخ سوف المحمودى وسلطان بن شعبان المصالحة بين الأطراف، ولكنهم فشلوا. وقام

السويحلى بمطاردة صفى الدين الذى وجد طريقه الى اجدابيا، وظفر بالتواتى فى ورفله وأعدمه[12].

البـارونـى:

وفى أبريل 1916، وصل مصراته سليمان البارونى، قادماً فى غواصة من الأستانة يحمل فرماناً بتعيينه والياً على طرابلس وقومنداناً عاماً. وسرعان ما بعث برسالة إلى الأعيان يبلغهم قرارالسلطان محمد رشاد، بإعادة ضم ليبيا الى الخلافة[13]. والقرار شكلى وغير فعال، مهما كانت عواطف الذين أصدروه، ولا يزيد إبهاراً عن الصور الأدبية فى رسالة البارونى، كقوله:'' عدنا ولله الحمد.. الى وطننا العزيز من دار الخلافة العظمى، تحمْلنا عفاريت البحر السابحة فوق جبال الأمواج تارة، وتحت عمق خمسين ذراعاً فى لجج اليَمّ أحيانا ''.

ومر البارونى بمسلاته وحاول التوسط فى الحرب المشتعلة بين مصراته وترهونة. ومن هناك انتقل الى العزيزية حيث الشيخ سوف وزملاؤه، ليستقر أخيراً فى الزاوية.

مدرسة نـورى:

جاء الى مصراته أيضاً (سبتمبر 1916)، الضابط التركى نورى بك[14] وعبد الرحمن عزام. فبتولى السيد ادريس زمام الأمور فى برقة، واستبعاد السيد أحمد الشريف وفقاً للاتفاقيات مع الإنجليز والطليان، لم يعد وجود الضباط والموفدين العثمانيين مرغوباً فيه هناك، وبادر عزام فى استكمال ما بدأه البارونى فى إخماد الفتنة بين مصراته وترهونة. وصاحَبَ هذه التطورات وصول إمدادات تركية، إحداها وصلت على مركب ''.. محملة بالسلاح والأدوية.. و(أكثر من) ثلاثين دراجة. وفيها اثنا عشر صندوقا مملوءاً بالمجيدى (عملة فضية عثمانية)''[15].

وقد أضفى وجود هؤلاء الشباب ذوى النزعة العصرية، أضفى على تجربة حكم رمضان السويحلى فى مصراته، طابعاً متميزاً ومثيراً. من ذلك توجهها الى انشاء مدرسة عسكرية ومصنع لحدادة الأسلحة وإصلاحها، وملء الخرطوش وصناعة الأحزمة الجلدية. لكن هذا المنحى العملى وبعد النظر، الذى استثمره المعجبون بالسويحلى، لم يغير شيئاً من حقيقة سياساته التى اتسمت بغياب

المرونة والحدة والعنف والتسلط، ومن ثم بقصر النظر، رغم وطنيته وشجاعته وعفته.

قيادة الشيخ سوف:

كانت أهم نتائج معركة القرضابية (سنة 1915)هو انسحاب الطليان، من دواخل طرابلس التى حققت عمليا استقلالها.

تبرز على الساحة فى هذه الفترة شخصية وطنية، ربما لم تنل حقها حتى الآن من الاهتمام. إنه الشيخ محمد سوف المحمودى[16] حفيد البطل الشهير غومة. شارك فى مقاومة الطليان الأولى، ثم هاجر الى الشام حيث استقر فى حلب. وإثر اندلاع الحرب العالمية الأولى (أغسطس 1914) رتبت الحكومة التركية عودته الى طرابلس للتحريض على مقاومة الوجود الإيطالى. وبالفعل دخل ليبيا عبر الحدود المصرية (مارس 1915) والتقى بالسيد أحمد الشريف ('نائب السلطان') الذى أسبغ عليه رتبة 'وكيل والى'. وفى طريقه الى الغرب شارك "سوف" فى حصار الحاميات الإيطالية فى ورفلة وغريان، وخاض العديد من المعارك الأخرى.

واستقر الشيخ سوف فى العزيزية، بصفته الجديدة كوكيل للسيد أحمد الشريف نائب السلطان. وهناك عين سوف هيئة ادارية وقادة للمجاهدين ومتصرفين للمناطق[17].

وفى أثناء الأزمة بين رمضان السويحلى والسيد صفى الدين السنوسى، يتدخل الشيخ سوف ليس فقط بروح العقل والحكمة، بل يتصرف كحكومة وطنية فعلية. فبعد فشله فى التوسط بين السويحلى وصفى الدين، نراه يتحرك ببعد نظر وبسرعة لتطويق بعض آثار الأزمة. ذلك أن سلطان بن شعبان، زعيم زواره تذرع بالإنقسامات المستجدة ليبرر اتصاله بالإيطاليين. وسافر الشيخ سوف إلى زواره، وحاول إثناء بن شعبان عن موقفه وفشل، وكان أن دخل الطليان زواره بالإتفاق مع بن شعبان. كما انفصل ساسى خزام، من أعيان بربر الجبل، عن المجاهدين وانضم الى ابن شعبان. "فجهز الشيخ سوف جيشاً من العزيزية، وجهز خليفة بن عسكر جيشاً من نالوت، وجاء جماعة من أولاد بوسيف من الجنوب.. وأطبقوا علي ساسى ومن معه فى يفرن.. (وانتصروا عليهم).. وأخذ ساسى حياً ثم قتل رمياً بالرصاص.." [18].

وهكذا تصرف الشيخ سوف وأعوانه كحكومة وطنية، فوق الصراعات والمصالح القبلية أو الجهوية أو الخاصة. فهو هنا يتحرك لإخماد حركة

ارتدادية، لا فى موطنه سهل الجفارة، وإنما فى الجبل الغربى، وينجز قراره الوطنى بتجميع ودعم قيادات مترامية! وستتكرر هذه المواقف من الشيخ سوف، فقد كان المجاهد الجوال، الذى كان مستعداً للموت فى سبيل أية بقعة من التراب الليبى.

الجمهورية:

فى أكتوبر 1918 وقعت تركيا معاهدة الصلح وبالتالى أقرت بهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. وفى 16 نوفمبر 1918، عقد قادة الجهاد فى طرابلس مؤتمراً بمسجد المجابرة فى مسلاته، وأعلنوا تأسيس الجمهورية الطرابلسية.

وجاءت فكرة تأسيس الجمهورية كرد فعل منطقى لهزيمة تركيا، والتى كان يمثلها آنذاك الأمير عثمان المقيم فى مصراته. ويقول الشيخ الطاهر الزاوى أن الفكرة تكونت أثناء نقاش ضم رمضان والبارونى والأمير وعزام، ومختار كعبار الذى كان فى زيارة لمصراته[19].

وتم اختيار 'أعضاء الجمهورية' (= مجلس الرئاسة) من رمضان السويحلى وسليمان البارونى وأحمد المريض وعبد النبى بلخير. كما تم اختيار 'مجلس شورى الجمهورية'[20] برئاسة الشيخ سوف، روعى فيه تمثيل جميع القبائل. وتم تعيين مجلس شرعى من أربعة علماء. و بعث مجلس الجمهورية ببلاغات يطلب الاعتراف بها، الى السلطات الإيطالية (التى رفضت الاعتراف) وإلى رؤساء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. كما تم تعيين عبد القادر الغناي قائدا لجيوش الجمهورية وجعل مقره الزاوية. كان الغناى، وهو من بنغازى، ضابطا متخرجا يحمل رتبة عالية فى الجيش التركى، وعاد الى مصراته إثر انتهاء الحرب العالمية. ويبدو أنه اتصل بالطليان، مما جعل ضباطه وجنوده فى الزاوية يتمردون عليه، واضطر الى الفرار الى طرابلس فى ديسمبر 1918، وربما ساعد الطليان فى احتلال الزاوية فى الشهر التالى.

دامت الجمهورية الطرابلسية أقل من سبعة أشهر.

وقد رأى أعضاء الرئاسة الأربعة، أن يقيم كل واحد منهم فى منطقته، بحجة أن ذلك ما تستدعيه حالة الحرب مع إيطاليا. وهكذا كانت الجمهورية امتداداً، ذى عنوان جديد، للتحالف القديم والعفوى بين زعماء المناطق الرئيسية لطرابلس.

ولم تصل، الجمهورية' أبداً الى مستوى الدولة المؤسسية، وإنما كانت حلما لم يستوعبه الواقع.

صلح سوانى بن يادم:

تم التمهيد للتفاوض بين الطليان والمجاهدين، بجهود بعض الأعيان الموجودين فى مدينة طرابلس، وبالذات الشيخ محمد فرحاتِ الزاوى. وجرت الاتصالات والمباحثات تحت تهديد إيطالى مستمر باستئناف العمليات العسكرية. ذلك أن إيطاليا استطاعت بعد انتهاء الحرب العالمية، أن تفرّغ جزءًا من قواتها للساحة الليبية. ثم إن الجناح العسكرى فى الادارة الإستعمارية كان يضُغط لبسط النفوذ على كامل التراب الليبى بالقوة، كما هو واضح فى ما يذكره غراتسيانى فى كتابه، نحو فزان''.

وقد تشكل الوفد الطرابلسى من الهادى كعبار والصويعى الخيتونى ومحمد فكينى وعلى بن تنتوش. واجتمعوا مع الوفد الإيطالى فى خلة الزيتون بدءاً من مارس 1919. وتم الوصول الى اتفاق مبدئى بعد حوالي الشهر.

وفى 1 يونيو 1919، أصدر ملك إيطاليا مرسوماً '' بالقانون الأساسى للقطر الطرابلسى''[21] يمنح حق الجنسية الإيطالية (تشيتادينسا) للعرب، وينظم الادارة بحيث وضعت السلطة الكاملة فى يد الوالى الإيطالى الذى يعينه ملك إيطاليا و مجلس نواب محلى ذى صبغة استشارية، ينتخبه أهل البلاد. وتقرر أن يكون فى كل متصرفية ضابط اتصال إيطالى بجانب زعماء المناطق العرب. وتم تعيين ثمانية رؤساء دوائر عرب (أعضاء الحكومة) بقرار من الوالى، بناء على ترشيحات زعماء المجاهدين. كان أعضاء حكومة طرابلس: عمر بودبوس، أحمد الفسطاوى، مختار كعبار، أحمد اشتيوى السويحلى، محمد الصويعى، على الشنطة، محمد فكينى ومحمد الفقيه حسن.

ونظم الطليان مهرجاناً للاحتفال بالصلح، وبدخول رجال الجمهورية إلى عاصمة القطر. وقابلت الناس صلح بنيادم وصدور القانون الأساسى بفرح واستبشار، ظهرا بوضوح فى استقبال أهالى طرابلس لفرسان المجاهدين (حوالى 600 فارس) الذين ''... دخلوا المدينة بين زغاريد النساء ... مطلاّت من قلاليات (= شرف) المنازل يرددن: ينصر جيش الجمهورية / اللى خلاّ الطليان رعيه''[22].

وعملياً أدى الصلح والقانون الأساسى إلى حل الجمهورية، فقام زعماء الحركة الوطنية بتأسيس حزب الإصلاح الوطنى وأسندوا رئاسته الى أحمد بك المريض، وأنشئت جريدة " اللواء الطرابلسى " لتكون لسان حال الحزب، وتولى رئاسة تحريرها عثمان القيزانى.

ولعل بعض الكتاب قد تأثروا، من جهة بروح المنافسة التقليدية بين مدينتى طرابلس وبنغازى (وكثيراً ما تصاغ على أساس طرابلس وبرقة)، ومن جهة أخرى مدفوعون بالرغبة فى إدانة السنوسية- فروّجوا انطباعاً مؤداه ان اتفاقيات إدريس مع الطليان كانت تنازلاً وانهزاماً، بينما كان صلح بنيادم نصراً. والحقيقة إن الاتفاقيتين انبعثتا من رغبة ايطاليا فى الوصول الى هدنه، وتحقيق سلام، ولو لفترة مؤقته، إلى حين إنتهاء الحرب العالمية الأولى وتبعاتها.

ويمكننا استجلاء أسس صلح بنيادم، من رسالة بعث بها الشيخ أحمدالمريض رئيس هيئة الإصلاح المركزى الى وكيل الوالى الإيطالى، يقول فيها: ".. إن الحزب الذى أنا رئيسه.. لا يقصد عداء الأمة الإيطالية ... بل يراها أقرب الأمم وأحقها بمحبة العرب ... وإنه لا يداوم المعارضة إلا لمنع غلطات كبيرة قد تجر الى فشل وتوتر علائق بين أمتين تقضى مصلحتهما بالاتفاق والتعاون.. نرى أن بلادنا بطبيعة الحال جزء كامل مستقل بذاته .. وإننا قانعون بأن مصلحة إيطاليا الحقيقية هى فى قبول الصورة التى يمكن بها وجودها هنا غير جالب لنفرة أحد ولا محرك للشحناء... " (23).

وعلى أية حال لم تستطع الحكومة التى تشكلت بعد صلح بنيادم (1919) أن تنفذ قراراتها. لقد كانت حكومة شكلية أمام استقلالية الزعماء، وتناحرهم (خاصة صراع رمضان السويحلى وعبد النبى بلخير).

كانت حقبة محزنة، رغم ما وعدت به من آمال.

وعن ذلك قال البارونى فى وقتها منتقداً، أن أعضاء الحكومة: " لبثوا بعد تصديق القانون الأساسى.. فى فندق بن غشير خارج مركز الولاية ... وانشغلوا بعزل بعض المأمورين.. وتعيين آخرين وإصدار الأوامر بأسمائهم وجباية الأموال من الأهالى .. والأعشار الشرعية، ومجازاة ومحاكمة الأهالى ... وترفيع الضباط"(24).

ولم يكن الرضى عن صلح بنيادم عاماً، ونستطيع أن نسبر مؤشرات الرأى العام من خلال ما راج من شعر شعبى، من ذلك قول الشاعر أحمد بن دله:

بعد نْ حرثنا وبعد ما صيبنا ∴ عند لحصاد فيه ناضت غوله

وكان يرد على قصيدة المجاهد سوف، التى قالها مستبشراً فى البداية:

هالتاو وَان القول، و نا نقوله
علىْ ناس فكت وطِنها من دوله

وفيما بعد راودت المجاهد الكبير سوف، شكوكا حول ما تم، فقال:

بعد نْ طمعنا بالخلا ص إخلصنا
جىْ فانكو فى فانكو خلبصنا

وقبل ذلك قوبل تأسيس البرلمان البرقاوى بأهزوجة ساخرة (للشاعر الشعبى حسين بوشـــهاوى):

مبعوثان ودور مشايخ
كايخ فى كايخ
يكمل غير وكال طبايخ

على أى حال كان تأسيس حكومات محلية فى طـــرابلس وبنغـــازى بدايـــة لتأسيس دولة ليبيا الحديثة، ولكنها بداية لم تدم طويلا. وحافظت إمـــارة ادريـــس السنوسى على تماسك دواخل برقة الى حد ما، بفضل الطريقة السنوسية التـــى ضمنت الولاء الدينى معززا بمؤسسة شبكة الزوايا. أما فى طرابلس فقد كـــان صلح بنيادم بمعنى ما، كان فاتحة لصراعات ولفتن دموية ستقود الـــى تمزيـــق الوحدة الوطنية بين المجاهدين. وفى الحالتين كان الحكم الذاتى مرحلة انتقالية، حتى تستعيد ايطاليا قواها لتستأنف توسعها العسكرى.

نزف الدّم:

وهكذا، خلال عام ونصف من توقيع صلح بنيادم، شهدت طـــرابلس أبشـــع حربين أهليين: حرب السويحلى ضد عبد النبى بلخير، وحرب الزنتان والرجبان مع البربر فى الجبل الغربى.

وقد يصعب الى يومنا هذا فهم دوافعها، ولذلك أوعز معاصرو هذه الحروب إلى دسائس المستعمر وأعوانه، وربما يجاريهم بعض الكتاب المعاصرين. وإذا كان هجوم السويحلى على ورفله يمكـــن ان يصـــنف تحـــت بـــاب التراجيـــديا الشخصية، فإن حرب الجبل تندرج تحت الصراعات التى تحركهـــا عواطـــف القرون الوسطى، مثلها مثل حرب لبنان أو حروب البلقان المعاصرة.

لا شك أن التدخل الإيطالى لعب دوره فى إذكاء الفتن، من باب فـــرق تســـد مستغلا العواطف والمصالح المتضاربة... لكن جذور الهوس الجمـــاعى كانـــت قاطنة فى البناء النفسى والإجتماعى.

فتنة الجبل الغربي:

وقعت الحرب الأولى بين البربر من جهة وقبيلتى الزنتان والرجبان من جهةٍ، فى 1916، وأدت الى هجرة البربر عن قراهم فى الجبل الى الساحل حوالى زوارة، وسهل الوطية. وكان من نتائج تلك الحرب انضمام بعض أعيان البربر الى الطليان، وأشهرهم يوسف خربيش الذى ساعد فى التوسع الإيطالى على الشريط الساحلى. ولم يكن خربيش بالتأكيد مسئولاً عن ذلك النجاح الذى عاد الى قدرات الآلة الحربية الايطالية بالطبعِ. لكن كتيبته (بندته) ارتكبت شتى صنوف النهب والعدوان على العُزّل... رَسَختْ فى أذهان الناس لتؤجج بدورها مزيدا من البشاعات.

وفى أواخر 1919، بدأ البربر بالعودة الى ديارهم، مما قاد الى تجدد المناوشات والعداوات. وكان للبربر هذه المرة قيادة صلبة فى خليفة بن عسكر، بينا تزعم الرجبان محمد فكينى عضو الحكومة الطرابلسية الجديدة المنبثقة عن صلح بنيادم. بالمقابل سعى البارونى للتوسط بين الطليان وابن عسكر فتم إصدار عفو عنه وعاد الى نالوت. وعادة ما يلوم الكتاب أو شهود تلك الفترة البارونى، ويطعنون فى حقيقة نواياه، لكنه فى النهاية لم يقم بأكثر مما وصل اليه الزعماء آنذاك من تفاهم مع الطليان.

تفاقمت المناوشات، وقتل فى إحداها ابن فكينى مما جعل نار الانتقام الجاهلى تزداد اضطراماً. و" فى اكتوبر 1921 هاجم الزنتان والرجبان البربر فى يفرن، وأجلوا عنها ابن عسكر والبارونى الى فساطو (= جادو) فلحقوا بهم هناك وأجلوهم عنها... وكان محل الغرابة منها كيف يقسو الانسان على جاره ومواطنه بهذه القسوة، وحل بفساطو ما حل بتارديه من حرق وتخريب وسلب ونهب... (وفى النهاية نزل الناس الى الوطية).. وأصبح الجبل من يفرن الى نالوت، خالياً إلا من أصوات البوم وعواء الذئاب.. وطلقات الرصاص.. تجول فيها خيل الزنتان والرجبان... حرب تجرّد فيها الإنسان من كل عاطفة وإحساس، وأصبح لا قيمة عنده لحقوق الجوار، ولا لأوامر الدين.. حرب تولى قيادتها رؤساء لم يكن لهم من الدين وازع.. رؤساء أخلصت لهم الرعية.. وساقوها الى المجازر.. " (25).

لا يمكن لمن يقرأ هذه السطور إلا أن يحَييّ أولاً كاتبها الشيخ الطاهر الزاوى، لشجاعته فيِ أن ينطق بإدانة تلك الحرب الهوجاء المنكرةِ، ولوطنيته التى ارتفعت مبكراً عن القبلية البدائية. لكن الزاوى لم يكن وحيداً فى حرقته وقلقه على ما لتلك الحرب من آثار سيئة على مسار القضية الوطنية. وهكذا

التقى بعض المشائخ فى العزيزية (اكتوبر 1920)، وقرروا تشكيل 'وفد الإصلاح' للمصالحة بين أطراف النزاع فى الجبل، كما قرروا الدعوة لمؤتمر وطنى فى غريان(26).

الخيارات المستحيلة.. الشتات ؟

مع الغزو الايطالى، وجد الليبيون البسطاء أنفسهم وجها لوجه أمام آلة حرب حديثة: المدفع والرشاش، السيارة والدبابة، الطائرة الاستطلاعية والقاذفة ... وأخيرا التلغراف كوسيلة اتصالات شبه إعجازية فى ذلك الزمن، فضلا عن أهميتها العسكرية الواضحة. وأمام تلك الآلة هزمت الخلافة العثمانية، التى لم يعرف الناس غيرها حكومة قوية لا تقهر.

وهكذا تخلت الخلافة عن ليبيا. تلك كانت الصدمة الأولى. بخروج تركيا مهزومة من الحرب العالمية الأولى سنة 1918، انقطع كل أمل فى أى مساندة ضد الإيطاليين، وهو الأمل الذى روجته المخابرات التركية والألمانية لفترة.

مقابل ذلك تنامت معرفة الطليان بتفاصيل العلاقات بين الليبيين، وما بين بعضهم من منافسات، وصراعات، أو عداوات قديمة.

وتضافرت عوامل اليأس المتنامى فى نفوس الليبيين مع نشاط رجال المخابرات وضباط الاتصال الطليان، لتولد ميلاً متزايداً للتصالح والانصياع لدى الكثيرين. بالطبع كان هناك الكثيرون الذين تقبلوا الوضع الجديد أو حتى أعانوه مبكراً (27)، وسيبقى بالمقابل كثيرون رافضون للوجود الايطالى ولكل أشكال التعاون معه، وهؤلاء سيختارون الهجرة الى الخارج كلاجئين، فى نهاية المطاف إثر استئناف الطليان للعمليات العسكرية (1922)، أو ما سمى بحرب الاستعادة.

أمام هذه الخلفية فقط يمكننا فهم متوالية الوقائع الجزئية اللامتناهية والبالغة التعقيد التى نصادفها فى دواخل طرابلس بالذات. ذلك أن الزعامات المحلية والمواقف القبلية فى برقة، قد طمست الى حد بعيد تحت المظلة السنوسية التى انفردت بالقرار السياسى. وبالطبع ظهرت اختلافات فى المواقف داخل المؤسسة السنوسية، ولكنها سرعان ما حسمت لصالح موقف أنهى القتال مع إيطاليا وحقق للدواخل استقراراً مع استبعاد للتواجد الإيطالى.

فى دواخل طرابلس يمكننا اختزال شتى الصراعات والتقاطعات والمواقف، الى أرجوحة بين ثلاث نقط أو أقطاب... وصورة الأرجوحة أقرب إلى الواقع، لأن المواقف كانت تتغير بشكل سريع وأحياناً غير متوقع، أو أن الأمر أشبه بكرات البلياردو حين تأتيها صدمة الكرة المقذوفة:

- نعم ... كانت هناك الرغبة، وأحياناً كان التشبث بالجهاد، وهو ما كان يمليه الضمير والانتماء والشرف الشخصي. لكنه كان خياراً صعباً قاسياً، وفي النهاية رهاناً ميؤساً.
- الخيار المناقض، تمثل في الانضمام الى خدمة الطليان، كانت تمليه قوة المستعمر وإغراءات المال والراحة والأمان، لكنه كان مجلبة للعار وشيء أشبه بالدعارة رغم كل مظاهر السلطة. لكن العداوات القديمة بين الجيران أو داخل القبيلة الواحدة، كانت دافعاً كبيراً لتبرير التعاون مع الطليان. فشيخ العشيرة يعرض خدماته على السلطة الجديدة، إما طلباً للحماية أو أملاً في دعمه ضد خصومه، وفي الحالتين يحقق الاستقرار والرخاء لأقاربه. وبالطبع استغل الطليان كل التناقضات لكسب أنصار بين الليبيين، كمستشارين وموظفين وجواسيس وجنود مرتزقة. وقد حدث ذلك في كل أنحاء ليبيا، وبدون استثناء، بدرجات مختلفة.
- بين هذين الخيارين أو القطبين، حاول البعض اتخاذ مواقع وسط. استرضاءً للمستعمر والتعاون معه بشيء من الكرامة، وذلك كان لب صلح بنيادم، كما كان جوهر معاهدات السيد إدريس مع الطليان. وفي الحالتين وافقت إيطاليا على منح استقلال ذاتي للدواخل وقيام سلطة محلية ومجلس نيابي. والاختلافات كانت شكلية فقط كدخول الزعماء الى طرابلس في مظاهرة فروسية!

رمضان السويحلي:

وهناك من طلب فقط الابتعاد عن الطليان والاحتماء بموطنه كسيد بين قومه. حاول ذلك رمضان السويحلي في مصراته، بسلطويته القاسية. ومن أمثلة ذلك أن الشيخ محمد عبد المالك قاضي مصراته، استقال احتجاجا على إعدام التواتي مبعوث صفي الدين، وترك مصراته وأخذ معه أسرته. ومن باب الإنتقام بعث

السويحلى بجند قاموا بقطع قرابة أربعمائة نخلة فى سانية القاضى. (عن رواية شخصية للحاج على عبد المالك حفيد القاضى المذكور).

والأخطر أن هذا الطموح السلطوى الطاغى ولد لدى السويحلى(جزئيا بتحريض من المحيطين به)، رغبة جامحة للسيطرة على جيرانه عبر حروب تدفعها أحقاد جنونية. وكان ان هزم أخيرا فى بنى وليد[28]، واستسلم، واغتيل وهو يقاد الى زعيمها عبد النبى بلخير، صباح يوم عيد الأضحى 24 أغسطس 1920.

عبد النبى بلخير:

نال عبد النبى قسطاً من التعليم فى العهد التركى، ودخل الادارة الحكومية كموظف، وحقق ثروة من جمع الأعشار، وعين متصرفاً على ورفلة فى نهاية العهد العثمانى وحتى الغزو الايطالى. وقد شارك عبد النبى فى معظم المعارك الأولى فى مختلف أطراف طرابلس، متزعماً متطوعى ورفله، الى أن احتل الطليان بنى وليد فى فبراير 1913.

وحاول عبد النبى كزعيم لورفلة، نفس هذا الخيار المزدوج (الاستقلال القبلى ومغازلة الطليان)، بمرونة ودهاء لا حد لهما، وكان يعتمد على تكتيك المسالمة من جهة والغياب من جهة أخرى. فرغم أنه اشترك بكتيبة من مسلحي البنده فى جيش ميانى المتوجه نحو الجنوب، إلا أنه لم يشترك فى معركة القرضابية، فقد رجع بمسلحيه (عند بونجيم) الى ورفله بحجة حمايتها من هجوم محتمل من قبل مجاهدى فزان بزعامة سيف النصر. وبعد انكسار جيش ميانى، قام عبد النبى بمحاصرة الحامية الإيطالية هناك واضطرهم للاستسلام فى يوليو 1915. ثم نقلوا فى 1917 الى مصراته. وبعد انسحاب الطليان أصبح بلخير قائمقام ورفلة.

كذلك حضر عبد النبى جزءًا من مفاوضات بنيادم (خلة الزيتون) لكن 'صدام الشخصيات' سرعان ما تفاقم بينه وبين رمضان السويحلى بسبب اصرار الأخير على الرئاسة، فانسحب الى بنى وليد[29]. وفى ديسمبر 1923 زحف الجيش الإيطالى لاحتلال أو استعادة بنى وليد. وإبان الفترة التمهيدية كان عبد النبى يتبادل المراسلات مع الجنرال غراسيانى، وحاول أن يناور، من ذلك قوله فى إحدى المراسلات أنه عرض الخطابات على زعماء المنطقة " ... ولقد صرحوا

جميعا أنهم لم يتصوروا قط أن الحكومة ترمى الذهاب الى ورفلة بالقـوة، وذلك أن ورفلة كانت، منذ إبرام معاهدة الصلح حتى الآن، قد بقيت محايدة.'' [30].

وأمام تقدم الجيش الإيطالى، دافع رجال المنطقة دفاعاً مستميتاً لكن توازن القوى لم يكن متكافئا. وانسحب عبد النبى وبعض أبناء عشيرته الى فزان. وبعد صراعات انتهت الى تحالفه مع آل سيف النصر، وتنحية خليفة الزاوى[31]، تولى عبد النبى إدارة فزان. ومع عودة الطليان الى المنطقة (سنة 1928) رحل عبد النبى وعشيرته لاجئين الى الجزائر. وهناك بينما كان يبحث عن بئر، تاه فى الصحراء ومات عطشا (سنة 1932) ولم يعثر له على أثر.

ويبدو ان عبد النبى بلخير، إضافة الى ذكائه ودهائه وقدرته على توقع نوايا الرجال، كان عفوّا حتى على أعدائه ما أن يقعوا فى قبضته، كما يظهر من السخاء وحسن المعاملة الذى أظهره إزاء ضباط السويحلى بعد استسلامهم. لكن مصدر قوة بلخير كان قدرته على الصبر وضبط النفس. وتلك كانت أيضا نقاط ضعفه، لأنه كان يؤثر الانتظار على المجابهة. وثمة قصيدة– تنسب اليه[32]، ولا أدرى مدى صحة ذلك– تتحدث عن الصبر ومعاناته وكيف أنه قد يبدو ضعفا للخصم فيزيد من جسارة ذلك الخصم، ولعل هذه الأبيات تلخص مأساة عبد النبى بلخير:

صبرنا وطول الصبر ذقنا منه
امرارات علقم زاخمه ف البنه
زاخمات صعيبه
والصبر تاريته عليك مصيبه
يخلىّ رفيقك، وين تحمل عيبه
يزيد بالخطا ما عاد يرجع عنه
يستسهلك، ما عاد عنده ريبه
ويستحقرك ف العين، شينك غِنه

خليفة بن عسكر:

واعتنق فكرة تلك الزعامة 'المحايدة' أيضاً، المجاهد خليفة ابن عسكر. فأثناء الوساطة بين الرجبان وأهل نالوت، يبدو أن ابن عسكر قال لوفد الوساطة، ما معناه أنه يريد أن يكون '' مسئولاً عن المنطقة الغربية من وادى غدو

غربا، وأنا أعاهد كم أن الطليان لن يصعد لهذه المنطقة من جهتى، وعليكم بالجهاد فى مناطقكم'' [33].

هكذا بشجاعة البدو البسطاء، دونما بصيرة سياسية، كان تصور بن عسكر، فانزلق الى تلك الحرب الطائفية بين البربر والزنتان والرجبان ... تلك الحرب التى عرفت أبشع أشكال الانتقام وخلفت الكثير من الأحقاد: ''..فكانت حرباً مخربة، ومقتلة انتقامية أسفرت عن قتل الوطن ''[34] .

واضطر ابن عسكر فى النهاية أن يترك الجبل، وهبط وأنصاره من أهالى نالوت الى الوطية فى ديسمبر 1921، - عملياً - طالباً الحماية من الطليان لكن الطليان لم يغفروا لخليفة بن عسكر ماضيه النضالى.

وانتهى بن عسكر الى حبل المشنقة الايطالية، يحمل فى آن واحد شرف الجهاد القديم وعار الإستسلام للطليان. ولم يبق من ذكراه إلا شجاعته فى مواجهة الموت واحتقاره لجلاديه بسوق الزاوية حيث أعدم فى يوليو 1922.

البارونى:

وفى تلك الفترة خاض البارونى، المتمرس فى أروقة السياسة فى الأستانة والمطلع على مجريات الأحداث العالمية، خاض لعبة متعددة الاتجاهات، ربما أملاً فى تحقيق فوز فى هذا الاتجاه أو ذاك. وربما ما كان له إلا ان يقع فى مواقف متناقضة، هزت فى النهاية مكانته بين زعماء الجهاد. كان كليبيى مناهضاً للغزو الإيطالى، وكعثمانى ونائب سابق فى مجلس المبعوثان وكممثل للسلطان، ملتزماً بتأييد السياسة التركية الميئوس منها.

على صعيد محلىّ، كان تعاطفه مع أبناء عمومته من البربر أمراً منطقياً آنذاك، ضد خصومهم من الزنتان والرجبان، لكن تعقيد وتداخل تلك الخصومات منعه من الوقوف موقف الحكيم المحايد الذى يحرص أولاً وأخيراً على إيقاف تناحر الأخوة، ولكنه مع ذلك لم يشارك فى الحرب الأهلية، وكرس نفسه لتخفيف معاناة البربر المطرودين من أراضيهم.

من جهة أخرى كان البارونى يدرك أن قوة ايطاليا هى التى ستحسم الموقف، ولذلك كان على اتصال مباشر وغير مباشر بالسلطات الإيطالية، حريصاً على إظهار نفسه كرجل سلام. ومع ذلك، داعبت خياله أيضاً فكرة تأسيس إمارة بربرية أباضية فى جبل نفوسة.

رفض البارونى تعيينه فى حكومة طرابلس بعد صلح بنيادم، بحجة أنه عثمانى، ويبدو أنه وصل الى قناعة بأنه لم يعد له مكان أو دور فنأى بنفسه عن الزعامات، وغادر ليبيا فى نوفمبر 1920، وانتهت به الهجرة الى مسقط حيث عمل مستشارا لسلطانها تيمور، وتوفى فى الهند سنة 1940، إبان زيارته لها فى وفد رسمي. وهكذا أراد البارونى أن يقف فى كل الساحات، ففقد ثقة الجميع. ونلمس ذلك فى المهاترات والمطاعن المكتوبة بينه وبين الحركة الوطنية، حتى وإن استطاع أن يهرب بجلده.

لقد كان البارونى أسير عواطفه وأحلامه، التى ربما كانت ستجعل منه سياسياً ناجحاً، فى مكان آخر غير ليبيا ! ''... وعلى كل حال فإن فضل سليمان البارونى فى الجهاد الطرابلسى لا يُنكر''[35].

اليأس:

ولعل فقرة من رسالة بعث بها بعض الزعماء المتعاونين مع الطليان الى الشيخ سليمان البارونى، تلخص القناعة المتزايدة بأن لا أمل من محاربة الطليان، وبضرورة الرضوخ للأمر الواقع، بل ربما كان فىالتعاون مع الإيطالى خير البلاد. يقول كاتبو الرسالة مخاطبين البارونى إنهم يأملون أن تثنيه رسالتهم:

''عن عزمك على سفك دماء بنى وطنك والمجازفة بأرواحهم ... أما الإصرار على محاربة دولة.. ليس لك حول ولا قوة على محاربة جيوشها الجرارة، فالظاهر من قبيل العبث ... خصوصاً وأن الدولة العثمانية التى حضرتك مندوبها الأعلى .. قد تنازلت عن مالها من الحقوق على هاته الإيالة''.

''هل منذ خلقت، رأيت أو سمعت أن بلاداً اسلامية أو غير إسلامية اتجهت إليها أنظار الأوروبيين حمت نفسها من الوقوع فى قبضتهم؟''

''إن أمتك هذه ليس لها ما يؤهلها الى نيل الاستقلال السياسى والإدارى قط، لا من حيث العلم الذى هو روح حياة الأمم، ولا من حيث الثروة ... منبع حياته وقوام وجوده،،

'' (ولكن بتحقيق السلام ستصبح البلاد) هادئة رافلة فى حلل التقدم الى حوز قصبات السبق فى ميدان العمران والتمدن ومزاحمة لجارتيها مصر وتونس''.

''ورغبة فى حقن الدماء ورأفة بالأهالى ... كلفتنا الدولة بدعوتك للاجتماع بنا للمقصد المتقدم''[36].

ولعل أبياتاً من شعر تلك المرحلة تلخص لنا حالة الحيرة واليأس، إزاء ما يمكن فعله ضد المستعمر الايطالى:

الصلاّح ما عانونا
واكبارنا، طوال الشنب خانونا،
مقادير ربى، والعدو لزّونا،
ويا نفس رومى للصـّغا وارتاحى.

أولياء الله الصالحين، لم يعينونا وخاننا وجهاؤنا، ذوى الشنب الطويلة تلك مقدرات الله، والعدو طردنا فيا نفسى انصاعى للذل واتركى

البنده:

لكن أبشع مظاهر التعاون بين الطليان وليبيين هو بلا شك تشكيل كتائب المرتزقة، أو البنده. وهى تطور موثق ومسجل، وربما تفضل ذاكرتنا الجماعية طمسه وراء ركام من القصص الحقيقية والأسطورية عن بطولات أجدادنا. لقد نجح الطليان عبر الأعطيات والهبات والمناصب فى استمالة العديد من الزعماء الليبيين. ولم يقتصر ذلك على جهة دون أخرى، أو قبيلة دون أخرى. وشكلوا فرقاً من المجندين أو المرتزقة، سميت بالبنده (كلمة إيطالية، مفرد، وتعنى "فرقة"). بل أحيانا ربما اصطدم أولاد العم من نفس القبيلة، فى معركة يحارب أحدهم فى الجانب الإيطالى، والآخر بين المجاهدين. لكن الطليان بصفة عامة، كانوا يشكلون البنده الواحدة من نفس القبيلة تحت قيادة أحد شيوخهم، وكانوا يوجهون البنده لتعمل بعيداً عن مواطنها الأصلية. ومن أشهر البندات بندة زواره التى أسسها الطليان سنة 1917 بقيادة سلطان بن شعبان ويوسف خربيشة[37]. وبندة عاكف بقيادة عاكف امسيك، التى نالت شهرتها المرعبة فى الجبل الأخضر حين أراد غراسيانى ترحيل قبائل الجبل الى المعتقلات الجماعية، من أجل محاصرة "عمر المختار".

السراب الأخير:

أمام انهيار وحدة حركة الجهاد بسبب الحروب الأهلية، عقد زعماء دواخل طرابلس مؤتمرهم فى غريان فى نوفمبر عام 1920.

حضر المؤتمر عشرون زعيما[38]، يمثلون كل قبائل و' بلاد' طرابلس، باستثناء البربر. كما حضره عبد الرحمن عزام 'كمستشار'. واستمر انعقاد المؤتمر 15 يوماً. وكان أبرز الغائبين عنه الشيخ سليمان البارونى ''لأنه كان متأثراً بالحرب التى وقعت بين الزنتان والبربر... الأمر الذى حمله على تخصيص .. وقته للعمل على استقرارهم..'' [39].

واتخذ مؤتمر غريان عدة قرارات:

- تشكيل هيئة الإصلاح المركزية من 12 عضوا[40]، برئاسة أحمد بك المريض.
- طرح فكرة توحيد الجهاد وراء زعامة قائد واحد.
- إرسال وفد[41] الى روما لشرح القضية الليبية للمسئولين وللرأى العام فى إيطاليا، وكان هذا الوفد برئاسة محمد فرحات الزاوى، وسيبقى الوفد فى إيطاليا لمدة تسعة أشهر، ولن يحقق شيئاً فعلياً.

من زاوية اهتمامنا هنا بتطور فكرة الدولة الوطنية، كان أهم ما تمخض عنه مؤتمر غريان هو القرار التالى، الذى لا يخلو من غموض:

'' إن الحالة التى آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة، ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامى بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة ''.

من يا ترى كان فى أذهان المشاركين فى مؤتمر غريان ؟

هل كان ثمة شخص بعينه، من داخل المؤتمر، يمكن أن تجمع عليه الأمة؟

لقد زعم الأمير إدريس وأنصاره آنذاك، أنه كان المقصود، وبالتالى فذلك القرار كان بمثابة مبايعة له، ويستشهدون بما حدث بعد ذلك فى اجتماع قصر سرت. والواقع أن الطاعنين فى هذا التفسير (بمن فيهم الشيخ الطاهر الزاوى[42]) لم يقدموا أى دليل يسندهم سوى غموض النص ! وثمة سؤال آخر. فقد كان أحد أعضاء هيئة الإصلاح بشير السعداوى العائد لتوه من الشام، حيث قابل أحمد الشريف الذى ''أخذ عليه العهد العظيم والميثاق على كتاب الله (أن) يسعى للتفاهم ما بين القطرين الطرابلسى والبرقاوى وأن يسعى لتوحيد الصفوف

والالتفاف حول رجل الوطن الوحيد الأمير إدريس..'' [43]. فهل بدأ السعداوى يجند الأنصار للأمير إدريس ؟ مهما كان حجج المتجادلين، فإن تلك المبايعات، لم تكن لتنطبق على أحد سوى السيد إدريس، بحكم محتده وما كانت تتمتع به السنوسية من ولاء روحى لدى الناس العاديين. لكن مبايعته كانت أيضاً رهاناً مستحيلاً بالنظر للظروف القائمة آنذاك، ولذلك كانت المبايعة أقرب لحلم المشرف على الموت بالعطش فى صحراء قاحلة.

مؤتمر قصر سرت:

بعد قرابة عام واحد من "مؤتمر غريان" (نوفمبر 1920)، فى يناير 1922 انعقد اجتماع فى قصر سرت[44] حضره ممثلون عن هيئة الإصلاح المركزية فى طرابلس وممثلون عن إمارة برقة. وكان الغرض من الاجتماع تصفية الأجواء بين القطرين، بعد أن ساءت العلاقات إثر صدام السويحلى وصفى الدين (سنة 1916) بعد معركة القرضابية. ووقّع المجتمعون تعاهدا جاء فيه التأكيد على:

''اتفاق القطر الطرابلسى والبرقاوى على الاتحاد والتعاون فى السراء والضراء... أن نوحد كلمتنا ضد عدونا الغاصب لبلادنا... أن مصلحة الوطن تقضى بتوحيد الزعامة فى البلاد''.

ولكن ما نيل الأمانى بالتمنى ... وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن !

فبعد خمسة أيام من توقيع تلك الوثيقة، وبالتحديد فى 26 يناير 1922، نجح الطليان فى احتلال قصر حمد (أو مصراته البحرية عند الإيطاليين)، بالإنزال البحرى، مدشنين بذلك حرب الاسترداد، أى الخروج من الشريط الساحلى لبسط نفوذهم على كامل التراب الليبى. ومع ذلك، ومن باب التمويه، دعى الطليان الى هدنة، ومفاوضات أجريت فى ' فندق الشريف' بطرابلس (مارس 1922) لكنها سرعان ما وصلت الى طريق مسدود[45]. واستأنف الطليان العمليات العسكرية باحتلال الزاوية (25 أبريل 1922) ثم العزيزية (30 أبريل 1922).

وأمام هذا الموقف المتفاقم، رأت هيئة الإصلاح ان تدعو الأمير ادريس الى طرابلس، لكنه بعث مندوباً يقول إنه ما لم يُبايَع، فإنه لن يأتى الى مصراته ولن يقوم بأى عمل حربى حسب ما نصت عليه مواثيق قصر سرت. وبالطبع كان إدريس يبحث عن ذريعة دبلوماسية ليس إلا، فهل كان بإمكانه حقاً أن يقوم بأى

إجراء عسكرى بالنظر لضآلة ما بين يديه من جند وسلاح، فضلا عن التزامه بمعاهدات مع الطليان ؟

لكن الغريق يتشبث بقشة. إذ قرر زعماء طرابلس أن يرسلوا وفدا يحمل كتاب البيعة(46) الى الأمير إدريس. وسافر الوفد من مصراته الى اجدابيا فى يونيو 1922. وجاء فى كتاب البيعة:

''.. وحيث أن سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت، مع ما تجمّع فى ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن هيئة الاصلاح المركزية... قد وجدت فى سموكم أميراً حازماً قادراً على جمع الأمة حائزاً للثقة العامة... فهى لهذا تبايع سموكم أميراً للقطرين فى طرابلس وبرقة على أن تقودهما الى ما يحقق أمانيهما..''.

وردّ السيد إدريس بكتاب قبول بليغ، ولكن مستشاريه (ومنهم عمر باشا منصور) حرصوا – فى ما يبدو لى – على ألا يَرد فى كتاب القبول، لفظ أمير أو إمارة، حرصاً على عدم خرق نصوص الاتفاقيات مع الطليان !

ربما رأى البعض فى هذا الدفق اللفظى الذى طغى على تلك المراسلات، فى لجة الحرب التى بدأ يشنها الطليان بنجاح، ضرباً من المسرح السريالى، أو شاهداً على قوة تعلقنا بالكلام! على أى حال كسب إدريس مبايعة تاريخية، وضعها فى محفظته لتكون أساسا لجدل سيتجدد بعد ربع قرن، وبالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد قرابة شهرين، سيطال التوسع الإيطالى حكومة اجدابيا، وأمام زحف الجيش الإيطالى، غادر الأمير إدريس اجدابيا تحت جنح الظلام قاصداً مصر، فى 21 ديسمبر سنة 1922(47).

حرب الاسترداد:

بعد انكسار جيوشه فى معركة القرضابية (28 أبريل 1915) تراجع الوجود الإيطالى فى إقليم طرابلس، الى مدن طرابلس والخمس وزواره(48)، بعيداً عن الدواخل المسكونة بالبدو الرافضين والمسلحين. ولعل القيادة العسكرية تسرعت فى إخلاء مواقعها، لكن غياب الطرق الحديثة وصعوبة المواصلات والإمداد كانت عوامل أساسية فى قراراتها تلك.

فى منتصف 1921 تم تعيين والى جديد لليبيا، هو الدبلوماسى المخضرم الكونت فولبى Volpi الذى جاء بسياسة جديدة لإنقاذ الروح المعنوية الإيطالية المنهارة، من خلال حملة شرسة لإسترداد كل المواقع والسيطرة على كامل التراب الليبى. وكان موقف فولبى من القيادات الوطنية كولونيالياً قطعياً يرفض

حتى الاعتراف بوجود سكان أصليين ولذلك جعل شعار السياسة الايطالية الجديدة ''لا بالزعماء، ولا ضدهم، ولكن بدونهم'' رافضاً بذلك مبدأ التعامل مع الزعامات المحلية.

وتعاظم هذا الاتجاه بصعود الحزب الفاشستى الى السلطة فى روما. فسخرت القيادة الجديدة، بضباطها الشباب الجسورين، كل إمكانيات المخابرات والتمويه والإمداد، لخدمة حملة الاسترداد (يناير 1922 الى نوفمبر 1924)(49). كانت حملة شرسة، استخدمت فيها الطائرات للاستطلاع والقذف، كما استعملت فيها المدفعية الثقيلة لتشتيت تجمعات المجاهدين العارية من أى غطاء ... ولذلك كانت نتائجها محسومة أصلا، وكان تصدى أهلنا قائماً على الاستجابات العفوية والإيمان البسيط، وليس على الحسابات الإستراتيجية أو تكتيك الحرب التقنية التى كانوا يجهلونها.

وكان الهجوم الأول، كما ذكرنا، على ميناء قصر أحمد (مصراته البحرية فى المصادر الإيطالية) فى بداية فبراير 1922، ورغم بدايته المفاجئة إلا أن الهجوم قوبل بمقاومة بطولية، قادها سعدون السويحلى، وكان أشهر شهدائها عبد العاطى الجرم. وتوالى التوسع الايطالى فى دواخل طرابلس وبرقة دون توقف(50).

خاتمة

لقد أتاحت البنية القبلية للمجتمع الليبى مرونة واستمرارية مذهلة فى التصدى للغزو الإيطالى. فقد استفاد قادة الجهاد تكتيكياً من قدرة المجتمع البدوى على التنقل، بمعنى انه قادر على التحرك الكلى، رجالاً مقاتلين وأسرهم القاصرة، بل ومواردهم (من أغنام وإبل كمصادر للغذاء، فضلا عن توفر الحبوب والتمور والماء فى بيئتهم المترامية).

من جهة أخرى كانت فترة الست سنوات من 1916 الى 1922، فترة هدوء نسبى فى العمليات العسكرية بين المجاهدين والطليان، وكان ذلك بالدرجة الأولى عائدا الى انشغال إيطاليا فى الحرب العالمية الأولى.

وبينما نجحت إيطاليا فى تأسيس نظام إدارى فعال فى المدن الساحلية التى احتلتها، لم ينجح الليبيون فى الدواخل، فى تأسيس نوايات لأجهزة دولة حديثة. وما تحقق فعلاً كان محدوداً وقابلاً للاندثار بسرعة. وهكذا امتصت الصراعات القبلية والجهوية والزعامية، طاقات الليبيين، أو على الأصح حالت دون تقدمهم نحو كيان حديث.

فى برقة كان للسنوسية نظام رتبى يشبه نظام الدولة: الأسرة السنوسية وزعيمها (الأسياد)، وطبقة الأخوان[51]، ومشائخ القبائل..إلخ. لكن ذلك النظام لم يكن مهيأ للقتال، ولم يُعرف عن أفراد الأسرة أو الأخوان أنهم شاركوا فى القتال. ورغم أن المجاهدين رأوا فى تواجد السنوسيين ضرباً من 'البركة'، إلا أنهم فى الواقع لعبوا دورا تنظيميا مهماً سواء بحسم الخلافات ومنع الانشقاقات فى صفوف المجاهدين، أو بتنظيم الإمدادات بقدرتهم على طلب المؤن من زوايا أخرى بعيدة عن ميادين المعارك. لقد كان نظام الحركة السنوسية مؤسساً على الزوايا الموزعة فى أراضى القبائل لأغراض تعليم الدين، والقيام بالشعائر وفض النزاعات. وتحولت هذه الشبكة إبان فترة الجهاد الأول والهدنة الى شبكة لتمرير المؤن والمعلومات. لكن الزعامة السنوسية من جهة أخرى، حددت استجابات أتباعها الى حد كبير. وإذ أصر السيد أحمد الشريف على الجهاد، فإن السيد إدريس حين تولى زعامة الطريقة السنوسية، اختط المنحى السلمى التهادنى الذى أمسى الخط السياسى لدواخل برقة، فى الفترة التى تناولناها.

أما فى دواخل طرابلس فقد حددت البنية القبلية مسار حركة الجهاد. ولهذا فإن فترة الانكماش الإيطالى، لم يقابلها تطور فعلى فى دواخل طرابلس نحو الوحدة. لقد رأى البعض من الزعماء المستنيرين أهمية مثل هذا التحول، وطرحوا مختلف المشاريع التى تبلورت فى الجمهورية ومؤتمر غريان وهيئة الاصلاح المركزية. لكن تلك المحاولات لم تقضى على تشظى الحركة الجهادية الى 'شبه إمارات' تابعة لمشايخ قبائل أو زعامات جهوية.

لا تزال الجمهورية بؤرة مضيئة فى تاريخنا الوطنى تنشدّ اليها ذاكرتنا الجماعية. لكن الجمهورية وهيئة الإصلاح، على قصر ديمومتهما، لم يكوّنا حكومات أو مؤسسات بالمعنى المتعارف عليه، كمجلس سلطوى يلتقى أعضاؤه، ويتخذون قرارات جماعية، وتتبع كل عضو إدارات توصل سلطته وقراراته الى الأطراف. بل كثيراً ما كان الزعماء يسرعون بالعودة الى مواطنهم بمجرد انتهاء الاجتماع. كما ظلت الزعامات المحلية محتفظة باستقلاليتها. بل ظلت كل زعامة منكفئة على داخلها، تهدر مواردها المادية والمعنوية (المحدودة أصلاً) في الحفاظ على تماسك القبيلة وضرب كل انشقاقات محتملة.

لم يستوعب معظم قادة تلك الفترة، بحكم ثقافتهم التقليدية، أهمية التنظيم الإدارى أو ضرورة تأسيس دولة، سواء للتحكم فى مصادر العيش أو لتعبئة مواردهم وقدراتهم (نظم جمع الضرائب، التدريب العسكرى الحديث، صناعة

السلاح، التعليم..). وهكذا بقيت الحرب بالنسبة لهم، هبات الشهامة على صهوات الجياد، تنتفض فى وقتها حسب الحاجة، لمجابهة هجمة أو توغل من قبل العدو.

كما لم ينتبه الزعماء الى تنمية قدراتهم سواء داخلياً (بناء أجهزة إدارية تعمل حتى فى غياب الشيخ، وإدخال التعليم العصرى، ودراسة أساليب الحرب الحديثة) أو خارجياً بالاتصال بالدول والمنظمات، لكسب دعمها أو استيراد سلاح. فحتى الوجود التركى البسيط فى مصراته، لم يكن بمبادرة زعمائها، ولكن من باب التسرب المخابراتى التركى - الألمانى.

وعلى أية حال لا يجب ان نصبّ اللوم على الزعامات، كما لا يجب ان نسرف فى توقعاتنا، لأن اقتصاديات دواخل ليبيا آنذاك كانت محدودة الفائض. وبالتالى لم تكن هناك موارد لتمويل التنمية الداخلية أو الاتصالات الخارجية. كما أن البلاد لم تكن لتغرى أطرافاً أخرى أجنبية لتزاحم إيطاليا فتسعى الى التحالف مع أهل البلاد وتدعم المجاهدين لإخراج الطليان.

وأخيراً!

لقد ناضل بعض أجدادنا ببطولة لصد أو طرد المستعمر الإيطالى، لكن النتيجة كانت محسومة بسبب ما أمتلكه الطليان من سلاح وعتاد وتنظيم عصرى، وبسبب الظروف الدولية السائدة آنذاك. لكن تجربة الجهاد المضمخة بالدماء والمعاناة والاقتلاع، انطوت أيضاً على قدر من التطور فى مفاهيم الانتماء والمواطنة، وأحياناً فى مفاهيم الإدارة والقيادة.

تعقيب:

قال صديق: وما جدوى هذا التاريخ القديم؟ فى زمن الانحسار العربى، فى عصر العولمة.. ما فائدة اجترار وقائع فى صحارى بلد صغير مثل ليبيا؟ إن الأمر أشبه بأحداث مسرحية شكسبيرية! قلت: نعم، ربما لأننى أشعر بارتباط عاطفى بمواقف أولئك الرجال.. ولأن الأرض التى شهدت تلك الأحداث هى نفس الأرض التى نمشى عليها اليوم، رغم ما طرأ عليها من تغير. لكن ثمة مبررات موضوعية:

أولاً، لابد لنا أن نصحح ما شاب تاريخنا من خلط وخطأ، وأن نتجاوز الحساسيات وقصر النظر التى شابت الكثير من قرارات أجدادنا، بل ولوّنت ما كتب عنهم، حتى ولو كان ذلك عن حسن نية.

والأهم، إن كل جيل بحاجة الى أن يعيد قراءة تاريخه... التاريخ قصة لا تنتهي.. وكل جيل سيعيد قراءة الماضي، لأنه يبحث عن إجابات لأسئلة الحاضر الجديدة... ولهذا يجب أن يبقى الحوار عن الماضي مفتوحا دائما. فتاريخ الماضي هو بمعنى ما، مرآة الحاضر والمستقبل.

ثم ألم نبلغ بعد مرحلة النضج، لكي نتحدث عن ماضينا.. دون تلعثم؟

الهوامش

1 سنستخدم كامة 'الطليان' لأن وقعها وتداعياتها في الذاكرة الليبية أقرب الى الحقيقة التاريخية.
2 انظر دراستنا: " من بطولات المواجهة . . . الى النصر المفقود، عن بعض استجابات الليبيين للإحتلال الإيطالي وحتى معركة القرضابية ".
3 حول دور السيد احمد الشريف في الجهاد، وملابسات إبعاده، أحيل القارئ الى الدراسة السابقة عن السنين الأولى لمقاومة الغزو الايطالي: "من بطولة المواجهة الى النصر المفقود".
4 أسند أحمد الشريف بصفته نائب السلطان، الاشراف على بقية مناطق ليبيا الى: محمد الرضا على الجبل الأخضر / صفي الدين على طرابلس / محمد العابد على فزان / على الخطابي للواحات حتى الكفرة.
5 كتاب العلاقات العربية الايطالية من 1902 الى 1930، من مذكرات انريكو انسباتو، إعداد بورشيناري، ترجمة عمر الباروني، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين، 1980. وللأسف فإن مادة الكتاب على درجة غريبة من التشويش.
6 نصوص الاتفاقيات بين ادريس وايطاليا على ص 268 - 283 من كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوي.
7 انسباتو، ص 283
8 وثيقة رقم FO 371 / 3305، بمكتب الوثائق القومية، لندن، بعنوان "بعثة الى السيد محمد ادريس" مؤشرة "سري" مؤرخة القاهرة 14 / 8 / 1918. من إعداد الرائد م. ماكدونالد والنقيب ل. رويال. وتحوى مقدمة، وملاحق. وامتدت زيارة هذين الضابطين التي بدأت من السلوم وانتهت اليها، من 1918/7/17 الى 1918/8/8. والتقيا عدة مرات بالسيد ادريس بين 25 يوليو و 4 أغسطس.
9 انسباتو ص 283-284.
10 جهاد الأبطال، ص 302
11 جهاد الأبطال، ص 243
12 جهاد الأبطال، ص 248 - 249
13 جهاد الأبطال/ ص 296- 300.
14 شقيق أنور باشا الذي شارك في مقاومة الطلائع الأولى للإحتلال، وقاد ضباط منظمة تشكيلاتي الفدائية الذين دخلوا برقة سنة 1911، وأصبح فيما بعد وزيرا للحربية التركية.
15 جهاد الأبطال، ص 301
16 هاجر الى مصر سنة 1924، وتوفى بها سنة 1930.
17 ص 232 - 233 من جهاد الأبطال.
18 جهاد الأبطال، ص 250 - 251
19 ثمة دراسة طريفة تتبع منهج التفصيص المجهري الذي يشغف به الأكاديميون، حول من اقترح تأسيس الجمهورية، وهل هو عبد الرحمن عزام كما زعم هو والبعض، ويبدو ان أقدم ذكر للفكرة، جاء على لسان الشيخ فرحات الزاوي. والدراسة بعنوان "الجمهورية الطرابلسية" للأستاذ عمرو سعيد يغني، مجلة الشهيد، ، ص 36 - 58.
20 أسماء أعضاء مجلس الشورى، ص 324 - 325 من كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوي.
21 النص الكامل للقانون الأساسي، ص 360 - 370 من كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوي.

22 ص 372 من كتاب جهاد الأبطال للزاوى.
23 ص 163- 164، كتاب بن عسكر، للقشاط.
24 من مقالة نشرت فى صحيفة اللواء الطرابلسى لسان حال هيئة الاصلاح الوطنى، تحت عنوان " حركات لا تنطبق على الدستور الطرابلسى ولن يرضاها، بقلم صاحب السعادة سليمان بك البارونى". والمقال طويل محشو بالمماحكات اللغوية، وجلى ان البارونى ينطلق من احساسه بالمرارة، والشكوك المتنامية بينه وبين الزعماء الوطنيين آنذاك. ويشير الى ذلك الشيخ عثمان القيزانى فى مقال رد لاحق قائلا: "ومن العجيب ايضا أنه (البارونى) فارق حكومة الجمهور ليتهمهم بأسور كان شريكا لهم فيها..". انظر كتاب بن عسكر للقشاط، ص 141 - 145 .
25 ص 408 - 410، كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوى. لكن حب الزاوى للسويحلى وكرهه لعبد النبى بلخير، جعله للأسف يتقاعس عن اعطاء كل طرف حقه فى صدام الرجلين، كذلك كانت كراهية الشيخ للسنوسية وراء كثير من أحكامه الجائرة وسوء فهمه لما كان يحدث فى برقة آنذاك.
26 انظر أسماء أصحاب المبادرة المجتمعين فى العزيزية، وأسماء أعضاء وفد الاصلاح، ص 419، من كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوى. كما توفر مذكرات عون سوف (ابن المجاهد الشيخ محمد سوف) بعض تفاصيل هذه الفترة، وان بشكل مشوش وأحكام لا تخلو من الجور، والمذكرات من إعداد د. محمد القشاط، منشورات دار الملتقى، بيروت، 1998.
27 و قد خضع الكثيرون الى العدو. بعضهم، وهم قلّة قليلة، لرؤية واقعية ، وبعضهم لم يجد أى خيار أفضل، فغلبوا على أمرهم. لكن أغلب من تعاونوا أو خدموا الطليان فى المجال العسكرى، انما فعلوا ذلك إما طلبا للحماية أو المال والجاه أو للنكاية بجيرانهم أو الانتقام من أبناء عمومتهم، ومنهم من ذهب الى ما هو أحط، الا وهو الاستعداد لإرتكاب شناعات ضد أبرياء لا ثأر بينه وبينهم، ولا حتى يعرفهم .. فقط من باب الارتزاق المحض.
28 هجم السويحلى بقوة ضخمة على بنى وليد، وربما كان قد حصل على سلاح وعتاد من مصادر ايطالية، انظر تفاصيل المعركة، وأخطاء السويحلى، وشهادة أحد ضباطه محمد شرف الدين الريانى (خريج الكلية العسكرية بالأستانة)، الصفحات 125 - 148 فى كتاب 'عبد النبى بلخير، داهية السياسة وفارس الجهاد'، تأليف محمد المرزوقى، الدار العربية للكتاب، تونس، 1978، وكذلك كتاب جهاد الأبطال للشيخ الطاهر الزاوى، ص 397 - 403.
29 لم يحضر الاحتفال بصلح بنيادم كل من عبد النبى بلخير، وخليفة بن عسكر، والشيخ سوف المحمودى وآل سيف النصر زعماء القبلـه (سرت، الجفره، فزان). وكان لكل واحد أسبابه فى التغيب. وبعد توقيع الصلح أرسلت وفود للمصالحة بين رمضان وعبد النبى، وتم الاتفاق فى إحداها على لقاء فى ترهونة، وجاء عبد النبى ولم يحضر رمضان. وكان هناك خصوم للرجلين داخل عشائرهما، يشجعون الطرف الآخر.
30 ص 164، كتاب عبد النبى بلخير، تأليف المرزوقى.
31 خليفة الدعيك المشهور بالزاوى أحد الشخصيات الغريبة التى تجسد ما فعلت الأحداث والتاريخ بالأشخاص فى تلك الفترة، فقد كان ضابطا نظاميا تخرج من الكلية العسكرية فى تركيا، ثم عينته الجمهورية حاكما على فزان، حيث ساهم فى تصفية فرحات الزاوى ربما أساسا لطمع وأحقاد شخصية، وانتهى (سنة 1926) الى خدمة الطليان، وشارك فى إعادة احتلال فزان سنة 1930 . انظر المرزوقى ص 180-187، و الطاهر الزاوى ص 510 وما بعدها.
32 كتاب المرزوقى، ص 213
33 ص 171، كتاب "خليفة بن عسكر"، تأليف محمد سعيد القشاط، المنشأة الشعبية للنشر، 1980. وهذا الكتاب غنى بالروايات الشفوية والوثائق، لكنه مشوش نتيجة اضطراب السرد، والأحكام العاطفية والقطعيه، وأخيرا بسبب التحامل المتكرر على البارونى وبلغة إدانية تجعل موقف المؤلف من البارونى أشبه بهاجس وسواس قهرى ! وعلى أى حال يجب على قارئ الكتاب ان يراجع عرض الأستاذ مصطفى هويدى المنشور فى مجلة الشهيد، عدد 4، سنة 1983، 267 - 277، ففى تلك الدراسة تصحيحات هامة لكثير من التواريخ والوقائع.
34 ص 296 من كتاب جهاد الأبطال. انظر تفاصيل أخرى عن حروب البربر والزنتان والرجبان فى نفس الكتاب ص 381 و404 -417 و 419-421.
35 جهاد الأبطال، ص 424.
36 "انظر الرسالة فى كتاب صفحات خالدة من الجهاد"، وهو مذكرات البارونى، إعداد ابنته زعيمة البارونى. والخطاب مرسل من كل من يوسف خربيش (او خربيشة) المجاهد سابقا والمتطلين بشراسه، وسالم بن الحاج، وموسى قراده. ويعزى انحياز خربيشه الى الطليان الى ما كان

بين 'البربر و العرب' من صراعات، وقد خدم السلطة الإيطالية سياسيا وعسكريا، وأظهر تشفيا مفرطا لا يغتفر، إزاء أبناء وطنه. وكان ان أنعمت عليه السلطة الايطالية بلقب 'غران كوردوني' واختير لتقديم 'سيف حماية الاسلام' باسم الليبيين الى موسوليني عندما زار طرابلس، وقد رثاه قاد السلطة الايطالية. انظر أيضا نعيه المفصل فى مجلة ليبيا المصورة.

37 ص 414 كتاب جهاد الأبطال،

38 أسماء الحاضرين، ص 422 من كتاب جهاد الأبطال.

39 ص 424 كتاب جهاد الأبطال.

40 ص 422 - 423 كتاب جهاد الأبطال.

41 أسماء أعضاء الوفد ص 425 كتاب جهاد الأبطال،

42 يقدم الشيخ الزاوى دفاعات واهية غير مقنعة عن هذا التصور فى جهاد الأبطال، انظر مثلا ص429 و ص 431 ، وص 445.

43 ص 57 من كتاب 'الفوائد الجلية' (سيرة السيد أحمد الشريف) للشيخ عبد المالك بن على.

44 أسماء الحاضرين والقرارات، ص 430 - 433، كتاب جهاد الأبطال.

45 ص 440 - 443، كتاب جهاد الأبطال.

46 تفاصيل المبايعة: ص 452 - 461، كتاب جهاد الأبطال.

47 عن رواية شفهية مباشرة : سافر الأمير ادريس إثر رسالة تحذير جاءته من عمر منصور باشا الكيخيا، حملها اليه سائق الأخير المدعو إشقيفه، والذى رافقه أحد أصدقائه من السائقين القلائل آنذاك، واسمه عبدالله بريْبش

48 بعد صدور القانون الأساسى، فى سنة 1919، تم تأسيس مركز اتصال وحامية صغيرة بمصراته، لكنها سرعان ما سحبت تحت تهديد السويحلى.

49 انظر تفاصيل هذه الحقبة من الاحتلال الايطالى فى كتاب "بعد القرضابية" للأستاذ خليفة التليسى، دار الثقافة، 1973.

50 انظر تفاصيل حرب الاستعادة هذه، فى كتاب 'بعد القرضابية: طرابلس الغرب 1922 – 1930' للأستاذ خليفة التليسى، منشورات دار الثقافة، 1973.

51 'الإخوان' هم المعلمون والفقهاء، وعادة ممن شاركوا فىتأسيس الطريقة، لكنهم وان صاهروا الأسرة السنوسية لم يكونوا من ذرية محمد بن على السنوسى، ومعظمهم منحدرون من أصول مغربية أو جزائرية.



نحو حوار حقيقي بين الأديان(*)

د. محمد عبد المطلب الهوني

إن تضييق الهوة بين المسلمين من جهة وبينهم وبين الآخرين من جهة أخرى هو من أجل العيش المشترك، ومن أجل إمكان التعايش البشري في عالم يكون أكثر أمناً أو أقل خطراً .على الأقل هذا الهدف النبيل قد يكون اليوم موغلاً في المثالية في العالم الإسلامي، يعود ذلك إلى أن الأفكار الرائجةَ اليوم في هذا العالم أو في جزء كبير منه، لا تلتفت إلى هذا المطلب الإنساني لأنه يتعارض مع واقع اختطاف الإسلام واستعماله في تجييش الجماهير من أجل النضال الديني السياسي وواقع توظيف المقولات المقدسة وقلب الشعائر إلى شعارات نضالية، هذه هي سمة المجتمعات الإسلامية وأغلب الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين فيها.

وإذا أردنا أن نتعرف على عمق الهوة التي تفصل بين المؤمنين بديانات مختلفة من الجانب الإسلامي فإننا نلحظ أن المسلمين اليوم لا يعترف بعضهم ببعض، فهم يسمون الأديان الإسلامية مذاهب بالرغم من وجود ديانات إسلامية كبرى مثل السنة والديانة الشيعية والديانة الخارجية على سبيل المثال.

وكل هذه الأديان الإسلامية تحتوي على مذاهب متعددة فعدم الاعتراف بوجود أديان سماوية متعددة هو نوع من إنكار الواقع والوقوع في فخ الاختزال المهيمن الذي يفضي إلى مزيد من الإقصاء المتبادل، ويقف حجر عثرة أمام الاعتراف بالآخر المختلف داخل الأسرة الدينية الكبرى.

(*) ورقة مشاركة في مهرجان أصيلة المغرب/ أغسطس 2005 في ندوة "حوار الأديان".

إن أساس التآخي بين الديانات يبدأ من الاعتراف المتبادل بين الأديان التي تنتمي إلى نفس العائلة الدينية، ومن هنا يمكن الانطلاق إلى تسامح أرحب يشمل التسامح مع الأديان الأخرى.

فالمطلع على فقه وأدبيات الديانتين السنية والشيعية، يكتشف دون عناء العداء والإقصاء والتكفير المتباحل منذ قرون مضت إلى يومنا هذا، من الكليني إلى الخميني، ومن ابن تيمية إلى بن باز، فالسنة تطلق على الشيعة صفة "الروافض" وتكفرهم.. والشيعة تطلق على أهل السنة صفة "النواصب" وتكفرهم، وقد وصل الأمر بهذه الديانات الإسلامية إلى عداء قد يكون في بعض مظاهره أشد من العداء للديانات الأخرى، فالشيعة والسنة مثلاً يأكلون ذبائح أهل الكتاب ولا يأكل بعضهم ذبائح بعض، ويتزوج ذكورهم من أتباع الديانات الأخرى ولا يجيزون الزواج فيما بينهم، ولا يصلي أحدهم وراء الآخر.. فعن أية ديانة واحدة، وعن أي تسامح يتحدثون؟

السؤال الملح اليوم هو: كيف يمكن للديانات الإسلامية أن تتهادن وأن تتحاور وتتصالح مع نفسها قبل أن تتجه إلى الأسر الدينية الأخرى، من أجل الهدف نفسه؟

إذا ألقينا نظرة فاحصة على التاريخ الإسلامي، تبين لنا أن نشوء هذه الديانات في الإسلام كان نتيجة الصراعات السياسية الدامية، ونتيجة محاولة كل فئة الهيمنة على الأخرى باستعمال العنف المبرر بمقولات دينية تم تأويلها تأويلاً فقهياً لخدمة السياسية. وقد تراكم هذا الفقه بتراكم العداء، حتى أصبحت للفرق والنحل كل مقومات الديانة التامة.

ونحن نرى ان المصالحة لن تكون إلا بإخراج الديانات من المعترك السياسي والكف عن استعمال طريق النجاة الأخروي وربطه بفكرة الاعتناق السياسي الدنيوي. في هذه الحالة فقط يمكن أن تكون لفكرة الحوار بين الأديان معنى، غير أن هذا الحوار وهذه المصالحة لا تعنيان جب دين لآخر بل اعتراف كل طرف بعقائد الآخر واحترامه إياها.

فأول امتحان لنا كمسلمين بالمعنى الواسع والمتعدد لهذه الكلمة هو أن نتصالح مع أنفسنا وأن نتبادل الاعتراف بتغايرنا، قبل أن نلج باب الحوار مع الأديان الأخرى، لا كما فعلت إلى حد ما الكاثوليكية في المجتمع الكنسي الثاني، فهي تتحاور مع الديانة الإسلامية وترفض الحوار مع الديانة البروتاستنتية.

أما التقارب بين الديانات الإسلامية وما عداها من الديانات الأخرى، فهو هدف يبدو بعيد المنال في الوقت الحاضر.

بادئ ذي بدء يجب على رجال الدين والقائمين علي شؤون المقدس أن يكفوا عن عقد المؤتمرات وإجراء الحوارات التي تفوح منها رائحة النفاق والرياء.

فكثير من الشيوخ المسلمين يذهبون كل يوم إلى هذه اللقاءات ويخرجون من عمائمهم حمائم السلام والمحبة، بتوظيف أجمل ما في القرآن من آيات التسامح، ثم ينقلبون إلى بلدانهم ويخرجون من نفس العمائم صقوراً جارحة بتأويل آيات أخرجوها من سياقها التاريخي المخصوص وأطلقوها لتلتهم حمائم مؤتمرات التسامح.

إنهم يقتلون آيات التسامح بآيات السيف نسخاُ، وهذه المسرحية الهزلية يجب أن تتوقف وعلى السيزيف الإسلاموي أن يتدحرج مع صرخته العبثية إلى الجحيم وإلى الأبد.

إذا أراد الدعاة والفقهاء والوعاظ الحوار حقاً، فعليهم أن يكونوا صادقين مع أنفسهم وأن يرسوا في أوطانهم آيات التسامح وذيوعها بين الناس، وأن ينتقدوا فقه العصر الوسيط ويموضعوه ضمن شرطه التاريخي، وأن يزيلوا القداسة عن آراء الفقهاء ويشجعوا البحث المعتمد على كافة الوسائل المعرفية التي لم تكن متاحة في عصرِ القدامة، وإنما هي ثمرة التراكم المعرفي الحديث.

إننِي انطلاقاً مما سبق، أقترح على شيوخ الإسلام وفقهائه والمشتغلين بعلومه برنامجاً غير مكتمل، أطرحه للنقاش من أجل أن يتبلور ويتضح:

1- مراجعة الفقه القديم وإعادة النظر في احتكار طريق النجاة فالمسلمون في مماحكاتهم مع الأديان الأخرى يقولون إنهم وحدهم على طريق الخلاص، ثم تنحسر هذه الطريق فيما بينهم، فتقتصر على ما يسمونه الفرقة الناجية، وهي فرقة واحدة وما عداها ففرق ونحل وديانات سائرة على طريق الضلال.

فالفقهاء يعتبرون الأديان التوحيدية الأخرى شرائع تم نسخها بالشريعة الإسلامية، ويعتبرون الديانة الإسلامية وحدها جديرة بالاتباع لأنها الديانة التي آمن بها كل الرسل منذ إبراهيم.

وهذا الأمر يذكرنا بالمقولات المسيحية القديمة التي كانت ترى أن لا خلاصاً خارج الكنيسة، فكيف يمكن للمؤمن الذي يعتقد هذا الاعتقاد ويعتبره من صلب إيمانه أن يعترف بالآخر والحال أنه لا يعترف بالآخر، إلا إذا آمن بما يؤمن؟ أي حوار بين الأديان يمكن أن يعطي ثماره دون إعادة النظر في هذه القضية بدل التغاضي عنها؟

2- في كل هذا العالم المعولم كيف يمكن أن نكرس فقه تقسيم العالم إلى دار الكفر ودار السلام، دار الحرب ودار الإسلام؟ أن هذا التقسيم الذي لا يزال يدرس في معظم البلدان ولا يزال الدعاة والوعاظ يرددونه على مسامع الأجيال الصاعدة وعلى الأخص أولئك الذين يعشون في المهجر، سوف يخلف أجيالاً من المسلمين تنظر إلى الآخر نظرة عدائية وتعتبره هدفاً للتدمير في أول فرصة سانحة، كما أنها تخلف اغتراباً للشباب المسلم المهاجر في الدول الغربية وتضع بهذا الفقه عوائق حقيقية تحول دون اندماج هؤلاء المهاجرين وأبنائهم داخل تلك المجتمعات.

ولذلك وجب على الفقهاء الخروج من شرنقة الفقه التقليدي ووجب عليهم أن يعترفوا بالمواطنة ويفرقوا بينها وبين مسألة الهوية الدينية، باعتبار الإسلام ديناً لا وطناً ووجب عليهم أن يجعلوا المواطنة هي الأساس في التعامل مع المجتمع بحيث تبقى الهوية مسألة فردية لا يكون التمسك بها عائقاً في سبيل الاندماج في الأوطان الجديدة.

3- إن اعتراف المؤمن بالديانات الأخرى لا يجب حصره فيما يسمى بالديانات التوحيدية، وإنما يجب تعميمه على كل الديانات القائمة في العالم.

والملاحظ أن الديانة الكاثوليكية، بالرغم من اعترافها بالأديان التوحيدية في المجتمع الكنسي الثاني.فإنها لم تكمل الطريق حتى الآن، ولم تعترف بكل الأديان الأخرى كالهندوسية والبوذية.

4- يجب التركيز على تربية النشء في المدارس والمعاهد ووسائل الإعلام، بحيث تحذف من مناهج التعليم كل المقولات الفقهية التي تحض على عدم التسامح وعلى الكراهية، ويجب الاتجاه إلى تاريخ الأديان المقارن الذي يعلم النشء نسبية الظواهر الدينية، حتى ينشأ جيل من المسلمين ينظر إلى العالم نظرة واقعية فلا يعادي البشر من أجل معتقداتهم وإنما يعادي ويصادق ويتحالف حسب المعطيات الموضوعية والسياسات الواقعية، وحسب مبادئ حقوق الإنسان وما تنص عليه المواثيق الدولية.

5- يجب التخلي عن الخوض في المناقشات السجالية بين الأديان لإثبات صحة هذا الدين أو بطلان ذلك الدين فهذه المساجلات ولت مع العصور الغابرة، وأن إطلالها الآن لا يعني غير أمراً واحداً هو شعور المساجل في بلداننا بالدونية في المجالات العلمية والتقنية وقيامه بعملية إسقاط تعويضي وكأن لسان حاله هو:"بالرغم من تخلفي العلمي والتقني، فإنني أمتلك الدين الحق والأخلاق الأفضل". هذا الإسقاط التعويضي يزيد من

بؤس هذه المجتمعات، فيجعلها تتكفئ على عبادة الأسلاف وعلى تقاليد الموتى، وتنغمس في الحنين إلى أزمنة العصر الذهبي المتخيلة في محاولة عبثية لإرجاع الأنهار إلى منابعها وللاستمرار في رحلة التيه القاتلة، بدلاً من الاعتراف بالواقع المتخلف والأخذ بأسباب التقدم.

6- هل يمكن للمفكرين والفقهاء الإسلاميين أن يقودوا حملة تنوير حقيقية بتبني العلمانية في مجتمعاتهم، حتى يساعدوا على تخليص الإسلام من الأسر والاختطاف من قبل الإسلاميين الذين أقحموا الإسلام في الصراعات السياسية، وارتكبوا باسمه الفظائع من أجل الوصول إلى السلطة؟

إن العلمانية هي وحدها التي تضمن لأي مؤمن ممارسة عقيدته بحرية وفي كل رقعة من الأرض، وهي البوتقة الحقيقية التي يمكن لكافة الأديان أن تتعايشِ في إطارها.

إن العلمانية قد شوّهدت في العالم الإسلامي، وذلك بتصويرها وكأنها دين جديد يلغي الأديان، أو أنها عقيدة ترمي إلى نشر الإلحاد، وبالتغاضي عن كونها تعني بالأساس فصل الدين عن السياسة. إن تبني العلمانية هو طريق الخلاص للمسلمين، سواء كان ذلك في أوطانهم أو في مهاجرهم وأوطانهم الجديدة.

كيف يمكن لمجتمعات مثل المجتمع المصري أو العراقي أو اللبناني أن تتصالح وتنعم بالعيش المشترك وتحقق الديمقراطية بدون تكريس العلمانية، بحيث يكون الدين للفرد والوطن للجميع؟ وكيف يمكن للمسلمين الذين أخذت أعدادهم تتزايد في دول الغرب بفعل الهجرة، أن يتعايشوا مع تلك الشعوب ويتحولوا إلى مواطنين أسوياء دون تقبل العلمانية؟

هذه هي التحديات الحقيقية التي يجب أن نجيب على أسئلتها الملحة، وعلى كل دين أن يبدأ حركة نقدية في داخله، بحيث لا يكون هدف المؤمن إخضاع الآخر ليعتنق نظرته إلى الكون والحياة، بل يكون العيش في سلام مع إخوته من البشر.

على هذا النحو يمكن تضييق الهوة، بين الديانات الإسلامية، وبين الديانات الإسلامية وغيرها من الديانات.

منارة المعرفة

إن تاريخ الجامعة الليبيه هو تاريخ المنهجيه والبحث العلمي والحداثة الفكرية والثقافية في بلادنا، هو تاريخ الفكر العقلاني والتاريخ المؤسسي لآلاف من خريجي هذه المؤسسة العريقة، ينتشرون اليوم في مختلف أطر مؤسسات ومنظمات وهيئات الحياة الليبية، هم نخبتها، يفكرون ويخططون وينفذون في مختلف أشكال الحياة .

سنة 1956 وهي السنة الدراسية الأولى للجامعة لم يكن في ليبيا حديثة الاستقلال إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من خريجي المؤسسات الأكاديمية (الجامعية) ولم تمض عشر سنوات من تاريخ الجامعة إلا وبدأ المئات من الشباب الليبي المتخرج في الجامعة الليبية يحتل مكانته في المجتمع والحياة.







ونحن حين اخترنا في (عراجين) أن نخصص ملف هذا العدد للاحتفاء بالذكرى الخمسينية لتأسيس الجامعة الليبية، فإننا نهدف إلى الاحتفاء بالفكر، بالمنهج وبالرؤية الموضوعية، وكما نقل د. إدوارد سعيد عن الكاردينال جون نيومان – مؤسس واحدة من أعرق الجامعات في العالم وهي جامعة "دبلن"– في تعريفه للجامعة وأهدافها فإن:

"للجامعة هدفا ورسالة، فهي لا تسعى للتأثير المعنوي ولا للإنتاج الآلي، وهي لا تدعى تدريب العقل على التقنية ولا على الواجب، إنما وظيفتها هي التثقيف الفكري، وعند هذا الحد يمكن لها أن تترك طلابها، فعندما تنجز التثقيف الفكري تكون قد أتمت عملها، فهي تعلم العقل التفكير السليم في كل الأمور، والسعي إلى الحقيقة والوصول إليها".

ذلك هو الهدف الأسمى الذي أسست من أجله الجامعات ..... فما الذي بقي منه الآن ؟؟ ذلك موضوع آخر، يحتاج إلى ملفات جديدة وشائكة ؟؟

وملف عددنا يقدم لمحة بسيطة وموجزة عن طموح أكبر وأشمل كنا نرجوه.. ولكن ظروفا عديدة حالت دون أن نقدم ما كنا نطمح إليه .. فشكراً لكل من وعدنا ولم يف بوعده.. وشكرا لمن وفى بوعده... والموضوع أولا وأخيراً هو انشغال بقضايا الوطن والحرص على التعريف بتجاربه ونقلها إلى أجيال واعدة بالعطاء .

وعبر هذا الملف المتواضع نقدم تحية تقدير لكل من مر على منارة المعرفة (الجامعة الليبية) وتزود من منهل علمها وأسهم في بناء مجتمعه بالفعل والكلمة والقول والعمل.

عراجين



نصف قرن من التعليم الجامعي المحلي: ملاحظات وخواطر

د. مصطفى عمر التير

أولاً: المقدمة

تعرضت ليبيا كبقية أجزاء أفريقيا للاستعمار الغربي الذي بغض النظر عن التبريرات التي ذكرت عند استعمار كل قطر كان التهجير والتشريد وانتشار الجهل وزيادة الفقر أهم النتائج التي رصدت على مستوى السكان المحليين. وهكذا كان حال الليبيين عشية اندحار جيوش إيطاليا المنهزمة في الحرب التي اشتهرت بالحرب الكونية الثانية. عندما اضطر بعض الليبيين الى ترك بلادهم بعد انتهاء حقبة المقاومة المسلحة ذهبوا ليستقروا في البلاد الإفريقية والعربية المجاورة. بدأ هؤلاء طريق العودة الى أرض الوطن بعد انتهاء حقبة الاستعمار الإيطالي. تبين أن الغالبية العظمى من العائدين كانوا فقراء، ولم يحصل على تعليم، ولم يحصل على خبرة فنية. مجموعة صغيرة كانت ظروفها المالية متوسطة وأغلب هؤلاء كان من الذين اشتغل بالتجارة. وبعبارة أخرى نسبة جد صغيرة من أبناء الليبيين المهاجرين الذين عادوا فور اندحار جيوش إيطاليا حصلت على بعض التعليم. لذلك عندما أعلنت الأمم المتحدة استقلال ليبيا في أواخر عام 1951 لم يتواجد في هذا البلد سوى 14 ليبيا يحمل شهادة جامعية، ولم يزد عدد من حصل على أي مستوى من التعليم عن 5000 شخص (بعيو، 1966: 10).

التعليم الذي كان سائداً قبل مطلع القرن العشرين هو التعليم الديني والذي كان محدوداً من حيث الإنتشار ومن حيث المستوى. وقد عمل هذا النوع من التعليم بالمحافظة على الثوابت التي عرفها هذا المجتمع خلال عصور كثيرة. لكن التعليم الذي يمكن وصفه بالتعليم الحديث عرفه الليبيون خلال الجزء الأخير من فترة الحكم العثماني الثاني. اقتصر هذا التعليم على عدد محدود من المدارس التي بنيت في مدينة طرابلس وبنغازي وبعض المراكز الرئيسة. لكن إيطاليا عملت على بناء مدارس للتعليم الإبتدائي في المدن وفي المراكز وحتى في القرى، بينما اقتصر التعليم فوق الإبتدائي على مدرسة واحدة في مدينة طرابلس عرفت بالمدرسة الإسلامية العليا. وقد التحق بعض من تخرج منها بالأزهر في مصر.

لم تسمح إيطاليا لأبناء الليبيين بالانتساب الى المدارس الإيطالية الثانوية باستثناء عدد صغير من أبناء بعض الأسر التي يتولى رئيسها وظيفة حكومية. وعموما وكما توضح أرقام الجدول رقم (1) فإن أعداد الطلبة الليبيين حتى في المرحلة الابتدائية كان بسيطاً. يرجع هذا في جزء منه لأن بعض أولياء الأمور لم يقتنعوا بفائدة التعليم الذي كان سائداً أثناء فترة الإستعمار الإيطالي. ونظروف الحياة الصعبة حيث يتطلب الأمر تعاون الجميع بمن فيهم الأطفال لتتمكن الأسرة من توفير حياة الكفاف لأعضائها. لكن يلاحظ أن أعداد الطلاب بدأت تتزايد بمعدلات عالية نسبياً فور انسحاب إيطاليا.

توقفت الدراسة في المدارس عندما بدأت الحرب العالمية الثانية، وأعيد فتحها بعد انتهاء الحرب في العام الدراسي 1943 / 1944. كانت البداية جد متواضعة، لكن التقدم كان سريعا حيث أخذت الأعداد تتضاعف بسرعة مما قاد الى إنشاء المؤسسات التعليمية فوق المرحلة الإبتدائية.

بدأ التعليم بالمرحلة الثانوية بالمعنى الحديث خلال فترة الإدارة العسكرية. كانت البداية بفصل دراسي واحد، ثم بفصلين وهكذا وجدت في النصف الأخير من الأربعينيات أربع مدارس ثانوية، أو مدارس بها فصول للمرحلة الثانوية في كل من درنه وبنغازي وطرابلس والزاويه. انتسب لهذه المدارس الطلبة الذين كانوا عندما بدأت الحرب في نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية حيث كانت السنة الخامسة هي نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية. ثم فتحت ثانوية بنات في بنغازي، وبهذه المدارس الخمس دخلت البلاد الى النصف الثاني من القرن العشرين، ولتصل بعد نصف قرن الى 1585 مدرسة ثانوية (التقرير الوطني الأول لأهداف الألفية، 2004: 9).

ولكن منذ الأيام الأولى لبناء الدولة الحديثة كان للتعليم مكان خاص. فقد تضمن الدستور الذي نشر في 8 / 10 / 1951 ثلاث مواد كانت هي الأساس التي انطلق منها فيما بعد أول قانون للتعليم والمعروف بالقانون رقم 5 لعام 1952. وكانت هذه المواد:

المادة 28: التعليم حق لكل ليبي، وتعمل الدولة على نشره بما تنشئه من المدارس الرسمية،

وبما تسمح بإنشائه تحت رقابتها من المدارس الخاصة لليبيين وللإجانب.

المادة 29: التعليم حر، ما لم يخل بالنظام، أو ينافي الآداب، ويكون تنظيم التعليم العام بالقانون.

المادة 30: التعليم الأولي إلزامي لليبيين بنين وبنات، والتعليم الأولي والإبتدائي مجاني في المدارس الرسمية.

صدر أول تعديل لقانون التعليم في 25 / 10 / 1965 والذي أطلق عليه قانون التعليم لعام 1965 وتضمن تفصيلات تطلبتها طبيعة التقدم الذي حقق في هذا المجال. وتضمن الإعلان الدستوري للثورة تأكيداً على حق الجميع في التعليم وأن يكون بالمجان. ثم فصل هذا في قانون عرف بقانون التربية رقم 34 لسنة 1970 وصدر بتاريخ 29 / 10ـ1970. ونص فيه صراحة على أن إلزامية التعليم تشمل المرحلتين الإبتدائية والإعدادية، وعلى أن تستمر الدولة في تحمل جميع المصاريف لجميع أنواع ومستويات التعليم. ثم ظهر تعديل آخر عرف بقانون التعليم للعام 1975 الذي صدر في 9/ 10 / 1975. ومع أن تعديلات أخرى ظهرت فيما بعد إلا أن هذه القوانين المشار اليها آنفاً هي التي أرست قواعد التعليم في البلاد بما في ذلك مسؤولية الدولة في هذا الشأن.

ثانياً: التعليم الجامعي المحلي: التاريخ والنمو

ومع أن إمكانات البلاد الاقتصادية قبل اكتشاف النفط وتصديره كانت جد متواضعة، إلا أن إقبال الليبيين على التعليم أدى الى تسارع نموه عدداً ومستوى ومجالات. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت المدرسة بمستوياتها المختلفة وأنواعها موجودة في وسط كل تجمع سكاني. لقد اعتمد التعليم الثانوي في بدايته على المنهج المصري، وعلى المدرس القادم من مصر، وعلى الكتاب المستورد من مصر، وعلى القانون المستمد من القانون المصري. ولكن لم ينقض وقت طويل حتى أصبح هذا النظام يأخذ شكلا مستقلا. وهكذا صدرت

أول لائحة تنظم التعليم ما فوق الابتدائي والذي قسم الى إعدادي وثانوي في 1956/12/5، وبناء على هذه اللائحة أصبح التعليم الثانوي الليبي مستقلا عن التعليم الثانوي المصري. إلا أن غالبية مدرسي هذه المرحلة ظلوا ولفترة طويلة من غير الليبيين.

ثم كان افتتاح الجامعة الليبية محطة متوقعة في مسيرة التعليم حيث صدر أول قانون شرع لإنشاء التعليم الجامعي محلياً في 15 / 2 / 1955. وعندما بدأ التعليم الجامعي الليبي كان هذا سادس قطر عربي به تعليم جامعي وطني حديث، وكان ترتيب الجامعة الليبية السادسة بين الجامعات العربية الوطنية الحديثة. يعني هذا استثناء ما كان يعرف بالجامعات الدينية وكانت في ذلك التاريخ عبارة عن ثلاث جامعات هي الزيتونة في تونس التي أنشئت في العام 732، وجامعة القرويين في مدينة فاس التي ترجع الى العام 859، وجامعة الأزهر في مدينة القاهرة التي ظهرت الى الوجود في العام 972. وتستثنى أيضاً الجامعات الأجنبية التي أنشئت في تاريخ سابق لإنشاء الجامعات الوطنية. وكانت عندئذ أربع جامعات هي الجامعة الأمريكية في مدينة بيروت التي أنشئت في العام 1866، واليسوعية في بيروت وأنشئت في عام 1871، والجامعة الفرنسية بمدينة الجزائر التي أنشئت في عام 1879، ثم الجامعة الأمريكية في مدينة القاهرة التي أنشئت في عام 1919. ذكرنا أن الجامعة الليبية عندما أنشئت كانت السادسة بين الجامعات العربية الوطنية، حيث لم تسبقها سوى الجامعة السورية في دمشق التي يرجع تاريخها الى العام 1923، أما جامعة القاهرة فإنها أنشئت أول الأمر كجامعة أهلية سنة 1902 ثم أصبت حكومية في عام 1925، وأخذت عندئذ اسم جامعة فؤاد الأول، وجامعة الإسكندرية التي أنشئت في عام 1942، وجامعة عين شمس التي يرجع تاريخ إنشائها الى العام 1950، وجامعة بغداد التي يرجع تاريخ إنشائها الى العام 1953.

لقد سبق إنشاء الجامعة المحلية برنامج أرسل بموجبه عدد محدود من الطلاب لاستكمال تعليمهم الجامعي في الخارج وفى مصر على وجه الخصوص. ثم جاء افتتاح كلية الآداب والتربية نواة الجامعة الليبية في العام الدراسي 1956/1955 في مدينة بنغازي. وكانت البداية بثلاثة وثلاثين طالباً جميعهم من الذكور. وقبل التحاق هؤلاء بكلية الآداب والتربية كان بعضهم قد حصل على شهادة الثقافة. يدخل لامتحان هذه الشهادة طلبة السنة الرابعة ثانوي، ويمتحنون مع طلبة مصر وتحت إشراف لجنة مصرية تأتي من القاهرة. ونفس الشيء يتكرر في السنة التالية لطلبة السنة الخامسة ثانوي حيث يأخذ هؤلاء نفس

الإمتحان مع طلبة مصر وتحت إشراف لجنة تأتي من مصر. وسميت تلك الشهادة بشهادة التوجيهية. في البداية بعثت مصر بلجنة امتحان واحدة مركزها ثانوية بنغازي، وكان على الطلبة في ثانوية طرابلس السفر الى بنغازي. ثم بعثت فيما بعد بلجنتين واحدة لمدينة بنغازي وأخرى لمدينة طرابلس. وكان آخر امتحان لشهادة التوجيهية التابعة لمصر الذي تم في نهاية العام الدراسي 1956. بعدئذ أدخلت مصر تعديلاً على لائحة التعليم الثانوي واستبدلت شهادة التوجيهية بشهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة. وابتداء من العام 1957 تولت إدارة الإمتحانات التابعة لوزارة التربية والتعليم تنظيم هذه الإمتحانات محليا بعد أن أخذت بنفس التعديلات في نظام التعليم المصري. وقد تم تنظيم امتحانات شهادة إتمام الدراسة الثانوية محلياً تحت إشراف أستاذ متخصص من مصر ومعار للعمل في ليبيا ضمن عدد من أساتذة المرحلة الثانوية ومستشارين وفنيين.

لم يكن الطلبة الذين بدأت بهم الجامعة الليبية أول طلبة ليبيين يحصلون على هاتين الشهادتين بل سبقهم إليها عدد من الطلاب الذين سمحت إمكانيات أسرهم بإرسالهم الى مصر. كما سبقهم أيضاً طلبة خمس مجموعات درست في الثانويات المحلية، وأُرسل الناجحون الى مصر لمواصلة التعليم الجامعي ضمن برنامج البعثات الدراسية للحكومة الليبية. وتجدر الإشارة الى أن فترة الخمسينيات وأوائل الستينيات شهدت برامج مساعدات عدد من الدول قدمت خلالها هذه الدول منحاً دراسية للمرحلة الجامعية ولمرحلة الدراسات العليا. وكانت الجهات الرسمية الليبية تختار أوائل الطلبة لترشيحهم لهذه البعثات.

ذكرنا أن كلية الآداب والتربية التي فتحت أبوابها في العام الدراسي 1956/1955 كانت نواة الجامعة الليبية. وفي العام الدراسي التالي ظهرت كلية العلوم في مدينة طرابلس، وكلية التجارة والإقتصاد في مدينة بنغازي، وقفز عدد الطلاب إلى 79 طالبا. ودخلت أول طالبة نظامية كلية الآداب والتربية في مطلع عامها الرابع. إلا أن الدفعة الثالثة لهذه الكلية عرفت طالبة واحدة وكانت منتسبة وتخرجت ضمن طلاب نفس الدفعة (جدول رقم 2). ثم توالى ظهور الكليات فكانت كلية الحقوق في عام 1962 في مدينة بنغازي ونواة كلية الهندسة في طرابلس تحت اسم كلية الدراسات الفنية العليا التي انضمت رسمياً للجامعة باسم كلية الهندسة في 19 / 9 / 1967. وفي نفس التاريخ انضمت للجامعة كلية المعلمين العليا التي كانت قد أنشئت في مدينة طرابلس ككلية مستقلة في عام 1965 وهي التي أصبحت تعرف فيما بعد بكلية التربية. كما فتحت كلية الزراعة أبوابها في مدينة طرابلس في عام 1967.

تعاقبت حركة إنشاء الكليات الجامعية في مدينتي بنغازي وطرابلس واستمر التعليم الجامعي في الداخل تنظمه وتقدمه جامعة واحده حتى جاء عام 1973 وهو العام الذي شهد بداية عهد تعدد الجامعات. المقصود هنا بالجامعات تلك التي تتبع نظام التعليم غير الديني؛ لأن البلاد كان بها جامعة دينية صدر مرسوم انشائها في الربع الأخير من عام 1961. أصبح للبلاد جامعتان ثم ثلاث جامعات ثم تكاثر العدد ليصل في عام 1996 إلى أربع عشرة جامعة. وهذا عدد كبير بالمقارنة بما هو موجود في البلدان المحيطة. فمع الفارق الهائل في حجم السكان فقد كان لمصر في تلك السنة أربع عشرة جامعة، وفى الجزائر اثنتي عشر جامعة، وفى تونس سبع جامعات، وفى السعودية سبع جامعات، وفى الكويت جامعة واحده.

تكاثرت أعداد الطلبة بسرعة هائلة. وتغيرت الظروف، وتبدلت التقاليد وخصوصا المتعلقة بتقييد حرية المرأة. انتهزت الفتيات الفرصة، وأقبلن على التعليم بنهم شديد، وبعد أن كانت نسبتهن من مجموع الطلاب لا تكاد تتجاوز 3% في العام الدراسي 1960 / 1961 نراها تصل إلى حوالي 9% في العام الدراسي 1965 / 1966، وإلى 11% في العام الدراسي 1970 / 1971، وإلى 18% في العام الدراسى1975 /1976، ثم نجدها قد تجاوزت مع مطلع العقد 40%، وأخيرا تجاوزت الخمسين في المائة، ودخلت الفتاة جميع التخصصات المعرفية (التعليم العالي في الجماهيرية العظمى، 2002: 3).

ساعدت سياسة التعليم التي تمثلت في جعل التعليم حقاً للجميع، وقواعد قبول الطلبة في الجامعة التي اعتمدت على المساواة بين الجنسين، وتوجيه جميع الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية إلى الكليات المختلفة على ضوء معدلات النجاح فقط، إلى الارتفاع السريع في معدلات الإناث في التعليم الجامعي. ويستخدم المطالبون بالمساواة بين الجنسين نسب وتوزيع الفتيات في الكليات الجامعية كأحد أهم إنجازات المرأة في المجتمعات الحديثة. إلا أن الدارس للجدوى الاقتصادية لمثل هذه الأرقام على ضوء حقائق الحياة الاجتماعية الليبية قد لا ينظر إليها كإنجاز موجب. فالإنجازات التي تحققت في مجال التعليم خلال النصف الثاني من هذا القرن لم يواكبها تغيرات في خصائص التركيب الاجتماعي، وفى خصائص الثقافة بحيث يمكن توظيف نجاح المرأة في التعليم وتحويلها إلى مكاسب اقتصادية. فجزء كبير من الإناث لا يوظفن تعليمهن بالشكل الأمثل والأفيد بالنسبة للمجتمع. ويكون العائد من تعليمهن لا يتناسب والمال والجهد المبذولين فيه. لاشك أن البعض يقول بأن التعليم في حد ذاته

قيمة، ومن المفيد اجتماعيا حصول المرأة على مستوى من التعليم تسمح به قدراتها العقلية طالما تستطيع أسرتها أو الدولة الصرف على هذا. ألا أن هنالك رأياً آخر يقول بأن ما يتوفر من تعليم في المجتمع له مستويات وله أنواع. وعلى الفرد الالتحاق بنوع ومستوى التعليم الذي سيجعل منه مواطناً صالحاً وينفعه في مجال نشاطه الاقتصادى. ولذلك فان المرأة مثلاً التي ستكتفي بأن تكون ربة بيت لا تحتاج ألا لكمية ومستوى التعليم الذي يؤهلها لهذه الوظيفة الاجتماعية تأهيلاً عصرياً. وتصبح كل زيادة في التعليم الرسمي هدرا للموارد المالية وللوقت.

من جهة أخرى استمر تزايد أعداد الكليات الجامعية التي تناثرت في مختلف المدن والقرى، كما فتح أخيرا المجال للجامعات الخاصة فتكاثرت خلال زمن قصير جدا بسرعة تشبه سرعة انتشار الخلايا السرطانية بحيث وصل عدد الجامعات في مطلع العام 2004 الى اثنتين وأربعين جامعة كما تبينه أرقام الجدولين (2 و 3). وتوضح البيانات أن حوالي (61%) من جميع طلبة الجامعات الحكومية خلال العام الدراسي 2002/2001 كانوا يدرسون في مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية، وحوالي (13%) منهم في العلوم الأساسية.

وحوالي (11%) في العلوم الهندسية بينما بلغت نسبة المنخرطين في دراسة العلوم الطبية (15%). كما بلغ عدد طلاب الدراسات العليا محليا في العام نفسه (6237) طالبا. وصلت نسبة الذين يدرسون في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية منهم حوالي (69%) (التعليم العالي في الجماهيرية العظمى، 2002: 4 ــ 7).

وكما ذكر في مكان سابق لقد تسابق الليبيون على مراكز التعليم، ومن ثم على العمل في الوظائف الحكومية. لعبت الدولة دور دولة الرعاية أو الرفاه بحيث تحملت مسئولية تقديم مختلف الإمكانيات والخدمات الاجتماعية بالمجان أو بتكلفة صوريه. ولكونها في نفس الوقت دولة ريعية بمعنى اعتماد الدخل القومي على ريع النفط لعبت أيضا دور المحسن فوفرت مكان شغل لكل طالب عمل بغض النظر عن الدور الذي يمكن أن يقوم به المواطن، وعما إذا كان مكان الشغل في حاجة اليه أم لا. وكان من بين النتائج المباشرة لهذه السياسة أن تعود المواطن على دور متلقي الإحسان. لذلك كان عدد مدرسي الاحتياط في عام 2002 في مجال التعليم الأساسي والثانوي (54253) مدرسا. كان هذا العدد يعادل 23% من مجموع المدرسين في هذه المرحلة.(مؤشرات إحصائية حول التعليم الأساسي والمتوسط، 2003: 18). وقد وضعت المحافظة على هذه

المسئولية على كاهل الدولة عبئا ماليا ثقيلا. قد يجد المرء مبررات لاختيار هذا المسار في بداية بناء الدولة الوطنية تتمثل في حالة الفقر التي كان عليها أعضاء هذا المجتمع والتي زاد من شدتها انتشار واسع للأمية، وغياب شبه كامل للأطر الفنية، ورغبة شديدة على مستوى أصحاب القرار لتحديث المجتمع بأقصى سرعة ممكنة.

ثالثاً: هيئة التدريس: الحجم والمكانة والتهميش

منذ أيامها الأولى حرصت إدارة الجامعة على بناء جهاز تدريس ليبي، لذلك وقبل أن تتخرج الدفعات الأولى من طلاب الجامعة أختير عدد من المتخرجين من جامعات مصرية في في مختلف المجالات، وعينوا كمعيدين، وأرسلوا لأستكمال دراساتهم في الخارج. اشتملت الدفعة الأولى من المبعوثين ثلاثة في الجغرافيا وأربعة في الزراعة واثنين في الهندسة وواحد في التربية وواحد في علم الإجتماع، وإثنين في القانون. كما ضمت لهيئتها ليبي يحمل شهادة الماجستير في التاريخ. كما تقرر أن يختار الطلبة الأوائل في كل قسم كمعيدين ويرسلوا الى الخارج لاستكمال الدراسة. وقد اقتصر نظام الإختيار هذا في السنوات الأولى على الأول والثاني من كل قسم، ثم توسع فيما بعد بحيث أمكن اختيار أكثر من طالبين من كل دفعة. لقد اتخذت الإجراءات لكي يدخل المعيدون الى الجامعات المعروفة في البلدان المشهود لها بالتقدم العلمي. لذلك اقتصر في الفترة الأولى على جامعات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ومصر. وقد تمكنت الغالبية العظمى من أعضاء الدفعات الأولى من الانتهاء

من دراساتهم بنجاح، وخلال الفترة الزمنية المتاحة لزملائهم من الطلبة المحليين. كما حرص الجميع على العودة الى أرض الوطن فور الحصول على الشهادة التي أرسلوا من أجلها. ونظراً لتدنى الإمكانات المادية المتوفرة للدولة فإن بعض الذين أرسلوا الى الخارج خلال هذه الفترة كانوا على حساب منح دراسية من الخارج. ثم، وبمجرد أن توفرت للدولة أموال من تصدير النفط تولت الدولة مسئولية عن الصرف على طلبة البعثات الدراسية في كل البلدان التي أرسلت اليها البعثات. وكما تبين أرقام الجدول رقم (4) فإن البلد بدأ مسيرة التحديث بميزانية جد متواضعة لم تصل في العام 1955 الى تسعة ملايين دينارا. تضاعفت خلال عشر سنوات بمقدار ثمانية أضعاف، وتضاعفت بنفس النسبة خلال العشر سنوات التالية. ولم يمض وقت طويل حتى ارتفعت الميزانيات

التسييرية وميزانيات التنمية من عشرات الملاين الى مئات الملايين ثم الى آلاف الملايين من الدينارات.

ولكن يلاحظ أن الدفعات التي أرسلت خلال السبعينات لم يوفق بعض أعضائها، كما أن الذين وفقوا احتاجوا الى زمن أطول بحيث وصلت فترة الغياب في الخارج الى عشر سنوات وأحيانا حتى أكثر. ثم ظهرت فيما بعد ظاهرة جديدة وهي استمرار المبعوث في البقاء في البلاد التي أرسل اليها بعد استكمال الدراسة.

الذين درسوا في جامعات لها تاريخ تعلموا الى جانب المعرفة العلمية قيما ومعاييرا، ترجمت الى عادات وتقاليد جامعية لعل أهمها استقلال الجامعة، وتمتع عضو هيئة التدريس بدرجة تقدير عالية. لكن الذي حدث أنه لا الجامعة حفظ لها استقلالها، ولا عضو هيئة التدريس حصل على ما كان يتوقعه من احترام وتقدير مادي ومعنوي. لذلك تسابق الكثيرون من أعضاء هيئة التدريس الى الخروج من الجامعة. البعض خرج للعمل في مناصب حكومية توفر أمكانات مادية أفضل، وتوفر جوا يسمح له بمقايضة الخدمات مع الآخرين. وهذا جانب مهم في مجتمع يقوم على تبادل الخدمات. البعض خرج للعمل في الخارج في وظائف لها علاقة بالدولة. بعض هذه الوظائف قد لا تتناسب والتخصص المعرفي الذي تخصص فيه عضو هيئة التدريس، إلا انها توفر دخلاً مادياً أفضل من الذي يتوفر للمدرس الجامعي.

آخرون خرجوا من الجامعة ليلتحقوا بوظائف لها علاقة بمؤسسات دولية، أو في مؤسسات تعليمية في بلدان أخرى. وهكذا تحول جزء من أعضاء هيئة التدريس الى موظف إداري محترف. في كل بلاد العالم تستعين أجهزة الإدارة الحكومية وأجهزة الإدارة غير الحكومية بأساتذة الجامعات، وفي أغلب الأحيان تكون الاستعانة لفترة زمنّية محدودة، يرجع بعدها أستاذ الجامعة الى جامعته. لكن الملاحظ في الحالة الليبية أن الخروج من الجامعة عبارة عن سير في طريق ذي اتجاه واحد. ولهذا أسباب يبدو أنها تتمحور حول طبيعة الامكانات المتوفرة. وقد يكون من المفيد أن تحدث تغييرات جوهرية لتصحيح وضع غير صحي. وذلك بأن توفر الجامعات إمكانيات من شأنها أن تحافظ على أعضائها، بل وتستقطب المتواجدين في خارجها.

عدد كبير من الذين صرف المجتمع على إعدادهم للتدريس الجامعي تسرب الى الخارج إما عن طريق البقاء في البلدان التي أتموا بها تعليمهم العالي، أو انتقلوا الى العمل في بلاد أخرى. من المفيد تحديد العوامل الحقيقية التي أدت الى

هذا، ووضع البرامج العملية التي من شأنها ألا تجعل من التعليم الجامعي المحلي مكانا يتواجد فيه فقط الذين لا يمكنهم التنافس على إيجاد وظيفة أفضل في الداخل أو في الخارج.

وبغض النظر عن الأماكن التي خرج اليها عضو هيئة التدريس فقد خسرت الجامعة أفرادا استثمرت فيهم استثمارا يصعب تقديره ماديا. وبدلا من أن تستفيد الجامعة من تراكم خبرات مدرسين يزدادون مع مرور السنين حنكة وخبرة، اعتمدت بدرجة كبيرة على مدرسين حديثي التخرج. لو كان هؤلاء من الذين تدربوا في جامعات ذات سمعة علمية عالية لأمكنهم المساهمة في الرفع من مستوى التعليم الجامعي. لكن، ونظراً لظروف يطول شرحها يرجع بعضها لعوامل خارجية، ويرجع البعض الآخر لبعض ما انتشر من سياسات محلية تقدم الولاء على التميز، وتقع خارج نطاق هذه الورقة، أصبح العدد الأكبر من حديثي التخرج سواء من الليبيين أو من غير الليبيين من بين الذين لم تتح لهم فرص التعليم في جامعات لها مكانة علمية عالية. لا بل وتعد نسبة كبيرة من هؤلاء الليبيين والمغتربين من بين طلبة الدراسات العليا، إذ لم يحصلوا إلا على شهادة الماجستير. ويفترض ألا يتولى هؤلاء مسئولية تدريس المقرر الجامعي وإنما يعملون تحت إشراف أستاذ متمرس.

يضاف الى كل هذا أن بعض من تولى مسئولية التعليم العالي خلال الثمانينات رأى عدم جدوى الإستمرار في اختيار اوائل الطلبة كمعيدين وإرسالهم الى الخارج. العذر الذي دفع به لتبرير هذه السياسة هو ضرورة الإهتمام بالتعليم العالي في الداخل. ولو تم بالفعل توفير ما يلزم لهذه السياسة من إمكانات، ولو لم يبخل المسئولون عن تخصيص نسبة فقط ما يكلفه طالب الدراسات في الخارج، لأمكن تطوير برامج محلية يمكنها في بعض المجالات على الأقل من مجارات مستوى الجامعات ذات السمعة الجيدة. لكن هذا الدعم لم يتجاوز مستوى الأقوال والتصريحات والشعارات التي لا تسمن ولا تغني عن جوع.

وفي المقابل استمر إقبال الليبيين على مختلف مستويات التعليم عاليا. ولم تلبث الجامعة ذات الثلاثة والثلاثين طالباً أن أصبحت أكثر من أربعين جامعة حكومية وخاصة، وأن يتجاوز عدد الطلاب الجامعيين المائتي ألف، وأن تتجاوز نسبة الإناث الخمسين في المائة (التعليم العالي في الجماهيرية العظمى، 2002). لذلك وبدلاً من أن تتمكن ليبيا من توفير العدد اللازم من أعضاء هيئة التدريس، بل وتبعث بالزيادة الى تلك الجامعات العربية التي ظهرت بعد الجامعة الليبية بسنوات كثيرة، نجد أن أكثر من ربع أعضاء هيئة التدريس الجامعي اليوم

هم من غير الليبيين. وهذا وضع غريب، ويثير الكثير من الدهشة لمن لم يتابع مسيرة التعليم الجامعي الليبي، والمحطات التي مرت بها، والظروف العصيبة التي تعرضت لها.

ونظراً الى تدني رواتب أعضاء هيئة التدريس بصفة عامة، وبالمقارنة مع بقة البلدان بما في ذلك المجاورة، لا تستطيع الجامعات الليبية التنافس مع غيرها لإستقطاب أعضاء هيئة تدريس ذوي مؤهلات عالية. ثم إن انتشار الكليات الجامعية في مراكز تجمعات سكانية تفتقر الى أمكانيات المدينة العصرية لا يشجع عضو هيئة التدريس من ذوي المكانة المرموقة على ترك مقر استقراره والمجيء الى ليبيا. لذلك فإن غالبية أعضاء هيئة التدريس من المغتربين لا يحملون سوى شهادة الماجستير، بل ومن جامعات الدرجة الثانية أو الثالثة. لذلك عمدت الجامعات غير الرئيسة الى الاستعانة بأعضاء هيئة التدريس من الجامعات الرئيسة. وفي سبيل الحصول على دخل مناسب أضطر هؤلاء الى الإنتقال من كلية الى أخرى ومن جامعة الى أخرى. وللمسافات الشاسعة بين المدن الليبية يضطر هؤلاء الى قيادة السيارة مئات الكيلومترات أو الانتقال بالطائرة. كما يظطر الواحد من هؤلاء الى القيام بالتدريس حوالي 26 ساعة أسبوعياً (التعليم العالي في الجماهيرية العظمى، 2002: 32). وبذلك أصبح التدريس الجامعي وكأنه صنو للتدريس في المرحلة الابتدائية. ومثل هذا النوع من التعليم لا يمكن أن يرقى الى مستوى التعليم الجامعي بالمفهوم المتعارف عليه.

رابعاً: خريجو الجامعات ومسيرة التنمية:

وكما ذكر في مكان سابق فإن الدولة التي استقلت حديثاً بناء على قرار من الأمم المتحدة لم يتواجد على أرضها في يوم إعلان الاستقلال سوى 14 ليبيا يحمل شهادة جامعية، كان أغلبهم من خريجي الأزهر ودار العلوم بمصر. لم يكن بينهم مهندس ولا طبيب ولا أستاذاً جامعياً. وكان على الدولة حديثة التكوين الاعتماد على أعضاء الجالية الإيطالية وخصوصا في مجالي الطب والهندسة، واستقدمت مغتربين للتدريس وللإدارة. جاء أغلب هؤلاء من مصر والسودان وفلسطين. كما رجع فيما بعد من مصر ومن سوريا بعض أعضاء الجالية الليبية الذين حصلوا على تعليم جامعي. نسبت الدفعات الأولى من خريجي الجامعة لمختلف إدارات الدولة. ورويدا رويدا حل أصحاب الشهادات الجامعية محل الجيل الأول من الذين حصلوا فقط على تعليم محدود.

كانت مسيرة التغيير في المجتمع الليبي الجديد تسير في البداية بوتيرة بطيئة حيث كانت البلاد تصنف ضمن أفقر بلدان العالم، وكان الدعم السنوي للميزانية التسييرية يأتي من الخارج، وشملت القائمة حتى بلدانا ليست غنية مثل مصر وباكستان. وعندئذ كانت دواوين

الحكومة هي الهدف الذي يتجه اليه خريجوا الجامعات. وكان الجميع ينسب فور تخرجه- لموقع عمل. لكن هذا الوضع تغير بالكامل عندما تبين أن الصحراء الليبية ترقد على بحر من الذهب الأسود. وهكذا عرفت البلاد ما يسمى بالمخططات التنموية. وكما هو معروف فأن الغرض من وضع وتنفيذ مثل هذه البرامج أحداث تنمية اقتصاديه واجتماعيه. وكقطر عربي فإن الكثير من الأهداف والبرامج والخطط والوسائل في التجربة الليبية تتشابه مع مثيلاتها في بقية الأقطار العربية. صرفت ملايين بل بلايين الدينارات على هذه البرامج التي وضعت لكل منها خطه وبرنامج عمل وأهداف. وجميع هذه الخطط موجودة ومحفوظة في شكل مطبوع وبالإمكان الرجوع إليها.

تفترض فلسفات التنمية وخصوصاً التي سادت خلال خمسينات القرن الماضي، التي تأثرت بتجربتي إعادة إعمار أوروبا واليابان بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية، أن تكوين رأس المال هو الهدف الرئيس. وأنه كلما زادت درجة تراكمه، اتسعت دائرة المستفيدين في المجتمع (عثمان، 1995: 110 - 112). وبذلك تقاس درجة نجاح خطط التنمية بمقدار

معدلات نمو الدخل القومي، أو بمعدل نمو متوسط دخل الفرد. وقد يقال بأن قياس النمو الاقتصادي بهذه الوسيلة، يعطى صورة حقيقية للوضع في داخل المجتمع. فارتفاع مثل هذه المعدلات، يؤدى إلى تحسن الإمكانيات المتاحة للفرد، والتي من شأنها أن تساعد ارتفاع مستوى معيشته المترجمة بقدرته على الحصول على خدمات عالية في مجالات الحياة الرئيسة مثل التعليم والصحة والإسكان. ويفترض أن تحسن مثل هذه الخدمات سيقود بالضرورة إلى تحسن المؤشرات المتصلة بالتنمية البشرية المستدامة، مثل ارتفاع توقعات الحياة عند الميلاد، وانخفاض معدلات وفيات المواليد والأطفال، وانتشار التعليم وتحسن مستوياته. لكن لابد من ملاحظة أن ما قيل قد يتحقق على المستوى النظري، أو لنسبة محدودة من أبناء المجتمع، أما ما يمكن تحقيقه على مستوى المجتمع، فيحتاج لتقدير إمكانيات متغيرات أخرى، والتي يجب أن يحسب لها حساب عند بناء النموذج النظري. متغيرات لا تقل أهمية عن التي يكرر ذكرها

الاقتصاديون، عندما يتباهون بالإنجازات المالية للاقتصاد. متغيرات مثل درجة انتشار الخدمات المادية، وإمكانية

حصول الفرد- بغض النظر عن موقعه الاجتماعي- على مجموعة من الحقوق، مثل حق الحصول على عمل لكل الوقت وعلى مدى فترة الزمن التي يرغبها، وحق التمتع بوقت الفراغ، وحق التمكن من تحسين المستوى الثقافي وهكذا.

النجاح المادي؛ المقاس بنمو متوسط دخل الفرد أمر تتباهى به حكومات الوقت الحاضر، لذلك يعمد المسئولون في كل حكومة إلى تذكير المواطنين، وتذكير الآخرين، من حين إلى حين بمعدلات نمو الدخل القومي، في حالة نموه من سنة إلى أخرى. كما يعلمون مواطنيهم، ويعلمون الآخرين، من حين إلى آخر، بالعقبات التي اعترضت مسيرة التنمية الاقتصادية، وعرقلت نمو الاقتصاد في حالة الركود الاقتصادي، وتوقف الدخل القومي عن النمو. إن الاكتفاء بذكر هذا المؤشر، والنظر إليه كمقياس للتنمية، نظرة فيها الكثير من القصور وخصوصا في حالة الدولة الريعية. فقد ينمو الدخل القومي بمعدلات عالية، ولكن تتكدس الثروة في أيدي الأقلية، وتحرم الغالبية من ثروة المجتمع.

بينما تؤكد فلسفات التنمية التي سادت في عقد الستينيات ثم فيما بعد خلال عقد السبعينيات على متغيرات أخرى، مثل توفير الخدمات لجميع أعضاء المجتمع، وتأمين عدالة فى توزيع الدخل، ومحاربة الفقر، والاستثمار في الأفراد. وهذه هي التي اعتمدها النظام الليبي فوضع على قائمة اهداف التنمية توفير الخدمات الرئيسة وبالمجان لجميع أفراد المجتمع بغض النظر عن أماكن تواجدهم. بحيث لا تحرم مجموعة بسبب الجنس مثلا، أو فئة بعينها لانتمائها الإثني، ولا منطقة بعينها لظروفها الجغرافية. لذلك تبدو المؤشرات الليبية الخاصة بالتنمية المتمثلة في الصحة والتعليم وتوفير مياه الشرب وتوفر الصرف الصحي والإسكان الحديث عالية عند مقارنتها بمثيلاتها بين بلدان العالم (تقارير الأمم المتحدة للتنمية البشرية). وتعكس الأرقام في الجدول رقم (5) بعض هذه الحقائق.

رأت مخططات التنمية الليبية النور لأول مرة في منتصف الستينيات. كانت البداية متواضعة. ثم صيغت الأهداف الطموحة، ووفرت الميزانيات الضخمة، وصرف خلال عقدي السبعينات والثمانينات بسخاء على مختلف المجالات التي تتوجه نحوها برامج التنمية كالتعليم، والصحة، والإسكان،

والمواصلات، والصناعة، والزراعة. لم يقتصر تنفيذ المشروعات على مناطق معينة، وإنما وصلت إلى كل بقعة من التراب الليبي رغم اتساع الرقعة، وانخفاض الكثافة السكانية. وتحولت البلاد من أقصاها إلى أقصاها إلى ورشة عمل. شيدت آلاف الوحدات السكنية، وآلاف المباني المدرسية والصحية، وشقت الطرق وعبدت آلاف الكيلومترات، ومدت خطوط الهاتف. كما بنيت محطات الطاقة، ووصل التيار الكهربائي إلى جميع التجمعات السكانية بما في ذلك الصغيرة جدا، والنائية جدا. استصلحت آلاف الهكتارات من الأراضي، وأنشئت آلاف المزارع الحديثة، وأقيمت المصانع على اختلاف أنواعها، وبنيت مدن جديدة بالكامل، و بدأ العمل في تنفيذ واحد من أضخم المشروعات الفردية وأكثرها كلفة بالمقاييس العالمية الذي أخذ شكل نهر اصطناعي.

لكن مؤشرات التنمية ليست ثابتة فهي قابلة للزيادة، وقد ضمت اليها خلال العقود الأخيرة قضية محاربة البطالة. لقد شهدت سنوات التنمية الأولى في هذا المجتمع توفر فرص العمل لكل طالب عمل، وكان بإمكان المواطن الحصول على عمل فور إنهائه لمرحلة دراسية أراد التوقف عندها. خلال تلك الفترة كانت البلاد تستعين بالعمالة الأجنبية حتى وصلت نسبتها في يوم من الأيام الى حوالى الأربعين في المائة. ثم جاء زمن بدا فيه أن حصول الفرد على التعليم، لا يضمن له بالضرورة الحصول على عمل. فليس كل تعليم يفيد في الحصول على عمل، وعرفت البلاد بطالة المتعلمين.

وبصفة عامة يمكن القول إن المراقب من بعيد لبرامج تنفيذ مخططات التنمية سيقول إن هذه المخططات نفذت على عجل. فقد كان الهدف هو تحديث المحيط بأسرع وقت ممكن، وتوفير أهم الإمكانيات والخدمات الحديثة لجميع أفراد المجتمع. وباستثناء عدد محدود من الجامعيين الليبيين، اقتصر العمل في ورشة العمل الضخمة على العمالة الأجنبية، خصوصاً وأن نظام (تسليم المفتاح) هو الذي اتبع في مناسبات كثيرة. ويلاحظ أن حركة البناء والتشييد النشطة لفتت أنظار عدد كبير من الباحثين عن المغامرة، والمقامرة، والثراء السريع. فدخلت حلقة السباق شركات ضخمه، وحكومية، ومتعددة الجنسيات، وأخرى تأسست لأول مرة لتكتسب خبرتها من العمل في ليبيا. ولتتعثر إنجازات بعضها ممن لم تكن له خبرة كافية ولا موارد مالية مناسبة، بحيث تحولت مواقع كثيرة إلى مبانٍ غير منجزة ومهجورة وكأنها أبراج للحمام.(التير، 1996: 30- 31). وقد ضاعت بناء على سياسة التنفيذ هذه على المواطنين فرصة ثمينة، ولا يوجد ما يشير إلى أن الزمان سيجود بمثلها. ونقصد بها فرصة تدريب عدد كبير من

الأطر الفنية المحلية، وتعويد هذه الآلاف على عادات تتعلق بالاتجاهات وبالعمل، تفيد في بناء الشخصية الحديثة، والتي بدورها ستعمل على المحافظة على الإنجازات، وتسريع عملية تحديث المجتمع.

خامساً: الجامعات الخاصة: مؤسسات علمية أم دكاكين للتعليم العالي؟

وجدت المؤسسات التعليمية الخاصة بمختلف مستوياتها المختلفة بما فيها الجامعات في الكثير من البلدان. وفي جميع هذه البلاد توجد اختلافات بين هذه المؤسسات. بعضها لا يزيد عن كونه مؤسسات تجارية توظف قواعد التجارة في الربح والخسارة توظيفا ماديا. وهذه لا تقدم مستوى رفيعا من المعرفة. بل يصل الإستهتار ببعضها الى إعطاء الشهادات مقابل دفع مبلغ مالي محدد. وفي نفس الوقت توجد مؤسسات متميزة بحيث تتقدم من حيث المستوى بقية المؤسسات بما فيها الحكومية. البلاد التي لها تاريخ في هذا المجال عهدت لمؤسسات مستقلة مهمة تقييم مستوى المؤسسات التعليمية سواء أكانت حكومية أم خاصة. وتصدر مؤسسات التقييم هذه تقارير سنوية تبين بالتفصيل ترتيب المؤسسات التعليمية بحسب عدد كبير من المؤشرات المتصلة بالعملية التعليمية. ويكون أمام كل من له علاقة بهذه المؤسسات معلومات كافية بحيث يختار الطالب المستوى الذي يراه مناسباً لإمكانياته. ويختار عضو هيئة التدريس الجامعة التي يرى أنها تناسبه. وفي المقابل تقرر إدارة الجامعة مستوى الطلبة الذين يمكن قبولهم وكذلك أعضاء هيئة التدريس الذين تقبلهم. ومن جهة أخرى يكون أمام المؤسسات التي بها مواقع عمل المستوى الذي ستسمح بقبوله ضمن العاملين بها. لذلك فإن ما يحدث في مثل هذه الأحوال ألا يحصل كل صاحب شهادة جامعية على عمل، وإنما يرجع ذلك الى اسم الجامعة التي يحمل شهادتها، وللمستوى الذي حصل عليه المتخرج. لذلك تتنافس المؤسسات التعليمية التي تحرص على تحسين سمعتها لتكون مجهزة بأفضل ما يتوفر من حيث تجهيزات المكان، والمعدات، والجهاز الإداري، وجهاز التدريس، وإمكانات البحث العلمي.

الذي حدث في بلادنا شيء يختلف تماما عما أشرنا اليه في عجالة. قرر بين يوم وليلة بعض من ليس له خبرة، ولا معرفة بالتعليم الجامعي تأسيس جامعة خاصة. وأعلن عن الجامعة وهي لا تملك من المقومات حتى المقر. وهو عمل يعيد للأذهان تلك القصة الليبية الشعبية التي تصف حالة الفرح والنشوة التي بدا عليها رجل يمشي في الشارع بعد أن وجد حذوة حصان، فصار يقفز نشوانا

وهاتفا: الحمد لله لا ينقصني سوى ثلاث حذوات ثم السرج واللجام والحصان لأصبح من بين فرسان البلد.

كانت بداية هذه الظاهرة الغريبة بجامعة واحدة وفي مدينة واحدة في عام 2001، وقبل انقضاء السنة وصل العدد الى 32 جامعة في سبعة مدن. وقد اتخذ بعضها أسماء لا علاقة بالمعرفة ولا بالثقافة ولا بأسماء المدن مثل: س ص، واقادوقو، أفريقيا السمراء، الراية الخضراء، الصمود، هانيبال وهكذا. وتوجد متاجر وتشاركيات تحمل نفس هذه الأسماء. كما أن هذه عبارة عن أماكن وضعت على واجهاتها اسم جامعة، ولا تملك جهاز تدريس متفرغ، ولا جهاز إداري متفرغ، ولا مكتبة، ولا معدات. كما أن عدد الطلاب المسجلين في بعضها في العام الدراسي 2002 كان صغيرا بدرجة تبدو معها الحالة وكأنها نكتة. ففي الوقت الذي تجاوز فيه طلبة التعليم العالي حاجز المائتي الف طالب، أظهرت.

سجلات بعض هذه المؤسسات بأن عدد طلابها عبارة عن 11 طالبا، وفي أخرى 13 طالبا، وفي ثالثة 16 طالبا (مكتب التعليم والتكوين المهني التشاركي والخدمة الوطنية)

لا يعني ما ذكر سابقا استحالة بناء مؤسسات تعليمية خاصة ومحترمة. فالباب مفتوح إذا ما توفرت الخبرة والإمكانيات. ولعل ما يعرف بأكاديمية الدراسات العليا مثال جيد لما يمكن أن يتوفر في مجال التعليم الذي يجمع بين العام والخاص من تميز. فهي مؤسسة مملوكة للمجتمع ولكن تدير نفسها كمؤسسة مستقلة تعيش على دخلها الخاص. استقبلت الأكاديمية أول دفعة من الطلاب في عام 1989. عندئذ كانت معهدا للدراسات العليا اقتصر التدريس فيه على ثلاثة أقسام هي الإقتصاد والمحاسبة وإدارة الأعمال. تحولت في عام 1996 الى أكاديمية للدراسات العليا. وتظم اليوم أربع مدارس بكل منها عدد من الأقسام، وبها مكتبة مناسبة، ومركز متكامل يسمح للطلاب ولأعضاء هيئة التدريس باستخدام الحاسوب في التدريس وفي الإطلاع، مع إتاحة اتصال دائم للطلبة ولأعضاء هيئة بشبكة المعلومات الدولية. تخرج منها حتى الآن 979 طالبا بدرجة الماجستير، كما أن برنامج الدكتوراه يسير بخطى متأنية في أكثر من قسم، ويتوقع مناقشة أول أطروحة في مطلع العام 2005. لقد ساهمت هذه المؤسسة في إثراء الحياة العلمية والثقافية محليا حيث نظمت عددا كبيرا من ورش العمل التي شارك فيها الى جانب العلماء الليبيين آخرون من بعض أشهر المؤسسات العلمية العربية والغربية. وبنت جسورا ثقافية مع عدد كبير من

مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي، وفي عدد من البلدان الأوربية، ومع مؤسسات في الشرق وخصوصا في الصين وفي اليابان.

إن إتاحة الفرصة أمام المؤسسات التعليمية الخاصة يمكن أن يكون نعمة ويمكن أن يكون نقمة. فإذا ابتعدت هذه المؤسسات عن فكرة التجارة والربح السريع، وتولى شؤونها من له المعرفة والخبرة، أمكن بناء مؤسسات للتعليم العالي مفيدة. مؤسسات تحرص على الجودة، وتتنافس في سبيل توفير البيئة التي تسمح بوصول الطلاب الى أحدث ما يتوفر في مجال المعرفة. ستعمل مثل هذه المؤسسات بالتأكيد على معالجة الكثير من مشاكل التعليم الجامعي وما فوق الجامعي، وستساهم في عملية تجويد التعليم، وهي التي يجب أن تكون باستمرار الهدف الأهم الذي تسعى اليه المؤسسات التعليمية على اختلاف مستوياتها.

سادساً: الخاتمة

تمكنت ليبيا ــ من حيث نشر التعليم الجامعي ــ من تسجيل تقدم واسع وسريع بحيث بلغ تجاوز عدد الجامعات في مطلع العام 2004 الأربعين جامعة، والعدد في ازدياد من يوم الى يوم. وتجدر الإشارة الى أن هذا العدد الكبير للجامعات لا يعني أن التعليم العالي بخير، بل قد يكون العكس هو الصحيح. فأغلب الجامعات الحكومية والخاصة لا تملك الإمكانيات التي تتوفر عادة للجامعات. وتفتقر، وخصوصا في التخصصات التي تتطلب معامل وتقنية متطورة، الى الكثير من الضروريات. فمثلا بلغ عدد طلبة كلية الطب في العام الدراسي (2001 / 2002) بأكبر الجامعات الليبية 737 طالباً في الوقت الذي توجد فيه مشرحة صغيرة توفرت بها جثتان فقط. وفي نفس الجامعة يدرس حوالي خمسة آلاف طالب في مجال طب الأسنان في الوقت الذي لا يتوفر فيه في هذه الكلية أكثر من 35 كرسياً طبيا. وتعتمد بعض الجامعات الحكومية وجميع الجامعات الخاصة على مدرسين غير متفرغين. بمعنى أن هذه الجامعات تعتمد على أوقات الفراغ التي تتوفر لدى أساتذة جامعات أخرى. ونظرا لتدني مرتبات أساتذة الجامعات فإن غالبيتهم يقبل أن تعمل في أكثر من موقع، بحيث يقضي الواحد يومه متنقلا بين الكليات الجامعية في نفس المدينة وفي مدن أخرى بعيدة (التعليم العالي في الجماهيرية العظمى، 2002: 4ــ8).

يبلغ عدد أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية 6214 مدرسا، حوالي 20% منهم غير ليبيين، وحولي 26% منهم من المتعاونين، أي الذين يغادرون جامعاتهم التي ينتمون إليها لإعطاء محاضرات في جامعات أخرى للحصول على

دخل إضافي. ونسبة غير بسيطة من جميع هؤلاء غير مؤهلة علميا للتدريس في الجامعة، فهم عبارة عن طلاب يواصلون الدراسة في مرحلة الدكتوراه، أو حصل على شهادة الماجستير وتوقف لسبب من الأسباب. كما أن نسبة من حاملي شهادة الدكتوراه لا يحملون معرفة لأنهم تحايلوا على الحصول على الشهادة بمختلف الأساليب الغريبة والمنحرفة من مؤسسات تجارية أو مؤسسات ليست لها مكانة في الوسط العلمي. ثم أن أعباء التدريس عالية بالنسبة لجميع أعضاء هيئة التدريس بغض النظر عن درجاتهم العلمية وتصل في المتوسط الى 26 ساعة أسبوعيا. وعدد ساعات العمل هذه لا تختلف عن تلك التي يفترض أن تكون لمدرس المرحلة الابتدائية.

تنشغل الغالبية العظمى من أساتذة الجامعات بمهمة نقل المعرفة. ويفترض أن يخصص الأستاذ الجامعي بعض وقته لمهمة البحث العلمي. ويلاحظ أنه باستثناء عدد محدود من الذين يعطون أولوية خاصة للبحث العلمي ينشغل أغلب أساتذة الجامعات بمتابعة الدروس. لا يعني هذا أن هؤلاء لا يخصصون وقتا للكتابة وللنشر. لا بل أن الكثيرين يبذلون جهداً خاصاً لنشر الكتب. إلا أن هذه عبارة عن كتب منهجية، يضطر الطلاب لشرائها، وتوفر للأستاذ الجامعي دخلاً إضافياً. وتجدر الإشارة الى أن المحدودية المادية لعضو هيئة التدريس الجامعي هي نفس حالة بقية أعضاء الطبقة المتوسطة المهنية. لذلك يضطر جميع هؤلاء الى التركيز على الاهتمامات الذاتية وظروف الحياة اليومية، بدلا من التركيز على الاهتمامات الموضوعية التي تتطلبها عملية إنتاج المعرفة. فهل يمكن تغيير هذا الوضع غير الطبيعي، والزج بنسبة من أعضاء هيئة التدريس القادرين في مجال البحث العلمي؟ وهل يمكن أن تتزود الجامعات بالإمكانيات التي تجعل منها جامعات بالمعنى الحقيقي؟ والجواب يمكن أن يكون بنعم إذا توفرت النية عند من بيدهم إمكانية اتخاذ القرار وإمكانية تنفيذه. وبعبارة أخرى توفير الظروف لتكون الجامعة في هذا البلد كنظيراتها من الجامعات ذات السمعة العالية في البلاد التي تنعت بتقدمها العلمي. وهي ظروف معروفة، ويتوافر في ليبيا عدد غير قليل من ذوي الخبرة في مجال هذه الظروف. وقبل أن يحدث هذا يتطلب الأمر أن يقلع المسئولون عن اتباع سياسة (لا كرامة لنبي في قومه)، وأن يتبنوا بدلاً منها مع ما يتمشى مع ذلك المثل الشعبي الليبي ذي التاريخ الطويل والقائل: (إعط الخبز لخبازه).

جدول رقم (1)

تطور أعداد الطلبة الليبيين في جميع مراحل التعليم خلال سنوات مختلفة بالآلاف والنسبة المئوية لإناث

السنة	عدد الطلبة	٪ الإناث
1876\ 1877	0.06	–
1911\ 1912	0.1	–
21\22	0.6	–
30\ 31	4,4	–
38\ 39	6.9	–
43\ 44	6.7	5
48\ 49	25.1	12
50\51	32.8	11
55\56	70.1	16
60\61	136.4	18
65\ 66	227.5	26
70\ 71	407.4	34
75\ 76	743.5	43
80\ 81	973.8	44
85\ 86	1224.3	46
90\91	1492.4	48
95\96	1603.3	48
98\99	1690.7	49
2002/ 2003	1721.1	50

المصدر: (التير، 1992:287 ـ 291 ؛ نشرات صادرة عن اللجنة الشعبية العامة لشئون الخدمات، المركز الوطني لتخطيط التعليم والتدريب.

جدول رقم (2)

تطور التعليم الجامعي ـ القطاع العام

السنة	عدد الطلاب	نسبة الإناث	عدد الجامعات	عدد الطلاب لكل 1000 من السكان
56/55	31	00	1	0.03
61/60	729	3.3	1	0.54
66/65	1891	9	1	1.21
71/70	5198	11	1	2.81
76/75	13417	18	2	6.03
81/80	19453	22	3	7.12
86/85	36600	28	11	11.00
91/90	62227	42	13	15.73
96/95	129173	44	14	28.44
99/98	165447	47	14	32.00
02/ 01	222976	50	27	43.00

المصدر: بني على بيانات وردت في نشرات صادرة عن اللجنة الشعبية العامة لشئون الخدمات، المركز الوطني لتخطيط التعليم والتدريب.

جدول (3)

تطور التعليم الجامعي ـالقطاع الخاص

السنة	الطلاب	الجامعات	٪ من مجموع طلاب الجامعات	٪ من مجموع الجامعات
1997	00	1	00	0.07
1998	00	3	00	18
1999	257	5	0016	26
2000	455	7	0027	33
2001	1145	15	0066	36
2002	3600	25	0197	48
2003	5000	32	0260	54

المصدر: بني على بيانات وردت في نشرات صادرة عن اللجنة الشعبية العامة لشئون الخدمات، المركز الوطني لتخطيط التعليم والتدريب.

جدول رقم (4)

تطور عوائد النفط والميزانية العامة ومقادير ميزانيات التنمية / مليون دينار

السنة	عوائد النفط	الميزانية العامة	مصروفات التحول	خطة التنمية للسنوات	ميزانية التنمية
1955/54	0.05	8.8		1961/56	42.0
1958/57	0.07	17.0		1968/63	336.0
1962/61	2.0	34.5		1975/73	1965
1966/65	54.5	79.0		1980/76	7270.3
1970/69	409.4	114.8		1985/81	18500.0
73	673.6	190.3		1990/86	10955.0
77	2681.2	583.0		1995/91	12800.0
80	6826.4			1996/94	6216.0
85	1846	1182.1	1523.3		
1990/89	1181.5	1170	760.9		
1993/92	1267	1534	540		
1997	3455	2835.4	943		
1998	3633	3301.5	1133		

المصدر: (التير،1992: 278، 282 ؛ ونشرات متعددة لمصرف ليبيا المركزي).

جدول رقم (5)

تطور بعض مؤشرات التنمية في المجتمع الليبي

السنة	نصيب الفرد من الطاقة/كيلوات	عدد السكان لكل طبيب	معدل وفيات الأطفال دون الخامسة لكل 1000 مولود حي	خطوط الهاتف لكل 1000 من السكان
1959	35	7250	290	7
1964	60	4755	_	11
1969	130	2611	87	_
1974	260	1100	69	15
1980	1600	960	56	24
1995	3300	715	30	59
2002		615	25	127

المصدر: (التير،1992: 293، 298، 301؛ المسح العربي لصحة الأم والطفل، 1997: 42 ؛ التقرير الوطني الأول لأهداف الألفية، 2004).

ثبت المصادر

- أمانة اللجنة الشعبية العامة للتعليم والبحث العلمي، تقرير حول تطور التعليم في الجماهيرية العظمى، 1996.
- اللجنة الشعبية العامة لشئون الخدمات، المركز الوطني لتخطيط التعليم والتدريب، التعليم العالي في الجماهيرية العظمى: دراسة تقييمية، 2002.
- اللجنة الشعبية العامة لشئون الخدمات، المركز الوطني لتخطيط التعليم والتدريب، مؤشرات إحصائية حول التعليم الأساسي والمتوسط، 2003.
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 1998، نيويورك: منشورات جامعة أكسفورد، 1998.
- بعيو، مصطفى عبدالله، بعض الملامح التاريخية عن ليبيا، بنغازي: المطبعة الأهلية، 1966.
- التير، مصطفى عمر، مسيرة تحديث المجتمع الليبي: مواءمة بين القديم والجديد، بيروت: معهد الإنماء العربي، 1992.
- التير، مصطفى عمر، "النمو الحضري والتحديث: ملاحظات نظرية "، في كتاب: المدينة العربية وتحديات المستقبل، الرياض:المعهد العربي لإنماء المدن، 1996.
- اللجنة الشعبية العامة للصحة والضمان الاجتماعي، المسح العربي الليبي لصحة الأم والطفل، 1997.
- عثمان، محمد عثمان، " قياس التنمية البشرية: مراجعة نقدية "، أعمال ندوة التنمية البشرية فى الوطن العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995.
- الهيئة الوطنية للمعلومات والتوثيق، النتائج النهائية للتعداد العام للسكان، 1995.
- الهيئة الوطنية للمعلومات والتوثيق، التقرير الوطني الأول لأهداف الألفية، 2004.



الجامعة الليبية في عيدها الخمسين

صفحة مشرقة في تاريخ ليبيا

د. محمد فرج دغيم

إني لأذكر جيداً ذلك اليوم 15.12.1955 إذ دعينا نحن طلبة التوجيهية بقسميها الأدبي والعلمي في مدرسة بنغازي الثانوية آنذاك لحضور حفل افتتاح الجامعة الليبية في مقرها المخصص لها في مدينة بنغازي و هو قصر المنار، وقد افتتح الجامعة رئيس مجلس الوزراء وألقى وزير المعارف(التعليم) عبد السلام بسيكري كلمة الافتتاح، ثم طفنا بأقسام الجامعة التي كانت كلية الآداب والتربية نواتها الأولى، وكان عدد طلابها الذين بدأت بهم الدراسة 31 طالباً، وقد هيء المقر ليضم قاعات الدراسة والمكتبة و مكاتب الاساتذة والموظفين، وخصص قسم منه ليكون بيتاً للطلاب ومطعماً، كما خصص زي مميز للطلاب، وصرفت مكافأة شهرية قدرها 5 جنيهات لمصروف الجيب لكل طالب.

كان إنشاء جامعة في ليبيا حدثاً غير عادي في تلك الفترة، فهو ضرب من الخيال، إذ لم يمر على إعلان استقلالها سوى أربع سنوات، وتعتمد البلاد في ميزانيتها على مساعدات خارجية قائمة على تأجير قواعد عسكرية للولايات المتحدة وبريطانيا وفق معاهدتين جائرتين في غير صالح ليبيا، ولا يوجد في البلاد مؤهلون للقيام بالتدريس، ولا تزال البعثات الدراسية ترسل للدراسة في مصر وغيرها، بل وحتى الشهادة التوجيهية وقبلها شهادة الثقافة العامة، ترسل امتحاناتها من مصر وتصحح هناك، وفق منهج الدراسة في مصر، ولم تكن هناك في الوطن العربي جامعات سوى ثلاث جامعات في مصر

وجامعة في سوريا، وكليات جامعية تتبع الوزارات في العراق، وفي شمال أفريقيا لا توجد إلا جامعة في الجزائر وهي فرنسية في لغتها وأساتذتها ومناهجها وتوجهاتها، وفي لبنان توجد الجامعة الأمريكية التي كانت في بداية نشأتها جامعة بروتستانتية تبشيرية(1).

وكان الهدف من إنشاء الجامعة الليبية ملء الفراغ الهائل في كل المرافق الحيوية بإيجاد كوادر مؤهلة تسد هذا النقص، إذ حرم المواطنون من فرص التعليم أبان العهد الإيطالي الاستعماري البغيض واقتصر التعليم على المدارس الإيطالية الابتدائية وعلى الدراسة في الكتاتيب بالنسبة لليبيين، وحاول البعض مواصلة الدراسة في المعاهد الدينية أو في الأزهر أو الزيتونة في تونس، ومن ثم فإن إنشاء جامعة في ليبيا كان أملاً في أن تزود البلاد بأبنائها المؤهلين في كل فروع الدراسة والميادين، ولإنشاء هذه الجامعة في تلك الفترة قصة ينبغي أن يعرفها القراء، فقد وصل وفد أمريكي سنة 1955 واقترح إنشاء كلية جامعية مدة الدراسة فيها سنتان Community College يبعث الطلبة بعدها لإتمام دراستهم في إحدى الجامعات الأمريكية، على أن تكون هذه الكلية في ليبيا أمريكية في مناهجها وطرق التدريس بها، ويبدو أن الوفد الأمريكي كان يتحدث عنجهية واستعلاء وإملاء الشروط، مما امتعض له الجانب الليبي، وطرحت فكرة إنشاء جامعة ليبية أو كلية جامعية نواة لها، وهنا عرض الأستاذ فريد أبو حديد المستشار الفني لوزارة المعارف(2) اقتراحا بإنشاء كلية للآداب والتربية تكون نواة للجامعة، ووضع مشروعا للنظام الأساسي للجامعة المقترحة، وشكلت لجنة لمتابعة تنفيذ المشروع كان من بين أعضائها الأستاذ مصطفى بعيو والأستاذ إبراهيم المهدوي وكان سكرتيرها الأستاذ أحمد فؤاد شنيب، واقترح السفر إلى جمهورية مصر العربية للاستعانة بأساتذتها للتدريس، وقابل الوفد برئاسة مجلس الوزراء الرئيس جمال عبد الناصر، وعرضوا عليه الفكرة وقدموا له قائمة بالأساتذة الذين يودون إعارتهم لليبيا، وكانت القائمة تضم أساتذة مرموقين في تخصصاتهم، وأن تستمر إعارة الأساتذة في السنوات اللاحقة، وقد لبت مصر الطلب رغم اعتراض بعض الجامعات المصرية بأنها ستفرغ من أساتذتها الأعلام الذين تطلبهم ليبيا للتدريس بجامعتها، ثم كانت المكرمة أن مصر قد تعهدت بدفع مرتبات الأساتذة الأربعة الذين طلبتهم ليبيا للتدريس بها لمدة أربع سنوات(3).

بدأت الدراسة فعليا في كلية الآداب يوم 22.1.1956 وكانت السنة الأولى من ذلك العام الجامعي حافلة بأوجه النشاط المتعددة من محاضرات عامة يلقيها

الأساتذة، و إقبال من المهتمين على مختلف مستوياتهم لحضور هذه المحاضرات، وعين مدير للجامعة هو الأستاذ محمود البشتي، وقد توالي على إدارة الجامعة الأساتذة:

1) **محمود البشتي 1956 – 1958.**

2) **عبد الجواد الفريطيس 1958 – 1961.**

3) **بكري قدورة 1961 – 1963.**

4) **مصطفى بعيو 1963 – 1967.**

5) **عبد المولى دغمان 1967 – 1969.**

6) **عمر التومي الشيباني 1969 – 1973.**

7) **الهادي بولقمة 1973 – 1976.**

8) **عبد الحفيظ الزليتني 1976 – 1980.**

9) **يوسف حامد الشين 1980 – 1984**[4]**.**

استمرت الجامعة تتوسع في إنشاء كليات جديدة، فأنشأت كلية العلوم بطرابلس سنة 1956 وكلية التجارة في بنغازي سنة 1957، ثم كلية الحقوق (القانون) سنة 1962، وضمت كلية الهندسة في طرابلس وكلية المعلمين التي أصبحت كلية التربية سنة 1969، ثم أنشئت كلية الطب البشري سنة 1970، وكلية طب الأسنان سنة 1974، وأنشئت كلية أخرى للهندسة في بنغازي سنة 1974، وكلية للزراعة في البيضاء سنة 1974.

ومما ميز الجامعة الليبية بكلياتها المختلفة استقطاب خيرة الأساتذة من الجامعات المصرية وغيرها، فاجتمع في كلية الآداب نخبة من الأساتذة لم تجتمع في أي كلية للآداب في أي جامعة عربية حتى أصبحت الأولى بين كليات الآداب في الوطن العربي دون منازع، وقد أثنى الدكتور طه حسين على مناهج كلية الآداب في الجامعة الليبية، ومن الأساتذة الأعلام الذين أسهموا في التدريس بكلية الآداب في مختلف أقسامها:

1) قسم اللغة العربية: طه الحاجري، إبراهيم مصطفى، محمود السعران، جميل سعيد، إبراهيم اللبان، ناصر الدين الأسد، محمد محمد حسين، عمر الدسوقي، عبد القادر القط، عبد الله درويش، مصطفى ناصف، سعيد الأفغاني، عبد المحسن سلام، يحي الجبوري.

2) قسم اللغة الإنجليزية: وليامز، بلاكستون.

3) قسم التاريخ: عبد الهادي شعيرة، سعد زغلول عبد الحميد، أمين عبد الله، أحمد عزت عبد الكريم، إبراهيم نصحي.

4) قسم الفلسفة: عبد الهادي أبو ريدة، محمود قاسم، محمد علي أبو ريان، توفيق الطويل، عثمان أمين فؤاد الأهواني، عبد الرحمن بدوي.

5) الاجتماع: علي أحمد عيسى، أحمد أبو زيد.

6) الجغرافيا: عبد العزيز طريح شرف، إبراهيم رزقانة، جودة حسنين جودة.

وفي كلية الاقتصاد كان: عيسى عبده، دلاور علي، حمدي النشار، صلاح نامق.. إلخ

وغير هؤلاء كثيرون ممن أصبح لهم مكانهم المرموق في الجامعات العربية، واستمر هذا الاستقطاب للأساتذة المتميزين إلى أواخر سبعينيات القرن الماضي، إذ أخذت كليات الجامعة تعتمد على أساتذة ممن أوفدتهم في بعثات و نالوا شهادات عليا، وقد أوفدت الجامعة أول دفعة من المعيدين في كلية الآداب وعددهم أحد عشر معيداً في فبراير 1961 إلى الولايات المتحدة للدراسة العليا في جامعاتها والعودة للتدريس في الجامعة، وأوفدت بعد ذلك المتفوقين في كل دفعة من جميع الأقسام والكليات الإنسانية والعلمية وقد لوحظ حرص هذه الدفعات التي كونت كادر أعضاء هيأة التدريس على مواصلة الدراسة في أرقى الجامعات وأكثرها شهرة في الولايات المتحدة وأوروبا ومصر، وكان عطاؤهم بعد عودتهم متميزاً وأفادوا من خبرة الأساتذة الأعلام الذين كانوا في مختلف الأقسام في كليات الجامعة من حيث مناهج البحث والتدريس كما رسخوا تقاليد جامعية أسوة بالجامعات العريقة التي درسوا بها.

استمرت الجامعة الليبية بهذا الاسم منذ إنشائها، وتوسعت في إنشاء الكليات في بنغازي وطرابلس والبيضاء، ثم رؤي أن تقسم الجامعة إلى جامعتين باسم جامعة طرابلس وجامعة بنغازي وكان ذلك في سنة 1973، وفي 1976 غير اسم جامعة طرابلس إلى جامعة الفاتح، وجامعة بنغازي إلى جامعة قاريونس.

وتوسعت هاتان الجامعتان لاستيعاب الأعداد المتزايدة من مخرجات التعليم العام فانشئت كليات جديدة و أقسام جديدة في الكليات القائمة، فكلية الآداب بجامعة قاريونس التي ابتدأت بخمسة أقسام أصبح فيها الآن أربعة عشر قسماً،

وأصبح عدد طلابها 9766 في العام الجامعي 2004 /2005 وكذلك باقي كليات جامعة قاريونس وفق الإحصائية لهذا العام إذ يلاحظ أن مجموع الطلاب قد بلغ 51877(5).كما خرّجت جامعة قاريونس عشرات الآلاف في مختلف التخصصات وقد خرّجت كلية الآداب منذ إنشائها خمساً وأربعين دفعة منذ العام الجامعي 1958 - 1959 إلى 2003 - 2004 ما مجموعه 22608 طالباً وطالبة، وخرّجت كلية الطب البشري سبعاً وعشرين دفعة منذ العام 1976 إلى 2004 ومجموع ما خرّجته 3162 طبيباً وطبيبة، وقد أُتيحت الفرصة للدراسة لأبناء الأمة العربية والإسلامية و أبناء القارتين: أفريقيا وآسيا.

استقلت كلية الطب البشري و كلية طب الأسنان و كذلك كلية الصيدلة عن جامعة قاريونس سنة 1984 و أصبحت تسمى هذه الكليات بجامعة العرب الطبية ولكنها أعيدت إلى رحاب جامعة قاريونس مرة أخرى سنة 2004 و كذلك الأمر بالنسبة لجامعة الفاتح للعلوم الطبية التي أعيدت مرة أخرى إلى جامعة الفاتح.

والجدير بالملاحظة أنه في تسعينيات القرن الماضي توسع في التعليم الجامعي والعالي وأنشئت فروع للجامعات في مختلف مدن الجماهيرية، ولكن بعض هذه الفروع استقلت بأسماء جامعات جديدة، غير أنها عانت من نقص في متطلبات التعليم العالي الأساسية و في مقدمتها أعضاء هيأة التدريس والمكتبات و المختبرات والمرافق الجامعية الأخرى، وقد لوحظ هذا النقص فضمت هذه الجامعات الناشئة إلى الجامعات الكبرى مرة أخرى، ولا تزال في حاجة إلى إعادة النظر لاستكمال النقص بها وربما لإلغاء بعضها التي لا تتوافر فيها المتطلبات الأساسية ولا الظروف الأخرى الملائمة للدراسة.

كما أنشئت جامعات أهلية خاصة، لم تتوافر في معظمها متطلبات التعليم الجامعي، ومنها ما خطا خطوة أخرى إذ بدأت في برامج الدراسات العليا، ونخشى أن تمنح شهادات جامعية وعليا دون المستوى المطلوب، ولذا ينبغي أن تكون هناك هيأة للإشراف على هذه الجامعات وتتابع الإشراف الذي يمنحها الاعتراف بالشهادات التي تمنحها لخريجيها أسوة بما هو معمول به في بقية أقطار الوطن العربي، ولا يترك الأمر دون رقابة علمية مستمرة.

وأيا ما كان الأمر فإن الجامعة الليبية التي أصبحت جامعة قاريونس ممثلة في كلية الآداب نواتها الأولى، قد مر على إنشائها خمسون عاماً و أسهمت في تكوين جيل جديد نهض بالوطن في مختلف المجالات وأدت رسالتها على أكمل وجه، في حاجة الآن إلى وقفة متأنية لدراسة وضع التعليم الجامعي والعالي واستحداث تخصصات جديدة وتطوير ما هو موجود فعلا من تخصصات حتى

توازن بين حاجات المجتمع المتجددة وسوق العمل، والإبداع الفكري والعلمي والتقني، وطرق التدريس ووسائله، وهذه الوقفة تنسحب على بقية الجامعات والأكاديميات والمعاهد العليا التي نشأت وتنشأ، وينبغي إنشاء مجلس أعلى للجامعات للتخطيط يضم الخبراء في مختلف التخصصات لتلبية حاجات المجتمع حتى لا يكون التعليم وبخاصة التعليم الجامعي والعالي لاستيعاب مخرجات التعليم العام فحسب وحتى لا يقاس التقدم العلمي بالكم وإنما بما تعده الجامعات وما في مستواها من معاهد وأكاديميات من خريجيها لحاجة سوق العمل والنهوض بمستوى الأداء العلمي والإداري وكل متطلبات التقدم التي تؤدي إلى مواكبة ما يستجد في العالم.

وكانت الخطوة الثانية بعد إنشاء الجامعة، أن تطور مرافقها التعليمية لتستوعب الأعداد المقبلة للدراسة، فوضع الحجر الأساسي لبناء مدينة جامعية في بنغازي سنة 1968 وانجز هذا العمل العملاق سنة 1974 بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر، وقد كان افتتاح هذه المدينة الجامعية المتكاملة يوم 16.4.1974 يوماً مشهوداً، إذ دعي إلى افتتاح الجامعة وزيارة مرافقها أعداد كبيرة من المواطنين ورؤساء الجامعات العربية وغيرهم، وقد كانت هذه المدينة الجامعية الجديدة موضع إعجاب الجميع إذ لم تكن أي جامعة عربية آنذاك في مستواها، وانعقد في تلك المناسبة مجلس اتحاد الجامعات العربية في رحاب هذه الجامعة التي صارت حديث الجميع داخل الوطن و خارجه (6).

أبطأت الجامعة الليبية في بدء الدراسات العليا لعدم وجود الأساتذة المقيمين وحتى يتهيأ جهاز أكاديمي من أبنائها يعتمد عليه في مواصلة الدراسة العليا في مختلف الأقسام و الكليات، و بدأت الدراسة في برنامج الماجستير في كلية الآداب سنة 1972 ثم توالى الاتساع حتى شمل في السنوات الأخيرة كل الأقسام و معظم كليات جامعتي قاريونس والفاتح، وقد بلغ عدد من حصلوا على درجة الماجستير من جامعة قاريونس وحدها 1250 طالباً و طالبة في مختلف الكليات (7)، كما بلغ عدد الحاصلين على درجة الدكتوراه 16 باحثا و باحثة (8)، وبلغ عدد المسجلين للدراسات العليا لدرجة الدكتوراه 13 طالبا و المسجلين لدرجة الماجستير 1802 طالبا و طالبة(9).

- تفاعلت الجامعة الليبية منذ إنشائها مع تطلعات المجتمع فكان إنشاؤها خطوة بناءة لدعم وحدة ليبيا وشعبها، إذ تعارف أبناؤه الذين جمعتهم الدراسة في مختلف كلياتها وتوطدت الصلات بينهم واتحدت الأهداف واتسعت آفاق التفكير، وخفت حدة الجهوية والقبلية وحلت محل هذا فكرة خدمة الوطن والنهوض به، كما

جعلت الجامعة وكلية الآداب في بنغازي من هذه المدينة عاصمة ثقافية وبما يلقى الأساتذة من محاضرات عامة في مدرجات الجامعة وفي النادي المصري والمركز الثقافي العربي بما ألفوه ونشروه من كتب ومجلات بل قام الطلبة بنشر مجلات طلابية كانت المنار سنة 1958 إحداها ثم مجلة قورينا وغير ذلك من جرائد حائطية أو مطبوعة، كما كانت المؤتمرات العلمية المتخصصة في تاريخ ليبيا وجغرافيتها والحياة الأدبية فيها، كما كانت الدراسات الاجتماعية والحفريات الأثرية، بعضاً من أوجه النشاط التي قامت بها كليات الجامعة وأقسامها.

وقد حرصت الجامعة على دعوة أساتذة زائرين من ذوي المكانة العلمية فكان من بين من ألقوا محاضرات في ربوعها:

1) المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي.
2) العالم التونسي الفاضل بن عاشور.
3) شيخ الجامع الأزهر الأستاذ عبد الحليم محمود.
4) الأستاذ محمد أبو زهرة.
5) المستشرق الفرنسي شارل بيلا.
6) المستشرق الإيطالي جابريللي
7) الصحفي البريطاني مايكل آدامز.

أكرمت الجامعة من كان لهم دور بارز بمنحهم شهادة الدكتوراه الفخرية، لأسوة بما تفعله الجامعات العريقة، فقد منحت هذه الشهادة للآتية أسماؤهم لدورهم السياسي المتميز:

1) إميل سان لو، مندوب هايتي في الأمم المتحدة. 1958[10].
2) أحمد بن بله؛ أحد قادة الثورة الجزائرية بعد إطلاق سراحه 1962.
3) أحمدو بللو؛ رئيس وزراء شمالي نيجيريا 1964.
4) أبو دجاجة حاكم مالطا 1972.
5) العقيد معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة 1995 [11].

هذا قليل من كثير يذكر في مناسبة احتفالات الجامعة بعيدها الخمسين آملين أن تحث السير في إرساء دعائم النهضة العلمية و تكوين أجيال تبني الوطن رافعة رأسها مفتخرة بهويتها العربية الإسلامية وترسي قواعد بناء التنمية الشاملة

وفق دراسات معمقة و تخطيط علمي دقيق، و تسهم في بناء الحضارة الإنسانية كعنصر فاعل ذي أثر إيجابي لا يتلقي ما تنتجه الإنسانية من حواليه كمستهلك يستورد العلم ومنتجاته كما يستورد السلع الاستهلاكية.

جدول رقم (1)

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الإدارة العامة للدراسات العليا والتدريب

قسم الدراسات العليا

إحصائية بعدد طلاب الدراسات العليا الحاصلين على درجة الإجازة العالية (الماجستير) بكليات جامعة قاريونس

من العام الجامعي 1981–2005 ف

الكلية	ليبيون		غير ليبيين		المجموع
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
الآداب	176	103	26	3	308
الاقتصاد	153	67	16	3	239
القانون	69	22	9	–	100
العلوم	127	92	11	5	235
الهندسة	92	9	14	2	117
الطب البشري	125	125	1	–	251
الصيدلة	–	–	–	–	–
العلوم الصحية	–	–	–	–	–
طب الأسنان	–	–	–	–	–
المجموع	742	418	77	13	1250
	1160		90		

جدول رقم (2)

إحصائية بعدد طلاب الدراسات العليا
الحاصلين على درجة الإجازة الدقيقة (الدكتوراه)
بكليات جامعة قاريونس
من العام الجامعي 2004–2005 ف

الكلية	ليبيون ذكور – إناث		غير ليبيين ذكور – إناث		المجموع
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
الآداب	10	1	1	–	12
الاقتصاد	–	–	–	–	–
القانون	1	2	–	–	3
العلوم	1	–	–	–	1
الهندسة	–	–	–	–	–
الطب البشري	–	–	–	–	–
الصيدلة	–	–	–	–	–
العلوم الصحية	–	–	–	–	–
طب الأسنان	–	–	–	–	–
المجموع	12	3	1	–	16

جدول رقم (3)

إحصائية بعدد المسجلين لدرجة الإجازة الدقيقة (الدكتوراه) بكليات جامعة قاريونس

الكلية	ليبيون		غير ليبيين		المجموع
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
الآداب	6	2	–	–	8
الاقتصاد	–	–	–	–	–
القانون	4	1	–	–	5
العلوم	–	–	–	–	–
الهندسة	–	–	–	–	–
الطب البشري	–	–	–	–	–
الصيدلة	–	–	–	–	–
العلوم الصحية	–	–	–	–	–
طب الأسنان	–	–	–	–	–
المجموع	10	3	–	–	13

جدول رقم (4)

إحصائية بعدد المسجلين في الدراسات العليا بمختلف كليات جامعة قاريونس من العام الجامعي 2004–2005 ف

الكلية	ليبيون ذكور – إناث		غير ليبيين ذكور – إناث		المجموع
الآداب	253	334	4	8	599
الاقتصاد	182	150	3	1	336
القانون	44	67	1	1	113
العلوم	115	214	4	7	340
الهندسة	140	27	6	1	174
الطب البشري	118	117	3	2	240
المجموع	852	909	21	20	1802
	1761		41		

جدول رقم (5)

الإدارة العامة لشؤون أعضاء هيأة التدريس

إحصائية عددية بأعضاء هيأة التدريس بجامعة قاريونس

خلال العام الجامعي 2004\2004ف

الكلية	الليبيون: المتواجدون – دكتوراه	المتواجدون – ماجستير	الموفودون – دكتوراه	الموفودون – ماجستير	المنتدبون والمصعدون – دكتوراه	المنتدبون والمصعدون – ماجستير	المغتربون – دكتوراه	المغتربون – ماجستير	المجموع
الآداب	74	91	-	27	4	3	12	11	222
الاقتصاد	42	51	-	25	10	3	3	1	135
القانون	12	10	-	4	1	2	3	-	32
العلوم	85	58	-	47	5	-	30	12	237
الهندسة	27	23	-	41	3	-	20	3	117
الطب البشري	148	21	-	19	=	-	22	4	214
طب الأسنان	11	23	-	19	-	-	4	3	60
الصيدلة	2	6	-	1	-	-	5	-	14
العلوم الصحية	6	7	-	-	-	-	4	6	23
الفكر الجماهيري	-	3	-	-	-	-	-	-	3
إعداد المعلمين	-	10	-	2	-	-	5	8	25
آداب وعلوم المرج	3	23	-	-	-	-	30	16	72
إعداد المعلمين/المرج	-		-	-	-	-	6	4	10
آداب وعلوم/ الحزام	-	-	-	-	-	-	-	-	-
إعداد المعلمين/ الحزام	-	-	-	-	-	-	-	-	-
زراعة الحزام	-		-	-	-	-	2	1	3
آداب وعلوم/اجدابيا	1	-	-	-	-	-	14	4	19
إعداد المعلمين/اجدابيا	-	-	-	-	-	-	7	4	11
آداب وعلوم /الواحات	-	-	-	-	-	-	-	-	-
آداب وعلوم/الكفرة	-	2	-	2	-	-	13	11	28
إعداد المعلمين/الكفرة	-	-	-	-	-	-	1	9	10
المجموع	441	328	-	187	23	8	181	97	1235

الهوامش

(1) أنشئت جامعة الرياض سنة 1957، و ضمت الكليات في العراق لتؤسس جامعة بغداد سنة 1958، والجامعة الأردنية سنة 1962 و كذلك جامعة الكويت سنة 1962 ثم توالى إنشاء الجامعات العربية حتى بلغ عددها الآن حوالي 140 جامعة أعضاء في اتحاد الجامعات العربية .

(2) و هو مصري، كان مستشارا فنيا لوزارة التعليم و التربية المصرية و عين مستشارا فنيا لوزراة المعارف في ليبيا بعد تقاعده سنة 1955 .

(3) الأساتذة هم : د.طه الحاجري (الأدب العربي)، د.عبد الهادي شعيرة (التاريخ)، د.عبد الهادي أبو ريدة (الفلسفة)، د. عبد العزيز طريح شرف (الجغرافيا) .

كما تعاقدت الجامعة مع الأستاذ وليامز و قد كان أستاذاً للغة الإنجليزية بجامعة الاسكندرية قبل عودته إلى بريطانيا .

(4) شغل كاتب المقال منصب أمين عام اتحاد الجامعات العربية للفترة 1984 – 1991، و لذا فهو غير ملم بأسماء بعض من تولوا رئاسة الجامعة أو أمانة اللجنة الشعبية للجامعة بعد سنة 1984 .

(5) انظر الجدول رقم 1 الخاص بإحصائية جامعة قاريونس بمختلف كلياتها، و قد بلغ أعضاء هيأة التدريس بكليات جامعة قاريونس خلال العام الجامعي 2004 –2005 ما مجموعه 1235 عضوا و لا يشمل هذا العدد المتعاونين للتدريس من خارج الجامعة سواء من الحاصلين على الدكتوراه أو الماجستير (انظر الجدول رقم (6)، و يلاحظ أن نسبة عدد الطلاب إلى أعضاء هيأة التدريس لا تختلف كثيراً عن النسبة الموجودة في أغلب الجامعات العربية، و لكنها أقل بكثير من النسبة التي تحرص عليها الجامعات الأوروبية و الأمريكية، مما يؤثر على عطاء الأساتذة و استفادة الطلاب .

(6) تجدر الإشارة إلى أن الدعوة إلى إنشاء اتحاد للجامعات العربية قد انطلقت من الجامعة الليبية في اجتماع حضره بعض رؤساء الجامعات العربية في بنغازي سنة 1961 ثم أحيل الاقتراح إلى جامعة الدول العربية فأوصت بإنشاء هذا الاتحاد على أن يكون هيأة مستقلة أعضاؤها رؤساء الجامعات العربية و تنشأ له أمانة عامة يختارها رؤساء الجامعات الأعضاء في الاتحاد، و قد ضم الاتحاد عند نشأته سنة 1964 خمس عشرة جامعة فقط و يضم الآن في عضويته أكثر من 140 جامعة عربية .

(7) انظر الجدول رقم 2 .و هذه الإحصائيات خاصة بجامعة قاريونس على اعتبار أنها نواة الجامعة الليبية و امتداد لها .

(8) انظر: الجدول رقم 3 .

(9) انظر: الجدولين رقمي 4، 5

(10) كان إميل سان لو مندوب جمهورية هاييتي في الأمم المتحدة عندما عرضت قضية ليبيا سنة 1949 و كان صوته قد رجح جانب القرار القاضي باستقلال ليبيا رغم تعليمات دولته بالتصويت ضد القرار، كما كان تصويته في صالح القضية الفلسطينية عندما عرض مشروع التقسيم سنة 1947 .

(11) منح الأخ قائد الثورة شهادة فخرية أخرى من كلية القانون بجامعة قاريونس كما منح شهادات فخرية أخرى من جامعة الفاتح و غيرها من الجامعات داخل الجماهيرية و خارجها .



الجامعة الليبية وجلال الليبيين

في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم

د. فرج نجم

(ليبيا وعلى الرغم من توغلها في التاريخ لم تُعرف كمركز سياسي مؤثر أو علمي كان له إشعاع على المنطقة حتى مع بروز بعض من أبنائها الذين تركوا آثاراً عظيمة في الحضارة الإنسانية سواء قبل الإسلام أو بعده. فلقد كان لليبيين لغتهم الخاصة بهم والمتداولة رسمياً وشعبياً، فهي مكتوبة ومعروفة بالأبجدية الليبية. استعملت هذه اللغة من فزان جنوباً حتى جزر الكناري غرباً، ولايزال بعض منها يستخدم بين قبائل الطوارق وتعرف بـ تيفناغ. والحروف الليبية تكتب من اليمين إلى الشمال كالعربية، وتحاول بعض المؤسسات الأمازيغية جاهدة في المغرب الكبير إنعاشها وإعادة استعمالها).

"عظماء من ليبيا"...

ومن هذه الشخصيات التي أفرزتها التربة الليبية فتركت بصماتها على الحضارة الإنسانية وخاصة في علم اللاهوت المسيحي كان القديس مرقس، كاتب أحد الأناجيل الأربعة، وأحد أقداس الكنيسة الأرثوذكسية على وجه الخصوص. ولد في القرن الأول الميلادي بالجبل الأخضر بوادٍ يسمى "مرقس"، وينسب إليه تأسيس كنيسة الإسكندرية، ويعتقد أنه مات فيها ودُفن هناك، لازم القديس بطرس في سفره وتبشيره، وكتب إنجيله حوالي سنة 64م، كما يعتبر راعي مدينة فينسيا الإيطالية.

والآخر الذي ترك أثراً في تاريخ الفقه الإسلامي، ويعتبر أول من جلب ونشر المذهب المالكي في الفضاء المغاربي هو علي بن زياد العبسي،(1) الطرابلسي المولد والنشأة. تلقى المذهب عن صاحبه الإمام مالك في المدينة المنورة، إمام دار الهجرة،(2) ثم عاد إلى طرابلس مصحوباً بالموطأ الذي تشرف بكونه أول من أدخله إلى إفريقية،(3) وعمل على نشر أصول وفلسفة المذهب الجديد في ربوع ليبيا. وانتقل ابن زياد إلى القيروان للتدريس في جامعها الكبير، فتتلمذ عليه العالم والقاضي سحنون بن سعيد التنوخي، والبهلول بن راشد، وأسد ابن فرات (4). وأخذ عنه المذهب ونشره في القرن الثالث الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) في الشمال الأفريقي (5).

أما على الصعيد الأدبي وخاصة في علم اللغة وفنونها، فإن من أشهر الليبيين- والعجب أنه لا يُعرف بليبيته وخاصة بين الليبيين – هو محمد بن مكرّم المُشهور بابن منظور صاحب لسان العرب، سليل الصحابي رويفع الأنصاري صاحب ذاك المرقد الشهير في مدينة البيضاء المعروف عند العامة بسيدي رافع. رَوَى عنه – أي عن ابنِ منظور – السبكي والذهبي وقال: تفرد في العوالي. وكان ابن منظور مغرماً باختصار كتب الأدب المطولة كالأغاني والعقد الفريد والذخيرة ونشوار المحاضرة وغيرها. ولكن المجهود الذي شهره كان ذاك المعجم العربي الذي توزع على عشرات المجلدات ليدون للعرب لسانهم ويصون مفرداتهم، وبه وصفه الشيخ المؤرخ الطاهر الزاوي بالعلامة الجهبذ والأديب الشاعر الناثر، قدوة المحققين، وفخر العلماء الراسخين. وقد أكد الشيخ الزاوي جازماً طرابلسية ابن منظور، وفند وأنكر على من كناه بالإفريقي تارة وبالمصري أخرى، وأصر على ليبيته بطريقته المعهودة ولم أجد من يعارضه في ذلك (6).

ولا أنسى في وقتنا هذا الأستاذ محمد أبوبكر بن يونس (1931-2001م) أول عضو في هيئة التدريس لأول كلية حقوق في ليبيا بالجامعة الليبية، وصاحب موسوعة "التشريعات العربية" التي تتضمن جميع النظم والتشريعات النافذة المفعول بها في جميع الدول العربية وعلى جميع مستويات التشريع الصادرة باللغة العربية، وأكبر موسوعة دولية في مجال التشريع في العالم، الذي استطاع أن يدخل بها كتاب موسوعة جينيس للأرقام القياسية ومقرها بريطانيا التي سجلت وشهدت بأن "أكبر موسوعة في العالم هي موسوعة التشريعات العربية لصاحبها محمد أبوبكر بن يونس" في 14 أكتوبر 1999م، حيث ربا عدد مجلداتها على

مائتي مجلد يضاف إليها الفهارس والملاحق تقع في مائة وعشرين ألف صفحة ووزنها أربعة قناطير ومعها أول فهرس عام للتشريعات العربية.. [7]

فهذه نتف من تاريخ بعض من عظماء ليبيا الأجلاء الذين كان لهم أثر في الساحات العالمية والإقليمية، فيا ترى صدقاً ما قاله المشككون من أن أولئك العظام كانوا فلتات لا غير، وأنا أترك الحكم للقارئ.

العلم والتعلم في ليبيا ...

هذا على صعيد الرجال أما المؤسسات فلم تنل ليبيا نصيبها من دور العلم التي تليق باجتهاد أبنائها، ومازالت المشكلة قائمة، فلقد تميزت ليبيا عن دول الجوار بقلة حواضرها إذا ما قورنت بمصر أو تونس، فالبداوة الصارمة كانت السمة الغالبة على معظم سكانها حتى قال أحد أبناء بادية برقة: "لا نا من قرطاسة الكواغط ولا من مصاصة أقلام الكوبيا"، أي لسنا تجاراً نبيع الجرامات في قراطيس ورقية صغيرة كما كان الحال إبان سنوات الجرامات، ولسنا ممن يبري أقلامه وذلك عن طريق مصها بالفم، وهذه كناية على أن جل الليبيين لم يعرفوا "الحضارة" سواء بالتبادل التجاري بأنماطه المدنية أو مراكز علم كالأزهر والزيتونة، بل عرف عن بدو ليبيا الشدة والجلد والقتال حتى قال أحدهم للباحث ايفانز بريتشارد، عالم الأنثروبولوجيا البريطاني، مؤكداً جهل البدو بتعاليم دينهم الذي هم مستعدون أن يفنوا من أجله، فقال قائلهم: نحن "نجاهد ونصوم"(8) فقط، وكأن الإسلام حُصر في القتال والصيام.. والجهاد والصيام من علامات الجلد ومنازلة المشاق.

وبالطبع لا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات، فعلى سبيل المثال المنطقة الغربية وخاصة طرابلس وأحوازها عُرفت بحضور علمي مكثف، ولكنه في مجال ضيق متمثلاً في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس أصول الفقه واللغة بفروعها المختلفة من نحو وبلاغة وشعر وغيرها في حين كانت برقة تغط في سبات القبلية وجاهلية الثارات، بينما انفردت فزان بحفظ القرآن أكثر من غيرها حتى عُرف الفزازنة بـ "الفقهاء" و"المرابطين" لكثرة الصلحاء وأهل الاستقامة بينهم.

ففي طرابلس كان لكل من جامعي أحمد باشا (وكان يطلق عليه كلية أحمد باشا القرمانلي) وسيدي درغوت حضوراً علمياً اصطبغ بصبغة ثقافية ذات ملامح أدبية ولكن ظلت الدراسة تسير فيهما على النظام الوقفي القديم، بينما بقيت زاوية الابشات في مدينة الزاوية وزاوية، كل من الشيخ عبد السلام في زليطن وزاويتا الزروق والمحجوب في مصراتة، تدرس النمط المتبع في الأزهر

الشريف، حيث يختار الطالب شيخه، ويدرس العلم الذي يهواه، كذلك نظام العزابة وحلقات ذكر الإباضية في جبل نفوسة قاصرة على القرآن وعلومه فيما يلائم استعداد المتلقي الفطري ويوائم قدرته على التحصيل من هذه المعارف والمناهج التي هي عبارة عن كتب معينة تمثل مستويات الطلبة كموطأ مالك، وألفية ابن مالك، وشروح وحواشي الأجرومية، والرسالة، وشروح الخريدة، وحفظ الأوراد والوظائف.. إلخ، ولم تمنح هذه المؤسسات الأهلية العلمية درجات أو شهادات علمية بل كان يجيز الشيخ تلميذه ولكل طريقة خاصة به في الإجازة.

يرجع فضل هذا النوع من العلم والتعلم إلى الطرق الصوفية التي تغلغلت في المجتمع الليبي لسد الفراغ الروحي والعلمي والحياتي الذي خلفه الإسلام الرسمي المتمثل في المؤسسات الدينية والإهمال الحكومي (9). ولكن هذه الطرق تأثرت بدورها بالمجتمعات التي أثرت هي فيها. فكانت هناك طرق تكيفت مع المجتمع الحضري في المدن وبعض القرى، ومنها العروسية والعيساوية والمدنية، ولكن بقي الريف، أو كما يسميه الليبيون بـ "بر البوادي"، خالياً من الطرقية التي لم تتلاءم مع عادات البدو وتقاليدهم، ولم ينسجم البدو مع طقوس وتعاليم هذه الطرق، وبذلك بقيت البادية بعيدة عن التعاليم الإسلامية، مع أنها أصرت على إسلامها كما ذكرنا سالفاً، ولم تتبن أو تعترف بفصل الدين عن الدنيا ولم تشرع لنفسها عن قصد أو براءة من الإسلام (10). وتركت البادية ضعيفة التدين لعدم توفر الدعاة والمصلحين من أبناء البادية أو الوافدين، حتى أتت السنوسية التي استطاع مؤسسها السيد الإمام محمد بن علي السنوسي (ما بين 1837 إلى 1859م) (11). بأسلوبه المتميز اختراق عقلية وثقافة البدو. وكان مصلحاً ومجدداً كما أخبرني كل من الدكتور أحمد صدقي الدجاني والدكتور نقولا زيادة اللذين درسا حركته دراسة جيدة، حيث أصلح الرجل حال البدو اجتماعياً وجدد لهم أمر دينهم (12).

وسرعان ما ارتقت الطرق الصوفية وخاصة السنوسية من طريقة صوفية تردد الأوراد والأذكار إلى حركة إحيائية انتقلت بالمجتمع القبلي إلى مستوى أكثر حنكة ممّا كان عليه، ولكن ما لبث التيار الصوفي أن وقع في براثن البدو وأصيب بشيء من سلبياتهم، لا سيما التحجر الأمر الذي شد الحركات الصوفية وعلى رأسها السنوسية إلى الوراء، وألبسها ثوب "العلمنة" البدوية، وذلك بتمييع الإسلام الحقيقي بإسلام الطلاسم والدروشة الذي أدى إلى عقم السنوسية بأن تنجب مصلحين كرجالاتها من الجيل الأول، ولهذا فشلت في تخريج زعماء

دينيين مجددين مثل الإمام السنوسي الكبير ونجليه السيد محمد المهدي والسيد محمد الشريف وغيرهما.

والجدير بالذكر أن السيد الإمام محمد بن علي السنوسي بعدما ترك كل شيء في بلده الأصلي في الواسطة بمستغانم الجزائرية أسس أول زاوية له في تاريخ الطريقة في جبل أبي قبيس بمكة المكرمة سنة 1837م [13]. ثم جاء ليستقر بالجبل الأخضر ويبني زاويته البيضاء التي عرفت بأم الزوايا سنة 1842م، لتصبح النواة الحقيقية لحركة إصلاحية عريقة ودولة مستقلة يقودها أحد أحفاده بعد وفاته بقرن من الزمان. ومن ثم انتقل السيد الإمام إلى واحة الجغبوب وتوفي بها، ليترك فيها آثاره ومجهوداته الفكرية والإدارية وليجعل لها شأناً عظيماً. وهي الواحة التي كانت قبل مجيئه إليها سيئة الصيت، نائية، تفتقر إلى كل مقومات الحياة، حتى إن ماءها شديد المرارة ممزوج بملح [14]. أصبحت عاصمة للسنوسية في بادئ الأمر، ومن ثم معهداً إسلامياً على غرار الأزهر بمصر والقرويين بفاس والزيتونة بتونس، وكادت الجغبوب أن تضاهي الصروح العلمية فيما بعد إذا ما كتب لها ذلك [15].

وكان لقلة المنتسبين للجغبوب، التي أصبحت مركزاً للإشعاع العلمي والتبشيري ومكتبة مرجعية كبرى تأتي إليها الكتب الإسلامية من كل حدب وصوب، سبب في بقاء جل البدو على أميتهم وجهلهم بدينهم لأنه قَلَّ من بينهم من بعث بأبنائه للتعلم فيها مع افتخارهم واعتزازهم بالانتماء إلى الإسلام الذي فشل المبشرون والمستعمرون في اختراقه عبرهم.

فلقد كانت ليبيا أرضاً خصبة للمرابطين وللطرق الصوفية التي لقيت رواجاً وإقبالاً بين بعض القبائل والعائلات لتعليمهم وتثقيفهم إسلامياً من خلال المساجد والكتاتيب والزوايا والمدارس. وكان التعليم محصوراً في القرآن وعلومه، وكتابة اللغة العربية وقراءة الشريعة الإسلامية إلى جانب النزر اليسير من التاريخ والفكر الإسلامي. فالقبائل والعائلات الثرية كانت تبعث بأبنائها إلى الأزهر بمصر، أو الزيتونة بتونس أو بلاد الشام وتركيا. وإلى جانب هذه المعاهد المالكية، كان أتباع المذهب الإباضي من الأمازيغ يبعثون بأبنائهم إلى جزيرة جربة التونسية، أو وادي ميزاب بالجزائر أو معهد الحياة بالقرارة الجزائرية أو حتى عُمان لطلب العلم [16]. أما القبائل الفقيرة فكانت تكتفي بزواياها المحلية التي يقوم عليها بعض المشايخ من قبائل المرابطين لتلبية حاجات القبيلة مقابل السكن والأكل والشرب فقط، وهو بدوره يقوم [17].

- بتحفيظ أولادهم القرآن وتعليمهم السنة والشريعة الإسلامية.

- تعليم اللغة العربية قراءةً وكتابةً ونشرها مع تعاليم الإسلام[18].
- جمع الزكاة والصدقات والنذور والكفارات وصرفها على أهلها من الفقراء والمساكين وإيواء السابلة.
- حل المشاكل الحياتية والفصل في القضايا الدينية بين الناس[19].
- التوجيه الروحي والتعبئة السياسية والجهادية.
- خلق نوع من الاستقرار والتوازن بين القبائل المتنافسة [20].

النهضة والتأسيس...

وعندما انعتقت ليبيا من محنتها جراء الاستعمار الإيطالي منتصرة بفضل ما قامت به سواعد بنيها من صمود وشموخ وبناء بعد الحرب العالمية الثانية، بدأت البلد في اللملمة وتضميد الجراح والتعالي على الآلام، فشرع أهل الغيـرة فـي وضع هيكل لدولتهم وبناء مؤسساتها مستهلين ذلك باستقلال سياسي فـي كيـان اتحادي لم يخطر لأحد على بال في ديسمبر عام 1951م، ولم يكن يتجاوز عـدد الليبيين من خريجي الجامعات العصرية أصابع اليدين على مستوى ليبيا كلهـا، وفي عام 1943م ذكر تقرير للإدارة العسكرية البريطانية في طرابلس بأنــه لا يوجد من بين العرب (ويقصد الليبيين) أطباء أو قضاة أو حتـى محـامون. [21] وينقل الدكتور نقولا زيادة في ترجمته للوثيقة الرسمية بعنوان "ليبيا فـي سـنة 1948م": إن عدد الليبيين في الجامعات الأجنبية لا يتجاوز 65 طالبـاً حاليـاً – وأغلبهم في مؤسسات دينية كالأزهر. [22] ولكن ما هي إلا أربع سـنوات حتـى وضعوا اللبنات الأولية لصرح علمي، ليكون له ما كان فيما بعد في هيئة الجامعة الليبية وكأن ذلك كان حلماً وقد تحقق. وفي حوارات مطولة مع السيد مصـطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا الأسبق (54-1957م) وفي هذا الصدد تحديداً أكد لي على أن التعليم كان في مقدمة أولياته، ويرى أن التعليم أساس الإصـلاح، لأنــه على حسب رؤيته يحق الحقوق لأفراد المجتمع ويسـتوجب علـيهم الواجبـات بصورة جلية، ولقد أخبرني الحاج مصطفى بن حليم بكل اعتزاز وفخر، مع شيء من الضيق يخالجٍ صدره من حين إلى آخر عندما تنسب الأعمال لغير أهلها كما فعل البعض سهواً بنسب تأسيس البنك الوطني الليبي (البنـك المركـزي) إلـى حكومة محمد عثمان الصيد بينما حكومته (بن حليم) هي التـي أشـرفت علـى تأسيس البنك وأنيط، أمر إدارته للدكتور علي نور الدين العنيزي الذي أصبح أول

محافظ للبنك الوطني الوليد، فيستطرد الحاج مصطفى ساردا قصة تأسيس الجامعة وعيناه اكتحلت بعز وترورقت بفخر عن حقبة كان ديدنها وهمها البناء ابتداء من لا شيء، ومن ثم يحيلني إلى ما كتبه في هذا الصدد حتى أنقل بدقة وأوثق ما لم يحضره توه، فكتب:

"كنت أحلم بإنشاء الجامعة الليبية الأولى، وكنت أشعر بوجل وهواجس وريبة عند كل يقظة من ذلك الحلم، ذلك لأننا لم نكن نمتلك في أوائل عهد الاستقلال أي شيء يذكر من مستلزمات تلك المنارة العلمية، فلم يكن لدينا إلا ثقتنا بالله وبالوطن وعناد وتصميم على امتطاء أشد العقبات، والتغلب على كل الصعاب وصولاً لغايتنا النبيلة. وأسعدنا حسن الطالع أن كان الأستاذ محمد فريد أبو حديد (مصري) موجوداً بالقرب منا، وكان عالماً في التعليم والتربية صادقاً في عروبته ومتفانياً في عمله بإخلاص، فكان أول من استشرت وكان أكثر من حثني وعاونني بحماس وإخلاص فاتفقت معه على مخطط متكامل لكل ما يتعلق بإنشاء الجامعة، ثم ناقشناه مع الزميل وزير التربية (المعارف) عبد السلام بسيكري الذي بدا متردداً متسائلاً، سرعان ما انجذب إلى تيار حماسنا الجارف واشترك بحماس في تحقيق ذلك الحلم الجميل، ثم كونا لجنة برئاسة وزير التربية وعضوية أبو حديد وعدد من الخبراء الذين انكبوا على التخطيط والإعداد لبرامج الدراسة واللوائح الجامعية ولوائح الكليات وقانون إنشاء الجامعة.. إلخ. وتوجهت إلى الملك إدريس وما ان سمع بمشروع إنشاء الجامعة إلا وأبدى ترحيباً وتشجيعاً وبادرني، قبل أن ألتمس منه، بالتنازل عن قصر المنار ليكون مقر الجامعة الليبية الأولى، كما أهداهم قصر الغدير الذي كان يُعرف بالجخ ليصبح مقراً للكلية العسكرية الملكية الأولى في ليبيا التي افتتحت عام 1957م [23].

من قصرٍ للفاشست إلى.. المنار.. الجامعة

قصر المنار قد بناه الطليان ليصبح مقراً لوالي برقة الإيطالي في سنة 1928م تقريباً، فسكنه تروتسي، ومن بعده غراتسياني الذي قابل فيه الشهيد الرمز عمر المختار قبيل إعدامه، وكان آخر والٍ إيطالي أقام فيه بالبو الذي قتلته نيران الطليان قرب طبرق ليؤتى بجثمانه ويسجى فيه قبل دفنه في طرابلس. وبعدما تمكن الإنجليز من احتلال بنغازي عام 1943م ودحر الطليان سلموه للأمير إدريس وسمي بقصر "المنار"، الذي أعلن منه استقلال إمارة برقة سنة

1949م ومن ثم استقلال ليبيا كمملكة عام 1951م، وألقى من شرفته الشهيرة الملك إدريس خطاب الاستقلال، وقد سبق وبات موسليني بنفس القصر ليلة، وخطب من نفس الشرفة عندما زار بنغازي عام 1937م [24]. ومن ثم أصبح مقراً لكلية الهندسة والآن المعهد العالي للعلوم الإدارية.

صدر مرسوم ملكي بإنشائها ونص في مادته الأولى بأن "تنشأ في ليبيا جامعة تسمى (الجامعة الليبية) وتبدأ بإنشاء كلية الآداب والتربية ومقرها بنغازي". ونصت المادة الثانية على أنها تختص "بكل ما يتعلق بالتعليم العالي الذي تقوم به الكليات والمعاهد التابعة لها، كما تختص بتشجيع البحوث العلمية، والعمل على رقي الآداب والعلوم والفنون في البلاد" [25].

ثم يعود ويستطرد الحاج مصطفى ويكتب.. ذهبت لزيارة جمال عبد الناصر وأنا أنقل له هنا ما سبق أن كتبته عن تلك الزيارة.. وأذكر للرئيس مأثرة طيبة فقد جئته أوائل سنة 1955م وكنت أحاول تأسيس أول جامعة ليبية وقدمت له كشفاً يحتوي على أسماء ستة من خيرة أساتذة كلية الآداب في جامعة القاهرة (وكان مستشاري للشؤون التعليمية محمد فريد أبو حديد هو الذي اختار الأسماء).

ومن هؤلاء الأساتذة كل من الدكاترة محمد عبد الهادي أبو ريدة (أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة) ومحمد عبد الهادي شعيرة (أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس) ومحمد طه الحاجري (أستاذ النقد الأدبي بجامعة الإسكندرية) وعبد العزيز طريح شرف (أستاذ الجغرافيا بجامعة الإسكندرية) [26].

ويستطرد الحاج: قلت للرئيس جمال أود أن ينتدب هؤلاء الأساتذة الستة للعمل في أول كلية آداب وتربية في ليبيا، فوعد أن يتحدث مع رئيس الجامعة المصرية ويبلغني في الغد، وعندما قابلته في الغد، قال لي ضاحكاً: هل تريد انهيار الجامعة المصرية؟ إن هؤلاء الأساتذة الستة هم الأعمدة الرئيسية التي تقوم عليهم كلية الآداب المصرية ! أستطيع أن أعطيك واحداً أو اثنين منهما ولكن.. فقاطعته قائلاً: إنني لا أريد انهيار الجامعة المصرية التي تخرجت فيها منذ عشر سنوات، ولكني أريد أن أبني الجامعة الليبية ولديك في مصر عدد كبير ممن يحل محل هؤلاء الستة، وليس لدي أحد يقوم بعملهم. فأطرق ملياً، وقال: وليكن ما يكون، سأنتدبهم للعمل لمدة سنتين في الجامعة الليبية وكان أولئك الستة خير أساتذة أسسوا كلية الآداب الليبية على أحسن أسس وكانت مرتباتهم على نفقة الحكومة المصرية [27]. ورشحت الحكومة الأمريكية الأستاذ الدكتور مجيد خدوري (عراقي الأصل أمريكي الجنسية) [28]. عميد مركز دراسات الشرق

الأوسط بجامعة جونز هوبكنز للدراسات العليا، ليكون عميداً لكلية الآداب والتربية (وصل بنغازي في يناير 1957م)، وكان انتداب ذلك العالم الجليل على نفقة الحكومة الأمريكية، وقد سبقه إلى ذات الوظيفة الأمريكي ويليام كليلاند.

وتم بعون الله في يوم 15 ديسمبر 1955م تأسيس الجامعة الليبية الأولى بصدور المرسوم الملكي بإنشائها، وافتتحت أولى كلياتها - كلية الآداب والتربية - باحتفال أكاديمي مهيب رسمياً يوم 23 يناير 1956م[29] حضره رئيس الوزراء مصطفى بن حليم في لفيف من الوزراء والساسة وأهل العلم والمثقفين، وضمت الجامعة واحداً وثلاثين طالباً في ذلك الوقت وعدد ستة من الملاك التدريسي وتسعة من الكادر الوظيفي.

ويستكمل الحاج مصطفى كاتباً: وما أن فرغنا من افتتاح الكلية الأولى حتى نشطنا بالتحضير لتأسيس الكلية الثانية - كلية العلوم - ولجأت مرة أخرى للرئيس عبد الناصر واستعرت منه الأستاذ أحمد خليل الريس، أستاذ العلوم في الكلية الحربية المصرية (وكان أستاذاً للرئيس عبد الناصر عندما كان طالباً في الكلية العسكرية) ولم يوافق الرئيس جمال عبد الناصر على استرجاع الأستاذ الريس إلا بعد أن أقنعته بالتدليل والبرهان أن أستاذه أحمد الريس ليبي الأصل والمولد (كان أبوه من كبار تجار مصراتة الذين استقروا في الإسكندرية) وليس مصرياً كما كان يظن! وحصلنا على مجموعة ممتازة من أساتذة العلوم والكيمياء والفيزياء على نفقة حكومة لندن، كما حصلنا على المعامل الحديثة تبرعاً من الحكومة الأمريكية وجرى افتتاح كلية العلوم في طرابلس في أوائل عام 1956م.

وفي أحد لقاءاتي مع الدكتور علي الساحلي أكد لي أن أهم المحطات في حياته هي ارتباطه بالجامعة الليبية في بنغازي تأسيساً وتدريساً فيها، ويرجع ذلك عندما استوزره السيد مصطفى بن حليم في 26 إبريل 1955م ليصبح وزيراً للمالية. فعندما شرع جيل الاستقلال في تأليف لجنة تسهر على تأسيس أول جامعة ليبية حديثة، اختير الدكتور علي الساحلي ليكون رئيساً لهذه اللجنة، لكونه وزيراً وبحوزته "محفظة" الوطن، ولديه الحماس الكافي لتدشين هذا الصرح الوطني المهم. وبالفعل انطلق مع بقية إخوانه في هذا العمل بهمة وحماس وسرعان ما أصبحت الأمور كما خطط لها[30]. وقد أخبرني الأستاذ عبد المولى دغمان بأن فائض ميزانية الجامعة كان هو الفائض الوحيد الذي لا يرجع إلى الميزانية العامة للدولة، بل كان يرجع ثانية إلى الجامعة، للاستثمار في الكتب والتدريس وجلب الكفاءات لتعليم طلابنا، أو إيفادهم إلى الخارج للاستزادة العلمية.

ويستدرك الحاج مصطفى الحديث ويقول تحدثت مع انتوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا بشأن تأسيس كلية في طرابلس لتدريس الإعدادية والثانوية على شاكلة كلية فكتوريا في الإسكندرية حيث يدرس الطالب المتفوق بالعربية والإنجليزية مما يسهل عليه الدراسة في الخارج واختصار الوقت للتحصيل العلمي في أفضل الجامعات البريطانية والأمريكية، وبالفعل كان لي ذلك فقد تعاقدنا مع المجلس البريطاني الثقافي British Council وأسسنا كلية طرابلس المستقلة عن الجامعة الليبية فرع طرابلس.

الجامعة.. الأساس والأروقة ...

ثم توالى تأسيس الكليات، ففي عام 1957م أنشئت كلية أخرى هي التجارة (الاقتصاد) في بنغازي وضمت 29 طالباً، بالإضافة إلى كلية العلوم في طرابلس التي ضمت 11 طالباً، واستمر اهتمام الوزارات الليبية المتعاقبة لإكمال تأسيس الكليات المختلفة واستقدام خيرة الأساتذة، فأنشئت كلية الحقوق عام 1962م في بنغازي وضمت 71 طالباً وطالبة واحدة فقط، وكلية الزراعة في طرابلس عام 1966م وضمت 43 طالباً [31] ثم كلية الهندسة بطرابلس عام 1967م، ثم أعيد تنسيق الكليات وتوزيعها على جامعتي بنغازي وطرابلس بعد فصلهما في جامعتين مستقلتين سنة 1973م [32].

وفي عام 1973م تغير اسم الجامعة حيث أصبحت تعرف بـ جامعة بنغازي بدلاً من الجامعة الليبية ومن ثم في عام 1973- 1974م انتقلت الجامعة من مقرها القديم داخل مدينة بنغازي (قصر المنار) إلى مقرها الحالي في المدينة الجامعية في منطقة قاريونس عند مدخل المدينة للقادمين من غرب البلاد. وفي إبريل 1976م تغير اسمها من جامعة بنغازي إلى اسمها الرسمي الحالي جامعة قاريونس بينما تغيرت جامعة طرابلس إلى جامعة الفاتح. وتقع جامعة قاريونس- المدينة الجامعية - في مدينة بنغازي، ثاني أكبر المدن وعاصمة الثقافة الليبية، حيث تطل على ساحل البحر المتوسط في الشمال الأفريقي, عند تقاطع خط العرض 32° شمال خط الاستواء، مع خط الطول 20° شرق خط جرينتش [33].

تعتبر جامعة قاريونس أعرق وأفضل صرح علمي عرفته البلاد منذ ولادة ليبيا ككيان سياسي وسيادي من رحم الدولة العثمانية، وتطرح الجامعة نفسها كهيئة علمية تختص بكل ما يتعلق بالتعليم العالي وتزويد البلاد بالكفاءات العلمية المتخصصة والملتزمة بواجبها الوطني والقومي وتهيئتها للمساهمة في النهوض بالحضارة العربية والإسلامية، والاهتمام باللغة العربية وآدابها والتأكيد على

استعمالها في كافة فنون العلم والمعرفة, والرقي بالآداب والأخلاق وتطوير العلوم والفنون, وإجراء البحوث العلمية النظرية والتطبيقية والقيام بالاختبارات والتجارب العلمية المبكرة التي تسهم في رقي المجتمع وتقدمه، وتقديم الاستشارات العلمية للهيئات والمؤسسات والشركات والمصالح والأجهزة، وتوثيق الصلات والروابط الثقافية والعلمية مع الهيئات والمؤسسات العلمية الأخرى محلياً قومياً وعالمياً.

وقد علمت مؤخراً بأن شركة هندسية بريطانية قامت بتصميم عمارة الجامعة بقبتها المقدسية المذهبة ما زادها رونقاً وبهاءً وشهرةً، وقد تطورت جامعة قاريونس حيث أصبحت الآن مدينة جامعية تضم العديد من الكليات والمرافق, وأصبح لها عدة مواقع ومجمعات علميةٍ داخل مدينة بنغازي, حيث بلغت مساحتها الإجمالية حوالي (530 هكتاراً) تقريباً, ويدرس فيها الان ما يربو على (35.000) طالب وطالبة منهم حوالي (1300) طالب وطالبة من غير الليبيين, موزعين على تسع كليات (75 قسماً أكاديمياً), ويقوم بالتدريس في جامعة قاريونس حوالي (1300) من الملاك التدريسي, وحوالي (270) معيداً بالإضافة إلى حوالي (2000) من الملاك الوظيفي ...

وبلغ عدد خريجي جامعة قاريونس من جميع الكليات منذ أول دفعة تخرجت للعام الجامعي 58-1969م وحتى الآن حوالي (62.600) خريج تم حصولهم على درجة الليسانس أو البكالوريوس في تخصصاتهم العلمية المختلفة. بالإضافة إلى منحها درجة الليسانس أو البكالوريوس شرعت قاريونس في برنامج الدراسات العليا عام 1978م لمنح درجات الماجستير (درجة التخصص العالي) والدكتوراه (درجة التخصص الدقيق), ويبلغ عدد طلاب الدراسات العليا حوالي (1700) طالب وطالبة، حيث تم منح حوالي (820) شهادة ماجستير بالإضافة إلى بعض شهادات الدكتوراه في مختلف التخصصات العلمية. كما تمنح الجامعة الشهادات الفخرية في مجالات العلم والمعرفة والأدب والثقافة والسياسة والقانون والاقتصاد..إلخ.

ومن الأقسام العلمية التي تديرها قاريونس قسم اللغة العربية وآدابها، والإنجليزية وآدابها، والإيطالية وآدابها، وقسم التاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، وعلم التفسير، وقسم الآثار، واللغة الفرنسية وآدابها، وقسم الإعلام، وقسم التربية وعلم النفس، وقسم التخطيط التربوي، وقسم المكتبات والمعلومات والإدارة التعليمية، وقسم علوم التربية البدنية.

ومن معالم قاريونس المكتبة المركزية وبها وحدات تصوير وقراءة واستنساخ بالإضافة إلى ورشة للتجليد وآلات للطباعة وقد احتلت المكتبة في أول مراحلها قاعة مساحتها حوالي خمسين متراً مربعاً، وتشغل الآن أضخم مبنى في المدينة الجامعية مساحته أكثر من ستة وعشرين ألف متر مربع مقسمة على أربعة أدوار. والمكتبة المركزية أنشئت على قطعة أرض مساحتها ستة آلاف متر مربع أما مساحتها فتبلغ 26 ألف متر مربع وقد روعي في الموقع أن يكون متوسطاً بين كليات المرحلة الأولى والكليات المكملة الأخرى كما روعي أن يكون قريباً من بيوت الطلبة. وتتركز حركة دخول وخروج القراء في الدور الأول فيتم الدخول من بين حواجز معدنية دوارة ركبت فيها عدادات للإحصاء وكذلك الخروج حيث يمر بنفس الدور مع وجود ملاحظ يقوم بالكشف والمراقبة، ووصل عدد كتبها في نهاية الستينيات من القرن المنصرم أكثر من أربعين ألف كتاب، بينما تستوعب المكتبة في أدوارها الثلاثة الآن ما يقرب من مليون ونيف مجلد، وتتسع لثلاثة آلاف طالب في وقت واحد. وتتكون المكتبة المركزية من أربعة أقسام رئيسة، وهي: الخدمات المكتبية الفنية، والخدمات المكتبية العامة، والأمانة الإدارية، والمكتبات الفرعية. ويتكون كل قسم من عدة مكاتب يؤدي كل منها دوره على أكمل وجه من أجل تقديم أفضل الخدمات للمترددين على المكتبة[34]. وقد أنشئ قسم خاص يجمع كل الكتب العربية والأجنبية المؤلفة عن ليبيا في أية ناحية من نواحيه، وحتى 1966م كان للمكتبة 16 اشتراكاً بالمجلات العربية والثقافية و95 اشتراكاً بالمجلات الأجنبية وذلك لتوسيع مدارك الطلاب وتزويدهم بالآراء والنظريات الجديدة في مختلف مجالات العلم والمعرفة[35].

وفي السابق سعت الجامعة الليبية إلى تنفيذ مشروع مكتبة طالب العلم الخاصة، فاستجلبت الكتب وباعتها بأثمانها وعلى أقساط حيث تحملت إدارة الجامعة نفقات شحنها ونقلها، كما قامت بنشر عدة مؤلفات لعدد كبير من أعضاء هيئة التدريس بها، وخصصت قسماً داخلياً للذين يرغبون في الإقامة بالقسم الداخلي خاصة أولئك الذين أتوا من نجوع البادية ومن المدن والقرى البعيدة[36]. وقد وضعت الجامعة نظاماً للمكافآت المالية للطلبة والطالبات تشجيعاً لهم على مواصلة دراستهم واقتناء الكتب اللازمة.

ومن قصر المنار نفسه انطلقت الشرارة الأولى لمظاهرات طلاب الجامعة الليبية المناهضة للحكومات التي أتت تباعاً. ففي 13 يناير من عام 1964م خرج طلبة وطالبات الجامعة احتجاجا على سياسات الحكومة في طريقة تناولها القضايا العربية وردتهم الشرطة، وتجمعوا في الميدان المقابل للجامعة الذي كان يعرف بميدان 9 أغسطس [37]. وتكرر الأمر غداة اليوم الثاني (14 يناير 1964م) وأرادوا التوسع فتصدت لهم الشرطة بالذخيرة الحية وفلتت مدرسة بنغازي الثانوية التي التحمت مع طلبة الجامعة لتخرج عن سيطرة الشرطة الأمر الذي أدى إلى وقوع قتيلين من طلبة بنغازي الثانوية، وهما صالح مسعود النقاز وعلي لامين البيجو، وبعد أيام قليلة معدودة لحق بهم الطالب مفتاح بن حريز وعدد كبير من الجرحى وعرفوا فيما بعد بشهداء يناير.

وتحدثت التقارير السرية لمكتب السفارة البريطانية في بنغازي بإسهاب عن يومي 13 و14 يناير إذ ذكرت أن المظاهرات كانت ترفع شعارات مؤيدة للجامعة العربية والوحدة ومطالبة في الوقت نفسه بإرجاع فلسطين لأهلها، وقيل بأنها رفعت صوراً للرئيس جمال عبد الناصر أيضاً، وتزامن ذلك مع انعقاد القمة العربية في القاهرة التي غاب عنها الملك ومثله فيها ولي عهده السيد الحسن الرضا في مقدمة وفد رفيع المستوى يتكون من شخصيات عديدة منها رئيس الوزراء الدكتور محي الدين فكيني ورئيس مجلس الشيوخ الشيخ عبد الحميد العبار، ومفتاح عريقيب رئيس مجلس النواب وسيف النصر عبد الجليل وزير الدفاع ونوري الصديق رئيس أركان الجيش. ومن ثم تفاقم الأمر وتراشق الطلاب السباب والضرب مع الشرطة، واستطاعت الشرطة أن تقتحم الحرم الجامعي داخل قصر المنار، وحمِيَ وطيس المعركة وتحصن الطلبة بسطوح بنايات الجامعة فرجموا رجال الشرطة بالحجارة، وردت عليهم الشرطة حجارتهم فسقط عدد لا بأس به من الفريقين جرحى. وانفلت الأمر في يوم 14 يناير عندما خرجت مدرسة بنغازي الثانوية لتلتحم مع طلبة الجامعة فاستعمل رجال الشرطة عن سبق وإصرار الذخيرة الحية فكانت الحصيلة فاجعة ثلاثة شهداء من بين الطلاب، ما استمطر غضب الشارع والدولة على رجال الأمن، فأوقف عدد من الضباط من وظائفهم يوم 19 يناير إلى حين ظهور نتائج التحقيق، ومنهم كان العقيد السنوسي الفزاني (قائد القوة المتحركة) وعبد الونيس العبار (حكمدار بوليس بنغازي) والنقيب سليمان بوشعالة (من شرطة مرور بنغازي) والنقيب حمد حسين والنقيب سالم هدية (وهما من ضباط مركز شرطة حي البركة).

واهتزت البلاد فخرج طلاب في طرابلس وكانت نذر الشؤم تلوح في البلاد، وتؤكد التقارير البريطانية بأن المعارضة الحقيقية قد خرجت للنظام الملكي من أروقة الجامعة، وأن ساعة انهيار النظام قد أزفت وبدأت حين سالت دماء شهداء يناير. وقد حاول رجال الدولة الترقيع ولكن الخرق كان قد اتسع على الرغم من تشييع الشهداء في جنازة رسمية بحضور مندوب الملك والحكومة، وزيارة لجنة كلفتها الحكومة بعضوية كل من الدكتور علي نور الدين العنيزي (وزير النفط) وحامد العبيدي (وزير التخطيط) ومحمد الكريكشي (وزير الصناعة) وتطوع أعيان البلاد كحسين مازق.. وغيرهم، وقدمت تعازيها الشخصية والحكومية بزيارة أهالي الطلاب الشهداء في بيوتهم وزيارة الجرحى ومواساتهم، بل إن الملك قابل وفداً من الأهالي حملوا إليه جملة من المطالب، وأعرب لهم عن أسفه للدماء التي سالت وأكد تضامنه معهم (38).

ذكريات طالب...

يستذكر أحد الطلاب وهو الأستاذ محمود الناكوع من مواليد الزنتان عندما كان طالباً في الجامعة الليبية وتخرج في كلية الآداب والتربية سنة 1963م ويقول:.. كنا في الجامعة ندرس ونعيش ونسكن ونحصل على الكتب كلها مجانا من الدولة.. وكان هذا شيئاً جيداً لأنه أعطى فرصة لأبناء العائلات الفقيرة أن تدرس وتأخذ فرصتها. وعن وجود العنصر النسائي في الجامعة في تلك الفترة، قال:.. أذكر في ذلك الوقت أن إقبال الفتيات قليل على الجامعة، حيث لم يكن معنا فى كلية الآداب والتربية سوى ثلاث فتيات هن فتحية حسين مازق.. وقدرية بن صويد.. (ونجمية الطرابلسي)... وعن الأجواء المحيطة بالطلبة يقول الأستاذ الناكوع: بالإضافة إلى هيئة تدريس قوية.. كانت أجواء رائعة وممتازة حيث توجد جامعة منضبطة.. وإدارة حازمة تريد أن ترتقي بمستوى التعليم.. وشهدت الجامعة كذلك وصول التيارات السياسية والأدبية العابرة من الشرق العربي.. وكان المركز الثقافي المصري ببنغازي ينظم سلسلة من المحاضرات على الأقل مساء كل خميس.. وكان هناك ناد للمدرسين قريب من الجامعة ينظم محاضرات.. فكان هناك مخاض فكري ممتاز بالنسبة للطلبة وللمهتمين فى مدينة بنغازي.. وكانت رياح الثقافة تهب على ليبيا من كل الاتجاهات بوجود الصحف والمجلات العربية والأجنبية.. (39)

رؤساء الجامعة:

وقد نصت المادة 13 من مرسوم إنشاء الجامعة على أن يتولى إدارة الجامعة رئيسها ومجلسها على أن "يؤلف مجلس الجامعة على النحو الآتي: مدير الجامعة وله الرئاسة، ونائب مدير الجامعة إن وجد، ووكيل الجامعة إن وجد، وعمداء الكليات، والمستشار الفني لوزارة المعارف، ووكيل وزارة المعارف أو المدير العام لها. وثلاثة أعضاء ليبيون يعينون بقرار من مجلس الوزراء بناء على طلب وزير المعارف، على أن يكونوا من ذوي المكانة العلمية والاجتماعية في البلاد ويكون تعيينهم لمدة سنتين قابلة للتجديد" (40).

أما عن أسماء من تعاقب على رئاسة الجامعة، فلقد كان ثمة ثلة من أهل العلم ذكر لي الأستاذ عبد المولى دغمان أن أول مشرف (بصفة رئيس) للجامعة كان أمريكياً واسمه ويليام كليلاند (فقد كان أول عميد لكلية الآداب حيث كانت حينها الجامعة تتكون من كلية الآداب فقط)، ومن بعده الدكتور مجيد خدوري (عراقي) ومن ثم تولى إدارتها ليبيون منهم: محمود البشتي أول رئيس للجامعة (أصلاً من مدينة الزاوية) من 1956 إلى 1958م وعبد الجواد الفريطيس (مدينة درنة) 1958 إلى 1961م، واثنينهما من خريجي الأزهر، ومن ثم وبكري قدورة (مدينة الخمس) 1961 إلى 1963م والمؤرخ مصطفى عبد الله ابعيو (مدينة مصراتة) 1963 إلى 1967م وعبد المولى دغمان (مدينة بنغازي) 1967 إلى 1969م وعمر التومي الشيباني (مدينة مصراتة) 1969 إلى 1973م والهادي.. إلخ.

وقد كتب الدكتور مجيد خدوري في مذكراته التي لم ينشرها بعد، وقد تحصلت على جزء منها (41). ما مفاده حرفياً عن تعيينه رئيساً للجامعة:

إن أصل فكرة إرسالي عميداً لجامعة ليبيا سمعتها أولاً من والتر هريس، حيث كان مرة مع زوجته في زيارة لدارنا في واشنطن خلال صيف سنة 1956، قال: إن هذه الفكرة خطرت في فكره حين كان هو في بنغازي، وسمع أن الملك إدريس يرغب في تشكيل جامعة في ليبيا على أن تكون في مدينة بنغازي، ولما وضعت الأسس وبدأت الجامعة في أول سنة 1956 كانت الفكرة متجهة أن يكون العميد فيها أمريكياً وينتدب لها بعض الأساتذة من مصر وبعض البلاد الأخرى، ونظراً لسرعة الابتداء وتشكيل الجامعة لم يعيّن عميد في أول الأمر ثم انتدب كليلاند على وجه السرعة (وهو أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية

الذي سبق له خبرة في جامعة القاهرة الأمريكية) فشغل المنصب نحـو ثمانية أو تسعة أشهر ورجع إلى واشنطن.

ولما رجع والتر هريس إلى واشنطن أثار اقتراح إرسالي عميداً بدون علمي، وحصلت مداولات لهذا الغرض بين الحكومتين الأمريكية والليبية، وتم الاتفـاق على كثير من الأمور قبل مفاتحتي في الأمر.

وفوجئت في إحدى أيام شهر نوفمبر بدعوتي للذهاب إلى بنغـازي، وكـان الأمل أني سأذهب مع العائلة إلى القاهرة أوائـل سـنة 1957 لقضـاء الربيـع والصيف للعمل على ترجمة كتاب "الرسالة" للشافعي مع التعليق عليه.

وسط الأزمة المصرية والهجوم البريطاني الفرنسي (العدوان الثلاثي) علـى مصر وتعقد المسألة، رأيت الأوفق تأجيل السفر إلى مصـر إلـى سـنة 1958 والذهاب إلى بنغازي لقضاء شتاء وصيف سنة 1957 هناك، على أن أرجع إلى واشنطن في خريف سنة 1957 للقيام بالتدريس ثم السفر ثانية إلى القاهرة لإكمال مشروع رسالة الشافعي، وقد منحتني مؤسسة روكفلر منحة من أجل السفر إلـى مصر طلبت تأجيلها لأتمكن من استعمالها سنة 1958، فوافقت مؤسسة روكفلـر على الطلب، كما وافقت جامعة جونز هوبكنز على هذه الترتيبات.

سيرة فارس جامعي:

ومن هذه الشخصيات حظيت بمجالسة الأستاذ عبد المولى دغمان عدة مرات الذي ترك أثراً في النفس عندما حدثني عن الجامعة التي عمل فيها، وتتلمذتْ فيها على يده طالبة أصبحت فيما بعد شريكة عمره وأم بنيه السيدة المربيـة فتحيـة حسين مازق، ثم ترك الأستاذ دغمان الجامعة ردحاً من الزمن ليرجـع مجـدداً أستاذاً فيها ويتسلم رئاستها، وعندما كان يحضر وضع حجر أساسـها بمنطقـة قاريونس بصحبة العاهل الليبي أنجبت له زوجته ابنه الثاني - الدكتور أنـس - في عام 1968م، الذي تدرج في معاملها الطبية وتخرج فيها طبيبـاً (وعُرفـت لاحقاً بجامعة العرب الطبية). والأستاذ دغمان معلم ووطني كبير جدّ وكدّ ليلعب دوراً مميزاً من خلال أروقة الجامعة الليبية [42].

وسيرة الرجل لها دلالة، فلقد ولد عبد المولى دغمان في حي سيدي حسـين بمدينة بنغازي سنة 1930م عندما كانت المدينة وغيرها من مدن ليبية تعاني من وطأة احتلال الفاشست، فكانت عائلته فقيرة كسائر الناس في تلك الحقبـة التـي عانت من الفقر والعوز تحت نير الاستعمار الفاشستي بكل ما تعنيه الكلمة مـن قسوة ووحشية. فأخبرني أنه كان يذهب للمدرسة متستراً بخرق باليـة، حـافي

الرجلين، مرتدياً قبعة بيضاء رثة، عنواناً لإسلامه وعروبته، ولا يدري عندما يرجع لبيتهم هل من قوت في انتظاره ليسد رمقه أم لا.

تلقى تعليمه الأولي في المدارس الإيطالية والعربية. كانت أول سنة يلتحق فيها بالفصل الدراسي تلك السنة التي زار فيها بنيتو موسليني ليبيا عام 1937م. وبمجرد أن حصل على الثانوية من حلوان بمصر سنة 1952م التحق للدراسة في كلية الآداب بجامعة القاهرة وتحصل على ليسانس في الآداب منها. وتوسعت مداركه في أرض الكنانة، واستخدم جميع أدوات المعرفة المتوفرة من مشاهدة وملاحظة وقراءة وتلقٍ. ورجع إلى أرض الوطن، ولكن أدرك المسؤولون أنهم أمام شاب كفء وطموح، فبعثوه على الفور إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليزداد علماً وخبرة، والتحق بجامعة بوستن ما بين 57-1960م لينال الماجستير، متخصصاً في علم الاجتماع وعلم دراسات المجتمعات البدائية، وبذلك يكون من أوائل، إن لم يكن أول، من تخصص في هذا المجال على مستوى ليبيا.

عاد مسرعاً مجدداً إلى أرض الوطن ليحمل شيئاً من العبء الذي حمله كل من كانت فيه أهلية وكفاءة. فعين على الفور محاضراً بالجامعة الليبية ببنغازي عام 1961م، واستمر في تنمية نفسه ونهل من مناهل العلم والمعرفة، وفي نظري المتواضع أنه من قلائل الناس الذين ألمّوا بفقه القراءة والمطالعة بعين المتفحص المتربص بالأهواء والميول، وكان ذلك جلياً في حديثه معي، ودائماً ما كان يذكرني بالقول المأثور بأنه "لا ينال العلم مستحٍ أو متكبر"، وبهذه العقلية مضى هذا الرجل العصامي. وكان ذلك جلياً لطلابه وزملائه والمسؤولين، واستمر في الصعود، وارتقى معارج الرقي والسمو، إذ كان ذلك أمراً ينتظره. فأوكلت إليه وظيفة عميد كلية الآداب والتربية سنة 1963م، وكان ذلك المنصب حساساً، وعمره حينها لم يتجاوز 33 عاماً. ولكنه لم يمكث في هذا المنصب لحاجة الوزارة له، فانتدبته وزارة التربية والتعليم وكيلاً لها حتى عام 1964م. وأصبح واضحاً للعيان بأن الوزارات بدأت تتجاذب هذا الشاب الجاد الطموح، فنقلته وزارة البترول عام 1964م وكيلاً لها لمقدرته الإدارية وخبرته في التعامل مع الأجانب، وكذلك لتمكنه من التحدث بالإنجليزية بتدفق ومهارة. وفي تلك الآونة كانت الشركات الأمريكية والإنجليزية تتقاتل في صحراء ليبيا للفوز بالعقود والامتيازات النفطية في بدايات اكتشاف النفط في ليبيا.

فكان رَجُلَ حزم نزيهاً، صاحب لب ومبدأ وموقف، ولكن حبه للعلم وأهله جره مرة أخرى إلى قاعات التدريس وأرفف المكتبات، فعين وكيلاً لوزارة المعارف ثم عين عميداً لكلية الآداب سنة 1965م. وفي 4 يونيو من عام 1967م

عين رئيساً للجامعة الليبية متسلماً هذه المهمة الصعبة من الأستاذ المؤرخ مصطفى عبد الله ابعيو حتى عام 1969م. فشمر الأستاذ عبد المولى عن سواعده وعمل بهمة وأمانة، وأحبه الناس لإخلاصه وصراحته التي تصل أحياناً لدرجة الإحراج، وكان هذا في بوتقة الأدب الجم والتواضع العالي. وكانت رؤيته وتصوره لأية جامعة ناجحة وعصرية تتركب من ثلاثة عناصر لا يمكن الفصل بينها بأي حال وهي الجامعة المعطاءة: تتكون من المعلم والطالب والمكتبة. وبهذه الفلسفة شرع في جلب أحسن الأساتذة العرب والأجانب - بالإعارة أو التعاقد - إلى ليبيا، وشراء أنفس الكتب والدوريات سواءً أكانت قديمة أم حديثة، لتمكين الطالب من الاطلاع على ما أنتجته حضارة الإنسان أينما كان. وكان رحمه الله ينصح الطالب بالمطالعة والكتابة، ومن يرى فيهم النباهة يُبعثون إلى الخارج للدراسة والتحصيل العلمي واعداً إياهم بالمراكز المرموقة مع الإجلال والتقدير لكي ننهض بهذا الوطن الذي عانى الكثير. أمضى بقية عمره مترجماً وقارئاً، ثم ركن إلى الهدوء في مزرعته يناجي الأشجار والزهور بعيداً عن تقلبات الحياة، يبادل من يأتيه الزيارة الحديث والحوار البناء. وكان بطبيعته مثقفاً ثقافة عالية، باللغتين العربية والإنجليزية، مستخدماً عقله الناقد في فهم الحياة وتفحص ما يطرح عليه، وإذا ما رأى نظيره على صواب كان يقر له برأيه ولا يجد في نفسه غضاضة من قول: أحسنتم.

كان يتمتع بصفاء في المزاج، وشفافية في روحٍ جذابة، وكنت أحب مجالسته كثيراً لأستفيد من خبرته وتفسيره لأحداث تاريخية مر بها أجدادنا وآباؤنا، ولم يبد يوماً ما كللاً أو مللاً، بل كان يرحب بي غاية الترحيب، فلمست منه دفء الوالد، وصدق المعلم النصوح في الطرح. وكذلك التدقيق والإلمام بحال البادية والحضر.. والعلاقات الدولية وتاريخ الأمة الإسلامية.. وجهاد أجدادنا وشعرهم.. ومن العجب العجاب عندما تتكشف سوءتي وأتحدث أمامه كان يصغي إليّ باهتمام وكأن لسان حاله يقول: كلما ازددت علماً زادني علماً بجهلي.

مواقف وطرائف نبيلة:

ومن الطرائف وشهامة ذاك الجيل أخبرني الأستاذ عبد المولى دغمان عندما كان رئيساً للجامعة الليبية بأنه ذهب لرؤية الشيخ المجاهد عبد الحميد العبار الذي كان يجلس أمام محل بشير المجريسي الذي امتاز بتجارة الفرش العجمي الثمين في بنغازي، وقد أكد لي المرحوم بشير المجريسي هذه القصة بنفسه، وكان حينها الشيخ عبد الحميد رئيساً لمجلس الشيوخ، وكان مبنى البرلمان قريباً من الجامعة،

فدخل الأستاذ عبد المولى على الشيخ عبد الحميد وشكا له صغر مبنى الجامعة (قصر المنار) مع تزايد عدد الطلاب، وأنه وسكرتيره الخاص يتبادلان على المكتب الوحيد في الغرفة المخصصة لهما، فقال له الشيخ: خذ هذا المبنى كله وضمه إلى الجامعة فأنتم أكثر حاجة إليه منا، وخاصة بعد انتقال البرلمان إلى مدينة طرابلس، وذهب الشيخ عبد الحميد العبار يستقبل النواب وأعضاء مجلس الشيوخ ومن له أمر للقضاء في بيته أو مزرعته في منطقة سيدي مهيوس جنوب شرق بنغازي، وبالفعل غدت قاعة البرلمان مقراً لإدارة الجامعة، وعُقد فيها مؤتمر "ليبيا في تاريخ" الذي أقامته الجامعة في مارس 1968م.

وأطنب الأستاذ عبد المولى دغمان في تسليط الضوء على بعض من تكتيكات الجامعة مع بعض الطلاب المشاغبين والمناوئين للنظام العام، ومن يدعون إلى الاعتصامات والتظاهر في الحرم الجامعي بدل طردهم أو فصلهم من الجامعة.. كنا (الجامعة) نبعثهم للدراسة في الخارج لعدة أسباب منها عنفوان الشباب وتهور بعضهم وكذلك أن هؤلاء الشباب كانوا من أذكى وألمع الطلاب وتملؤهم الغيرة على بلدهم وأمتهم، فبالتالي وجبت علينا رعايتهم وصقلهم لكي تهذب هذه القدرات حتى ترجع وتدر خيراً على البلاد والعباد. وللتأكيد على عملية صقل المواهب وتلاقح الحضارات والثقافات حرصت الجامعة على دعوة أساتذة فطاحل من مختلف جامعات العالم للتدريس وإلقاء المحاضرات على طلاب الجامعة، وإتاحة الفرصة للاحتكاك بنوع جديد من الثقافة والاتصال العلمي، وعملت الجامعة في نفس الآن بتنظيم الرحلات العلمية للمتفوقين من طلابها إلى مختلف بلدان العالم في نهاية كل عام دراسي، والاشتراك في شتى صنوف الحلقات والمؤتمرات الأكاديمية التي تديرها الجامعات الأخرى [43]. إلى جانب الرحلات الترويحية والثقافية داخل الوطن بقصد التعرف إلى المعالم الأثرية والجغرافية الليبية [44].

ومن الأعمال المأثورة للجامعة هو جمع ذاكرة الوطن من الأفواه والوثائق سواء كان شعراً أو رواية أو أحداثاً ملحمية ضد الاستعمار الإيطالي، فيقول الدكتور علي الساحلي عندما اعتزل السياسة والوظائف العامة سنة 1967م، تفرّغ مع عمله في حقل المحاماة إلى القراءة والتدريس، ويقول: "إن الذي جرّني إلى التدريس هو المرحوم العالم المربي الدكتور عمر التومي الشيباني، الذي تولى رئاسة الجامعة بعد الأستاذ عبد المولى دغمان". الأمر الذي أفسح المجال أمام ممارسة الدكتور الساحلي اهتمامه بتراثنا الشعبي، الذي كاد أن يضيع في مجمله. فقد التحق الدكتور الساحلي بجامعة قاريونس سنة 1970م. [45] وتمَّ عقب

ذلك تأسيس لجنة جمع التراث مطلع سنة 1972م(46) بقرار من الدكتور منصور الكيخيا عميد كلية الآداب بجامعة "قاريونس"، وهي خطوة سبقتها خطوات للاهتمام بهذا الموضوع من قبل الأستاذ عبد المولى دغمان في خلال سنتي 1969/68م وضمت اللجنة كل من د. عمرو النامي ود. علي الساحلي والأستاذ علي بوزعكوك، والأستاذ سالم الكبتي أميناً لسر اللجنة، ومن ثم التحق بهم الأستاذ السنوسي البيجو في نوفمبر 1973م، ثم انضم إليهم عقب ذلك د. يونس فنوش عام 1974م بعد عودته من الدراسة في فرنسا، لينضم إليهم العشرات من الجنود المجندة من المهتمّين الذين سجّلوا الكثير من نفائس الشعر الشعبي على أشرطة تسجيل. ثم أُعيد تنظيم لجنة جمع التراث في 1975م ليترأسها علي الساحلي وعضوية كل من علي بوزعكوك ويونس فنوش وامراجع الغناي وسالم الشيباني ومنصور محمد الكيخيا، ولكنها لم تدم طويلاً لتعود مرة أخرى اللجنة برئاسة الدكتور الساحلي وعضوية سالم الكبتي جادة في لملمت أجزاء لا بأس بها من تراث الأجداد والشعر الشعبي، واستجلاب الآلاف من الوثائق من الأرشيف الإيطالي الذي يُعد بمثابة ذاكرة الأمة ونافذتها التاريخية على الأحداث، فقد استغل الدكتور علي الساحلي، وكان في بعض الأحيان يرافقه في ذلك الأستاذ أحمد محمد القلال، وجوده في إيطاليا وجلب ما يقرب الخمسين ألف (50.000) وثيقة إيطالية مع أنها كانت خارج اختصاص واهتمامات لجنة جمع التراث، وأُودعت جميعها في جامعة قاريونس لتنتقل فيما بعد إلى مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. هذا وقد سعت لجنة التراث إلى التقاط الجزء الضخم والأعظم من هذا التراث المجمع من أفواه الرواة والحفاظ أو من الشعراء أنفسهم، إذا كانوا أحياء وأسعف الحظ بمقابلتهم. (47) ويقول الدكتور الساحلي بأن الجزء الأول من ديوان الشعر الشعبي (خرج بإشرافه وسالم الكبتي وتعاون يونس فنوش) أخذ منهم ما يقرب من أربع سنوات للتجميع، وسنة كاملة لشرح المعاني والتبويب، ليخرج على هيئته التي بين أيدينا. وخرج علينا ديوان الشعر الشعبي في مجلدين من إصدارات كلية الآداب بجامعة قاريونس. (48)

ختاماً ...

أختم وأقول كم تلهفت وتأسفت لشيئين، أولهما عدم تقديرنا لجيل البناة الذين بإلهامهم وهمتهم استطاعوا أن يوجدوا لنا هذه الجامعة وغيرها من مؤسسات بنوها بأمانة من عدم، وكان حري بنا على الأقل أن نسمي كليات وأقسام ومدرجات وقاعات، بل حتى نستحدث شهادات وجوائز بأسمائهم، حتى تحفر في

ذاكرة الأجيال عظمة وجلل هؤلاء الرجال والنساء الذين قدموا للوطن ولم يطلبوا منا شيئاً إلا العرفان.. فما الضير إذا ما أخذنا باقتراح الدكتور يونس فنوش بتأسيس "مركز الدكتور علي الساحلي للتوثيق ودراسة التراث"، وأشد على يديه وأقول لماذا لا يدرس أبناؤنا في "قاعة الطاهر الزاوي أو مصطفى ابعيو أو محمد بازامه للتاريخ"، وينال أحدهم "شهادة علي مصطفى المصراتي أو عبد المولى دغمان في الآداب" و"إبراهيم الاسطى عمر أو حسن السوسي أو راشد الزبير في الشعر" وآخرون يستحقون "جائزة خديجة الجهمي أو عمر التومي الشيباني أو حميدة العنيزي في التربية" أو "زمالة محمد الفيتوري أو رؤوف بن عامر للطب" أو "دبلوم خليفة التليسي أو محمد الوافي في فنون الترجمة" وهكذا.. حتى لا ننسى، ونتذكرهم بالفضل في حياتهم والترحم عليهم بعد مماتهم كما أمرنا.. وأسفي وتلهفي الثاني هو عدم دراستي في هذا الصرح العلمي الكبير، الذي كنت أحلم منذ نعومة الأظافر بالاستظلال بقبته الذهبية والدراسة في أروقته الفسيحة والنهل من علمائه بلكنتنا الليبية.. ولكن عزائي أنني يوماً ما سأرجع وأمزج عرقي بلبنات هذه التركة التي وَرَّثَنَا إياها الأجداد والآباء الأجلاء لتصبح أمانة في أعناقنا، وكما يقول سلفنا الصالح: العهد أمانة ... والوفاء دين ... والتخلي عن ذلك في غيابهم غدر..

أملي أن أكون قد وفقت في أن أضع بين أيديكم نبذة عن صرح علمي عريق أسسه ليبيون صنعوا به تاريخاً لهذا البلد المغبون، وأن تكون هذه المساهمة للتمعن في الماضي لنمزق بهذه الصفيحات حواجز الخوف والترهيب من التفكير والإبداع، لأن الأمة – كما قال الكواكبي: إذا جهلت خافت، وإذا خافت استسلمت، وإذا علمت قالت، وإذا قالت فعلت. فدعائي أن نتحرر من هواجس الخشية في القول والفعل كما فعل أسلافنا، ونستذكر الأمس ونصنع الغد لنتخطى محنة اليوم، وأنهي بقول السموأل اليهودي:

لسنا وإن كرمت أوائلنا   يوماً على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني   ونفعل مثلما فعلوا

الهوامش

(1) قال عنه الشيخ الطاهر الزاوي في أعلام ليبيا - (سمع من سفيان الثوري، والليث بن سعد، والإمام مالك، وأخذ منه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وشجرة بن عيسى، وأسد بن الفرات ولم يكن بأفريقية أحد مثله. أول من أدخل موطأ مالك لأفريقية وفسره. كان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا إليه ليخبرهم من هو على صواب). وقال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام " كان إماماً ثقة متعبداً، بارعاً في العلم".

(2) الزاوي، الطاهر أحمد - تاريخ الفتح العربي في ليبيا صـ 193-194.

(3) الشريف، ناصر الدين محمد - الجواهر الإكليلية في أعيان وعلماء ليبيا من المالكية صـ 34-36.

(4) أبو فارس، حمزة - أضواء على جانب من حياة ليبيا العلمية صـ 29.

(5) الزاوي، الطاهر أحمد - المصدر نفسه صـ 194-195.

(6) الزاوي، الطاهر أحمد - أعلام ليبيا صـ 373-376.

(7) راجع: مجلة الثقافة العربية العدد 253 أكتوبر 2003م، كذلك إصدار خاص عن جامعة الدول العربية في نفس الصدد على موقعهم www.alenc.com.

(8) **Evans-Pritchard, E.E, the Sanūsī of Cyrenaica, p 63**

(9) الدجاني، أحمد صدقي - الحركة السنوسية نشأتها و نموها في القرن 19 صـ 20-23.

(10) **Evans-Pritchard، p 82.**

(11) **Bosworth, Clifford, the Islamic Dynasties, op. cit.، pp 41-42**

(12) راجع: كتابنا الموسوم "حوارات تاريخية" القاهرة - 2005م.

(13) الدجاني، أحمد صدقي - الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر صـ 282،261-285.

بن علي، عبد القادر بن عبد المالك - الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية صـ 8-9.

(14) الأشهب، محمد الطيب - السنوسي الكبير صـ 45.

(15) راجع: كتابنا الموسوم "القبيلة والإسلام والدولة" القاهرة - 2005م.

(16) خليفات، عوض محمد - النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال أفريقية في مرحلة الكتمان صـ 31-34.

معمر، علي يحى - الإباضية بين الفرق الإسلامية صـ 106-107.

الطبطبائي، وليد - الإباضية تاريخاً وعقيدة صـ 60-64.

(17) **Hasan, Salaheddin, the genesis of the political leadership of Libya 1952-1969: historical origins and development of its component elements (unpub PhD thesis), pp 11-15.**

الطاهر، عبد الجليل - المجتمع الليبي صـ 314.

(18) الدجاني، أحمد صدقي - مصدر سبق ذكره صـ 238-239.

(19) **Evans-Pritchard, op. cit.، p 66.**

(20) بن موسى، تيسير – المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني صـــ 78--80.

(21) Hasan, p 349.

(22) راجع: ليبيا سنة 1948م (وثيقة رسمية) – د. نقولا زيادة – منشورات الجامعة الأمريكية فـــي بيـــروت – لبنان – 1966م.

(23) يقع قصر الغدير في منطقة بوعطني في شمال شرق بنغازي، وعرف بالجخ لوجود بحيرة أو نهر صـــغير يجري تحت الأرض تسميه العامة بالجخ وكان يرتاده الطليان بقوارب صغيرة للتنزه. واصبح فيمـــا بعـــد الكلية العسكرية الأولى في البلاد بإمرة العقيد إدريس العيساوي وطاقم تدريب عراقي وليبي.

(24) راجع: بنغازي في العقد الثاني من القرن العشرين – اليريكو تيجاني – ترجمة د. رؤوف بن عامر صـــــ 244.

(25) انظر: صور من تطور المجتمع الليبي – عبد العزيز زواوه وحمدي الشنواني (دار ليبيا – 1967م) صـــــ 103-106.

(26) يوسف، محمد – ليبيا بين الماضي والحاضر (الهامش في المجلد الثاني) صـــ 341.

(27) بن حليم، مصطفى أحمد – صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي صـــ 176 .

(28) مجيد خدوري من أصل عراقي مسيحي ولد وترعرع في الموصل هاجر إلى أمريكا وأصـــبح مـــن كبـــار أساتذة جامعة هارفارد الأمريكية وكان يدرّس القانون الدولي، وأسس جمعية أسماها "الشيباني" .. والشيباني عاش في القرن الثالث الهجري صاحب كتاب "السير" الذي وضع فيه أصول التعامل مع الدول الأخرى في الحرب والسلم قبل كروشيوس الهولندي الذى كتب أول كتاب عن الحرب في القرن الثاني عشر المـــيلادي أي أن الشيباني قد سبقه بأكثر من ثمانية قرون، وكذلك للدكتور خدوري كتاب باللغـــة الإنجليزيـــة **The Concept of Justice in Islam** – مفهوم العدالة في الإسلام – يشرح فيه عدالة الإسلام للغرب، ومن ثم كرس اهتماماته للقضايا السياسية فكتب في الاتجاهات السياسية في العالم العربي وآخر لليبيا الذي غـــدا مرجعاً لكل دارس لتاريخ ليبيا الحديث باللغة الإنجليزية بعنوان **Modern Libya** الذي ترجمه الـــدكتور نقولا زيادة بعنوان "ليبيا الحديثة".

(29) يوسف، محمد – ليبيا بين الماضي والحاضر (المجلد الثاني) صـــ 341.

(30) راجع: مقالتنا "الدكتور علي الساحلي: السياسي والأديب" ونشرتها جريدة القدس العربي – لندن – بتاريخ 7 /2004/6م.

(31) راجع: زواوه والشنواني – صور من تطور المجتمع الليبي صـــ 105.

(32) بن حليم، مصطفى أحمد – ليبيا انبعاث أمة وسقوط دولة صـــ 380-382.

(33) راجع: موقع الجامعة على الشبكة http://www.garyounis.edu.

(34) المصدر: http://www.garyounis.edu

(35) راجع: زواوه والشنواني – المصدر نفسه.

(36) خفاجي، محمد عبد المنعم - قصة الأدب في ليبيا العربية صـ 89.

(37) نسبة إلى يوم تأسيس الجيش الليبي في 9 أغسطس 1940م عندما اجتمع الزعماء الليبيون في المهجر بمدينة القاهرة واتفقوا على إنشاء جيش ليبي يسمى "القوة العربية الليبية" الذي اشترك في القتال إلى جانب القوات البريطانية ضد الطليان والألمان لتحرير ليبيا، ويسمى الآن بميدان السلفيوم.

(38) راجع: ملف الوثائق البريطانية المودعة في الأرشيف الوطني للوثائق البريطانية بـ كيو قاردنز (لندن) رقم: **FO371-178855** - كذلك بحث الأستاذ محمد بن غلبون بعنوان "قراءة في حوادث 1964م الليبية من خلال الوثائق البريطانية" المنشور في جريدة الحياة بتاريخ 23-24 مايو 1996م.

(39) لقاء أجرته مجلة الحقيقة مع الأستاذ محمود الناكوع ببيتي في لندن بمناسبة تكريمه ونشرته في عددها التاسع - مايو 2005م.

(40) راجع: زواوه والشنواني - المصدر نفسه.

(41) لا يفوتني أن أسجل عميق شكري وامتناني للدكتور ادموند غريب وزوجته شيرين ابنة الدكتور مجيد خدوري حيث يقيم جميعهم (الدكتور مجيد وادموند وشيرين) في واشنطن بأمريكا، ولهما الفضل في تزويدي بجزء من هذه المذكرات وبعض الصور الفوتوغرافية للدكتور مجيد خلال عمله بليبيا.

(42) راجع: مقالتنا "عبد المولى دغمان" ونشرتها جريدة العرب - لندن - بتاريخ 2001/9/19م.

(43) خفاجي - المصدر نفسه.

(44) راجع: زواوه والشنواني - المصدر نفسه.

(45) ذكر لي ذلك الأستاذ السنوسي محمد البيجو على هامش محاضرة له عن "الأدب الشعبي" - ألقاها كجزء من مناشط جمعية العمل الاجتماعي الثقافي بلندن بتاريخ 27 يناير 2002م.

(46) الساحلي، علي سليمان - ديوان الشعر الشعبي (مقدمة المجلد الثاني) صـ 7.

(47) ديوان الشعر الشعبي (مقدمة المجلد الأول 1976م) صـ 1.

(48) راجع: مقالتنا "الدكتور علي الساحلي: السياسي والأديب" ونشرتها جريدة القدس العربي - لندن - بتاريخ 2004/6/7م، كما لا يفوتني أن اشكر أخي الحبيب الموثق الأديب الأستاذ سالم الكبتي على تصحيح هذه الورقة وتزويدي بأدق المعلومات فيما خص لجنة جمع التراث وغيرها من المعلومات في أبحاث أخرى.



شهر الباذنجان

شهادة

محمد عقيلة العمامي

(1)

بمقال ساخر كتبه الأستاذ أسامه أنور عكاشة، بصحيفة "الوفد" المصرية، أطلق على شهر أغسطس – الذي نسميه في ليبيا هنيبال– شهر الباذنجان! معللاً ذلك بأنه شهر يعقب عودة الموظفين من إجازاتهم السنوية مفلسين، فتتفنن زوجاتهم في إعداد وجبات قوامها الباذنجان لرخص ثمنه بسبب وفرته في ذلك الشهر. أو لعل سبب هذا الإقبال– كما قرأت بمكان آخر– حديث يرى البعض أنه مدسوس، يقول: " إنما الباذنجان شفاء من كل داء ولا داء فيه"!.

هكذا– كما يقول الأستاذ عكاشة– كان شهر أغسطس خلال ستينيات وأوائل سبعينيات القرن الماضي في مصر الحبيبة.

وتداعت ذكرياتي عن ذلك الشهر الصيفي البديع، عندما كنت طالبا بكلية الآداب بالجامعة الليبية خلال الفترة (67/ 1968 – 1972/71) حين صنفها– في ذلك الوقت – عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في حديث من أحاديثه الإذاعية بأنها أفضل الجامعات العربية.

وانتبهت أن شهور الصيف– في ذلك الوقت– لم تكن عندي شهور باذنجان فقط، وإنما شهور كوسة وخيار وفقوس، لأن الصيف هو الموسم الحقيقي للخضروات كلها!!. ولقد توثقت علاقتي بالخضروات كثيرا، عندما كنت طالبا،

* سليمان الحريتاني – توظيف المحرم، ص 129 – دار الحصاد.دمشق – سوريا.

لأن الجامعة تقفل خزينتها وتوقف صرف المنح الدراسية لطلابها، فيتحتم على أمثالي تدبر مصاريفهم خلال العطلة الصيفية. في ذلك الوقت كانت المنحة 25 جنيها للطالب، وتقل عن ذلك إن كان الطالب مقيما بالقسم الداخلي.

وكان المتفوقون من الطلبة يستعدون لرحلات خارج البلاد تنظمها الجامعة كمكافأة لهم. أما طلبة القسم الداخلي فيعودون إلى مدنهم وقراهم، فيما يذهب القادرون إلى شواطئ الإسكندرية، أو اليونان.. أو إلى شاطئ (جليانه) على أقل تقدير. أما الفقراء فيبحثون عن أعمال يدخرون منها مبلغا يعينهم بعد أن يعودوا إلى كلياتهم.

مدخراتي كنت أوفرها من بيع الخضروات الطازجة، فأنطلق – في الصباح الباكر – إلى الفندق البلدي، أعود منه إلى دكاني، بشارع عمرو بن العاص محملاً بالخضروات كلها، ناهيك عن الباذنجان!

بمطلع الشهر الذي يسبق شهر الباذنجان، سنة 1970م عدت من سوق الخضروات، محملاً تلك المرة بصندوق بيض كان التجار يستوردونه – في ذلك الوقت – من اليونان! لم تكن نتيجة الامتحانات قد أعلنت، فاخترت طريق البحر حتى يتسنى لي المرور على الكلية، التي كانت، آنذاك، بشارع جمال عبد الناصر، بمواجهة ميدان يتوسطه عمود رخامي، بقمته مجسم لنبتة (السلفيوم)، التي اتخذها الفاشيست في ليبيا شعاراً لهم عندما كانوا يحتلون البلاد. كان اسمه في ذلك الوقت ميدان 9 أغسطس – يعني 9 الباذنجان – ثم صار بعد قيام الثورة ميدان الخالصة، أما شباب هذا الزمن فيسمونه ميدان (بيكاديلي)!

بمدخل الجامعة – الذي يتوسط كليتي الآداب والتجارة، والذي يزهو في غير شهور الصيف بالطالبات، مثلما يزهو الربيع بأزهاره –لم أجد ما يوحي بأن نتائج الامتحانات قد أعلنت، ولكنني وجدت المرحوم إدريس السعيطي، الباسم على الدوام. مهلاً ومرحباً كعادته، وأخبرني أن العميد يبحث عني منذ يومين !.

انطلقت نحو مكتب العميد، مستغربا من بحثه عني، فلا الوقت وقت رحلات حتى أكلف – كما جرت العادة – بتوفير احتياجات الرحلة من مواد غذائية، ولا كنت أتوقع أن أكون من المتفوقين، الذين يخطرون مسبقا ليهيئوا أنفسهم ليكافأوا بتلك الرحلات التشجيعية.

طرقت الباب ودخلت، استقبلني العميد مرحبا، ثم سألني:

– " هل هناك ما يمنعك من السفر لمدة أسبوعين خلال هذا الشهر؟" أجبته صادقا، ساخرا:

– " نعم. الفلوس ! " أشرقت ابتسامته الدافئة، وقال:

- " ستعطيك الجامعة ما يكفيك طوال أيام غيابك، ناهيك أن إقامتك مغطاة بالكامل. "
- " والرحلة إلى أين ؟ ". أجاب:
- " إلى أمريكا !! " ضحكت، وقلت له:
- " يا دكتور حرام عليك. لا تسخر مني.. أنا قادم إليك مباشرة من الفندق البلدي ! " قال:
- " أنا لا أسخر منك. لقد رشحتك لتمثل طلبة كلية الآداب في مؤتمر عالمي، يعقد بعد أسبوع واحد من الآن، بمبني هيئة الأمم المتحدة بنيويورك!! ".
- " يا دكتور الود بيني وبين السياسة والمؤتمرات مقطوع... أنا لا أفهم شيئا في السياسة " قاطعني:
- " ولهذا اخترتك !. الحكاية ببساطة أن الأمم المتحدة طلبت من ليبيا ترشيح خمس شباب لا ينتمون لأي حزب، ولا يمثلون أي تجمع عرقي، أو سياسي. كل ما هو مطلوب منهم أن يكونوا مثقفين ويتكلمون لغة أجنبية، وقد وجدت فيك هذه الشروط ورشحتك، وإدارة الجامعة وافقت.. فهمت ؟ أم أن ما أقوله أكبر من قدرات فهمك؟" أجبته بعد أن تقبل عقلي ما وضحه لي:
- " وما هو المطلوب مني ؟ "
- " لا شي. جهز نفسك، ومرّ على إدارة الجامعة واستلم مخصصاتك المالية، وتذكرة سفرك إلى طرابلس، وفي طرابلس سوف يستقبلك مكتب الأمم المتحدة، ويسفرونكم إلى نيويورك. هناك ستعرفون كل شي! ".

سافرت مع زملائي، وعدنا من نيويورك، التي كان الوصول إليها في مطلع السبعينيات حلماً بعيد المنال، خصوصا أن كان المرء يقع تحت طائلة الباذنجان !!.

فكرة ذلك المؤتمر كانت ببساطة دورة عالمية تولاها الشباب لمناقشة جدول الأعمال، المعد أساسا لتناقشه هيئة الأمم المتحدة ليعرف السياسيون أراء الشباب حول القضايا العالمية !.

في ندوة من ندوات تلك الدورة، قدمنا رئيس وفدنا قائلا:

- **"نحن من بلد تولى أمره شباب ثوري تقدمي، هم في مثل أعمارنا، وسوف نصنع معهم تاريخا مجيدا ليس لبلادنا فقط، وإنما للعالم كله!"**

والآن، بعد مضي ست وثلاثين عاما، عن رحلتنا تلك، هل حقا، صنعنا لبلادنا تاريخا مجيداً؟.

قبل أن تجيبوا عن هذا السؤال، أو أن أسترسل فيما أنا بصدده، أود أن أشير أن عميد كليتي في ذلك الوقت هو الدكتور منصور محمد الكيخيا، الذي نعرف أنه أحد مؤسسي الحركة الكشفية في بلادنا، صاحبة مجلة (جيل ورسالة)، التي ظلت لفترة طويلة المجلة الوحيدة التي تعني بالشباب، والتي منذ أن توقفت عن الصدور لم نر- حتى الآن- بديلاً لها!.

وللدكتور منصور محمد الكيخيا- زمان والآن- معارف، وأقارب، وأصدقاء.. بل وجيل كامل من الكشافة، يعرفهم عندما كان قائدا لهم، ناهيك عن جيل ثان من شباب النوادي الرياضية، ذلك لأنه كان رياضيا. والدكتور منصور ابن أحد عائلات بنغازي، التي تعد من عائلاتها الثرية، بل عائلة (أرستقراطية) إن كان بالفعل في مجتمعنا الليبي ما ينطبق عليه هذا المصطلح الفضفاض.

ومع ذلك كله، تجرد الدكتور من كل ما يربطه بشباب الكشافة، والشباب الرياضي الذين كانوا يملأون الجامعة، وذويه ومعارفه وانتقى (خضار) أتم دراسته الثانوية في المساء، ولم يكن كشافا، ولا رياضيا، ولم يعرفه - على الإطلاق - إلا عندما صار عميدا للكلية!!.

(2)

يوم 20 ديسمبر سنة 1969 م، نشرت صحيفة "الحقيقة"، التي كانت تصدر في بنغازي، مقالا ناضجا للأستاذ أبو بكر عمر الهوني، تحدث فيه عن ضرورة تقليص الجهاز الإداري وتحويله إلى الإنتاج! فقال:

"إن شعبنا تعداده مليون ونصف مليون من السكان، لا ينبغي أن يترك ثلث القادرين على العمل فيه عبارة عن موظفين ومباشرين، ويبقى ينتظر من يصدر له الأكل واللباس. إن الأكثرية من الموظفين لديهم مشاريعهم التجارية، وأعمالهم الزراعية، وإنهاء أعمالهم لن يؤثر في مستوى حياتهم، بل يجعلهم يتفرغون أكثر للإنتاج التجاري أو الزراعي. إنه من المضحك أن يكون لشعب لا يتجاوز المليون ونصف من السكان جهاز موظفين وشرطة يقارب الربع مليون.." ثم يقول في مكان آخر: " إن أداة الثورة في تحقيق أهداف الشعب هي جهاز الموظفين هذا، والذي سيقف بالتأكيد ضد تحقيق هذه الأهداف لأن طبيعة تكوينه تؤدي إلى هذه النتيجة، فهو جهاز تضخم ليستوعب الأقارب والأصدقاء.. أطفال المدارس وأبناء العائلات، الذين ترقوا بالمحسوبيات، وصارت الوساطة سبيلهم إلى الوظيفة.. وإن كان عدد من الموظفين يمتازون بالنزاهة والكفاءة إلاّ أنهم

أقلية في بحر العجائب والغرائب.." ثم يقول في فقرة أخرى : " إن في البلد كثيرا من الرجال ذوي الكفاءة، والنقاء الثوري والعمل الصامت، هؤلاء تحتاج لهم الثورة، كما يحتاجون لها في خدمة البلاد وتطويرها من التخلف الذي تعيشه.. وفي انتقاء كثير من العناصر الوطنية لا ينبغي أن نصغى لأصوات الرجعية، التي تحاول أن تلصق بأعداء العبودية والتخلف مختلف التهم، بل يكون الاختيار بناء على مواقف العناصر الوطنية مهما يكون نوعها، ومهما يكون شكلها، فالمضمون والموقف العملي هو المقياس للحكم على الناس.. " ويختتم مقاله : " والثورة في كل هذا تحتاج لتنظيم شعبي بأسرع ما يمكن، على أن ينتقي أعضاؤه من عناصر مثقفة، واعية، ذات مفاهيم تقدمية، تنصهر مع بعضها وتخلق جهازا عضويا يعمل من أجل ليبيا... ".

هذا صوت، أثبت بامتداد حياته، التي نتمنى لها أن تطول، أنه واحد من الشرفاء الذين واكبوا الثورة من البداية، يدعو – قبل انقضاء ثلاثة أشهر على قيامها إلى التنظيم الشعبي، وينبه إلى خطورة التضخم الإداري، ويؤكد على ضرورة انتقاء الوطنيين الشرفاء ليأخذوا بيد ليبيا نحو ما تستحقه من مكانة.

فهل يذكره – الآن – أحد ؟ ولِمَ لمْ نر فيه – في ذلك الوقت – رجلا مناسبا لمكان مناسب ؟.

(3)

ويهنئنا الراحل خليفة الفاخري بسنة جديدة، بمقال نادر، نشرته صحيفة "الحقيقية" يوم السبت الموافق: 1970/1/3 م، عنوانه (الهروب) فيقول:

"وهذه سنة جديدة.. ولست أملك بطاقة بريد جميلة أكتب لكم عليها تمنياتي الطيبة، مثلما يفعل الآخرون كل عام، ذلك أن التمنيات وحدها لا تفعل شيئا إلا بقدر ما تفعله لفافة حشيش!! وأنتم لا تحتاجون إلى هذا بالتأكيد..

وعلى أية حال، فقبل أن تتهرأ حناجرنا عبر المظاهرات الصاخبة، وقبل أن تتشقق أقدامنا خلال المسيرات الطويلة الصامتة، وقبل أن نحلق بدون أجنحة حقيقية نحو السهول البعيدة الغامرة بالدفء والخير، وقبل أن تصاب المدينة بالصم من جراء الأصداء التي تدفقها أبواق الجمعيات فوق العربات التي تذرع الطرق دون انقطاع، وقبل.. وقبل ألف شيء آخر يتعين علينا أن ندرك تماما واقعنا المريض .. ومدى طاقتنا ومسئولياتنا تجاهه.. ".

غير أننا – للأسف الشديد – لم ندرك حينها لا واقعنا المريض، ولا مسئولياتنا، لأننا ببساطة لم ننتبه – كما قال الفاخري في المقال ذاته: " أن

الإنسان لا تبنيه المظاهرات، ولا تبنيه المسيرات الصامتة، ولا تبنيه الخطب الملتهبة.. كما لا تبنيه الشعارات الملصقة على الجدران ! ". لأننا كنا – حينها – نحتاج إلى روح الخلق، والتضحية، والشعور المتصل بالمسئولية نحو جوهر الثورة وتعاسات الآخرين.. ".

والفاخري في ذلك المقال كان يريد أن يقول إن تفجر نافورة البترول في بلادنا فجأة تسبت في طفرة أصابت الناس بالجنون. " وكان من الممكن أن نتجنب هذا الفخ لو أن هذه الثروة استثمرت استثمارا منتجا، غير أن الذي حدث نعرفه جميعا، ونعرف أن نتيجته كانت أن أصبح كل مواطن يريد أن يثري في أسرع وقت ممكن، ويريد أيضا أن يغزو القاهرة وأثينا ومالطا، وتونس وأن يتباهى بمحفظته المتخمة ! لقد حرث هذا الحساب بقايا القيم التي كانت تزرع أعماقنا، وماتت تلك الروح المتوهجة التي تميز بها مجتمعنا أيام الجفاف، وهزلت اذرعتنا من الخمول والموت ولم نعد نعرف أي معنى للدموع النبيلة، والعرق الخلاق!! عندئذ ظهرت مفاهيم جديدة، فالذي لا يختلس فهو في نظرنا أبله و (نية) والذي يريد أن يعمل أي شيء من أجل الآخرين فهو مجرد غبي، وينفخ في (جمر طافي)، وكان من السهل أن يدرك المرء أننا أصبنا بغرور متكابر، وأنه لم يعد يعجبنا على الإطلاق، سوى التثاؤب اللذيذ، وشتم الحكومة والقدر والرواد المؤمنين الصغار!! ".

ويختتم الفاخري مقالته قائلاً:

"فلنتواضع قليلا.. وللنظر إلى أقدامنا أين تقف بالضبط، ولندرك تماما أن الإنسان حين لا يفلح الأرض، حين لا يحرثها، ولا يغرز في قلبها البذور، حين لا ينزف فوق تربتها قطرات عرقه المؤمن الخلاق، عندئذ، لا يجب أن ينتظر موسم الحصاد لأنه حينذاك سيحصد العقم والندم!! ".

فهل تواضعنا ؟ أو بمعني آخر: هل يمكن بعد مرور سبع وثلاثين عاما على قيام ثورتنا أن نتواضع ونواجه أنفسنا ؟ هل بمقدورنا أن نتواضع ونحدد أخطاءنا وهفواتنا؟

هل بمقدورنا بعد هذه السنوات الطويلة، وبعد أن صار أمرنا – كما نقول– في أيدينا أن نعترف بأننا لم ننجح – حتى الآن – بصورة مرضية في اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب؟

أنا شخصيا، أعتقد أن هذه الحقيقة هي من أهم أسباب مشاكلنا وخلافاتنا!



ذكريات جامعية

شهادة

رمضان بوغالية

لم أكن طالباً في الجامعة عام تأسيسها سنة 1955، لكن هذه الذكرى الخمسينية لتأسيس الجامعة الليبية استفزت ذاكرتي وأجبرتها أن تبوح ببقايا ذكريات. ذكريات لم أدون منها شيئاً لأنه لم يدر بخلدي يوماً أني سأكتب عنها. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ولدونت كل الأحداث صغيرها وكبيرها بتواريخها وصورها، فتصير هذه الذكريات مذكرات تسري فيها الحياة.

الأيام الأولى في الجامعة تجربة جديدة للطلبة والطالبات الجدد وخاصةً القادمين من خارج المدن الكبيرة، القادمين من الأرياف والقرى والمدن البعيدة عن حاضرتي ليبيا، طرابلس وبنغازي. فأجواء الجامعة مختلفة تماماً عما سبقها من مراحل تعليمية، فالطلبة لم يكونوا متعودين على الدراسة المختلطة مع البنات، وبعضهم لم يكن يأبه لهندامه كثيراً، فلعله يرتدي الزي المحلي المعتاد كل يوم دون أن يفكر فيه كثيراً، وكذلك السكن بالأقسام الداخلية هو تحول كبير في حياة الطالب يختلف عن كل المراحل السابقة. ورغم أنني من مواليد طرابلس ودرست بها المرحلة الابتدائية لكنني شعرت بهذه النقلة. وشعرت بها عند غيري أكثر. ولم يكن هناك أي تمهيد لهذه النقلة.

في الجامعة، ترى بأم عينيك صورة المجتمع الليبي المترامي الأطراف والأنحاء مجتمعة داخل سور واحد، ترى العادات المختلفة واللهجات المتنوعة.

ويتسع عالم الجامعة أكثر وأكثر لمن أقام داخلها وعاش بين أسوارها، يتنقل بين قاعاتها ومكتباتها وكافتيرياتها ومناماتها.

تمر الأيام، تتلوها الشهور، تطويها السنوات. هكذا هي الصورة عن بعد، أما عن قرب فأنا أمام كليتي التي درست بها، كلية التربية بجامعة الفاتح بطـرابلس عام 1981.

كان عدد الطلاب كبيراً في كليتنا وكان عدد الطالبات أكبـر. وكـن أكثـر اهتماماً بالدراسة وأكثر تفوقاً. ومن عجائب الأقدار أن اجتمعنا خمسة من الأوائل على مستوى البلاد في نفس الكلية ونفس القسم ونفس المجموعة.

أما الأساتذة، فهم يختلفون عن أساتذة الثانوية من حيث العلاقة مع الطالـب ومن حيث التعامل مع مواضيع الدراسة، فالأستاذ الجامعي أميـر نفسـه، هـو وضميره وإخلاصه، وهم أنواع:

منهم من ملك ناصية مادته، يوصل المعلومة بأقل جهد ووقت، ومنهم متوسط التمكن لكنه يملك أداة التوصيل الجيدة. ومنهم من لايملك هـذا ولا ذاك تمضـي محاضرته بين لهو وحديث ونكات. ومنهم من يكره قلة وكثرة السؤال والطالـب يستطيع أن يميز بين ذلك كله.

وفي قسمنا، قسم اللغة الإنجليزية، درسنا كل السنوات ولم نكن محظـوظين مثل زملائنا الذين سبقونا بسنوات قليلة، حيث كـانوا يدرسـون سـنةً دراسـية ببريطانيا ويقضون فيها صيفاً كاملاً أيضاً. وكذلك كان قدرنا بعد التخرج حيـث ألغيت اللغة الإنجليزية بعد سنوات قليلة بقرار لاشك أنه كـان خاطئـاً وغيـر مدروس، أثر سلباً على تحصيل الطلاب وخاصةً في المرحلة الجامعية. واليـوم تعود اللغة الإنجليزية لتدرس في المدارس الابتدائية فسبحان مغير الأحوال.

درسنا أساتذة كثيرون، من أمريكا وانجلترا، وكندا وبعض أساتذة بلادنـا. منهم الدكتور التهامي الترهوني الذي درسـنا الأدب الإنجليـزي، أو بـالأحرى الشعر الإنجليزي وكانت له طريقته الخاصة في الإلقاء، وكان يقرضـه كـذلك. وكان يحضر معه قهوته، ويضع رجله بطريقة عجيبة فوق الطاولة. ورغم حبي للأدب إلا أنني صدمت بشدة عندما نجحت في المادة بتقدير متواضع جداً. وقـد بقي في ذاكرتي حتى اليوم بعض تلك الأبيات الرائعة من سونت وليم شكسـبير التي يقارن فيها بين حبيبته ويوم صيفي ويصف محبوبته بأنها أجمل وألطف.

وممن درسنا أيضاً الدكتورة روحية كاره، والتي شغلت بعد ذلـك منصـب عميدة كلية اللغات، والدكتورة ليلى العرادي وكانتا تملكان طلاقةً ملفتةً. ودرسنا أيضاً الدكتورالصهبي بلحوق والدكتور سعدون السويح الذي كان يتمتع بتقـدير

واسع لعلمه وحسن خلقه. ودرسنا في مادة الأدب الأستاذ خليفة العزابي، كان أستاذاً رائعاً متمكناً لكنه كان كثير الغياب لارتباطاته في الترجمة في مؤسسات الدولة الرسمية والأستاذ فتحي الزليطني، والدكتور محمد المجدوب والأستاذ حسين العجيلي، الذي كان بحق أستاذاً فاضلاً متمكناً ذا شخصية مهيبة، لكنه ذو مزاج متقلب وحاد، فالشعرة التي تفصل بين جده وهزله وسروره وغضبه أدق من شعرة معاوية. وكانت له أيام تدريسه لنا قصة طريفة، فقد أصر الأستاذ على الطالبات أن تتقيد بالزي الجامعي وأنه لن يسمح لمن تخالف ذلك بدخول الفصل كائنة من كانت، وكان من لوازم هذا الزي أن ترتدي الطالبة سروالاً. وكان له ما أراد فعلاً وأخرج من لم تلتزم بذلك ولم يجد حرجاً ولا غضاضة في ذلك. ولكن الطريف في القصة أن معظم الطالبات كن يُحضرن معهن السراويل في حقائبهن ويلبسنها قبيل الحصة، وقد كنا نسمي ذلك اليوم بيوم السراويل.

وممن درسنا من غير الليبيين، الأستاذ الفاضل شميم حيدر، رحمه الله، كان أستاذاً منظماً، حاضر النكته، سريع البديهة، محبوباً من كل طلابه وزملائه. ودرسنا أستاذ كندي في الأدب، لايحضرني اسمه، كنا نستمع إليه وهو يحلل ويفصل رائعة الأديب الإنجليزي تشارلز ديكنز "أوقات عصيبة" فكنا نستمع إليه وكأن على رءوسنا الطير. يجول بنا ويصول دون أن نمل حديثه. ولست أنسى ذلك الأستاذ الأمريكي، أو رجل المتاحف، كما كنا نسميه. كان عجيباً في هندامه وطريقة كلامه ولم يسلم يوماً من تعليقاتنا.

ودرسنا أيضاً أساتذة من الأقسام الأخرى في المواد الداعمة غير التخصصية. ومن هؤلاء الأستاذ الفاضل الدكتورأحمد الفنيش، رحمه الله،الذي ما تزال صورته ماثلةً أمام عيني ببدلته السوداء أو الزرقاء ومعطفه الطويل الذي لا أتخيله بدونه، صاحب كتاب *(المجتمع الليبي ومشكلاته)* من مطبوعات دار مكتبة النور بطرابلس سنة 1967م، وكتاب *(أصول التربية)* وكتاب *(استراتيجية التربية الاستقصائية)*. وكان الرجل يرأس النشاط الثقافي بنادي الوحدة الرياضي الثقافي بطرابلس؛ صاحب الخلق الرفيع والأدب الجم، كان يحترم الطالب ويعامله معاملة راقية، يحترم عقله وفكره ولا يرضى منه أن يكون مجرد مستمع. أذكر جلستنا في محاضراته وكأنها الآن. نجلس على هيئة نصف دائرة، يفتتح الدرس، ويطرح محاوره ثم يترك لنا الفرصة جميعاً للحوار والنقاش، ولعله بذلك كان يعكس رؤاه الفكرية في التربية والتعليم محاولاً تغيير الصورة السائدة والتي لا يلعب فيه المتعلم غير الدور السلبي، دور المتلقي الصامت، وهوبذلك يؤكد نظريات علماء التربية المسلمين في التعليم مثل الغزالي وابن خلدون الذي

خصص أكثر من مائة صفحة في مقدمته المشهورة في هذه المسألة حيث أفرد فيها باباً كاملاً " في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه "، يتضمن وحده خمسين فصلاً.

وكم أسفت عندما فجعت بنعيه، وتألمت وما زلت أتألم أكثر وأكثر، كيف لا يخصص له ولأمثاله مكان ووقت في إعلامنا للتعريف بهم وبجهدهم.

وكان من هؤلاء الأساتذة الأفاضل أيضاً، الأستاذ الفاضل عبدالله الهوني، رحمه الله، هذا الرجل العملاق، كان رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، يحب أن يتعلم الناس العربية ويسهل الطريق لمن يرغب في ذلك، كان الطلاب يقولون عنه: " هذا الرجل لا يعرف لا إلا في لاإله إلا الله " أحبه الجميع حباً لا يتصوره إلا من حضر جنازته، وكنت ممن حضرها. ما رأيت جنازة مثلها، شارك فيها خلق كثير وقيلت فيه المراثي، وقد أقيم له حفل تأبين كبير ألقيت فيه كلمات وقصائد، جمعت كلها وصدرت في كتاب " وفاء ". كنت إذا اقتربت من مكتبه وجدت زحاماً شديداً وكنت تراه يهش لهذا ويبش في وجه هذا ويقضي حوائج الموجودين جميعاً دون سخط أو تبرم. لقد كان عبدالله الهوني مثلاً نادراً للطيبة والخلق الحسن والتفاني في خدمة الآخرين.

ولقد ربطتني بهذا القسم علاقات طيبة خاصة عندما تقدمت للدراسات العليا بشعبة الإسلاميات التابعة لقسم اللغة العربية. وقد درسنا جهابذة كبار، منهم العلامة الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، حفظه الله ومد في عمره، صاحب مدونة "الفقه المالكي"، هذه الموسوعة الفقهية التي أحدثت تحولاً كبيراً في التعامل مع الفقه المالكي، فقد ابتكر الشيخ أسلوباً سهلاً سهّل لعموم الناس فهم هذا الفقه بعيداً عن الحواشي والمتون التي يصعب على غير المتخصصين التعامل معها، وشفع هذه الأحكام بأدلتها، وقد لقي الكتاب قبولاً وانتشاراً. وممن درسنا الدكتور عبد الرحمن عطبة، صاحب كتاب المكتبة العربية، وكان وقتها يأتينا أستاذاً زائراً حيث كان مقيمًا في قطر. وهو من الشام. والدكتور أمين الطيبي أستاذ التاريخ المعروف، فلسطيني، والذي كنت أتعجب من طريقة إلقائه فهي تذكرني بمذيعي إذاعة لندن العربية، لكن عجبي زال عندما علمت أنه عمل بها فعلاً.

وكذلك كنا نحضر من وقت لآخر مناقشة بعض رسائل الماجستير التي تناقش في الكلية، وكانت تشهد مناقشات علمية جادة بين الطالب ولجنة المناقشة وأحياناً بين الأستاذ المشرف وأعضاء اللجنة. وكانت ساعات المناقشة ساعات عصيبة على الطالب، يتصبب فيها عرقاً، ولكن يصبره أن الشجاعة صبر ساعة

وستمضي هذه الساعة ويصير بعدها أستاذاً يبارك له الجميع. وممن بقي في ذاكرتي من هذه الأسماء الدكتور عمر التومي الشيباني، رحمه الله، وهو من أقدم الشخصيات الليبية التي تحصلت على الدكتوراه من الغرب، وبالتحديد من الولايات المتحدة، من جامعة جورج واشنطن عام 1962 بامتياز ودرجة الشرف الأولى. صاحب كتاب (فلسفة التربية العربية الإسلامية) وله مؤلفات أخرى كثيرة تزيد عن الثلاثين كتاباً، والدكتور محمد الدسوقي (مصر)، والدكتور محمد أحمد الشريف، والدكتور العلامة إبراهيم رفيدة، رحمه الله، الذي كلما وجدت اسمه ضمن أعضاء لجنة المناقشة، أشفقت على الطالب لما سيخوض من أمواج بحر لا ساحل له.هذا الرجل، صاحب كتاب (النحو وكتب التفسير) الذي نال به درجة الدكتوراة بامتياز مع درجة الشرف الأولى.هذا العملاق، أزعم أنه كان أحد القلائل في العالم العربي والإسلامي في تمكنه في النحو، ولكن للأسف تنتهي أعلامنا ولا يرى لها علم. هذا الغياب الإعلامي والدعائي لعلماء ليبيا ومبدعيها من قديم جعل كثيراً من أبناء الشعوب العربية لا يتصورون أن في ليبيا علماءً وكتاباً ومبدعين.

وإذا ما انتهينا من محاضراتنا الصباحية يممنا وجوهنا نحو المطعم لنصيب الغداء وفي طريقنا نمر بكلية العلوم وقد أحاط الطلاب والطالبات بمداخلها، وهناك تربض المكتبة المركزية التي ربطتني بها ذكريات وذكريات أكثر مما ربطتني بمكتبة كليتي. فهي أكبر حجماً وأكثر تنوعاً في الكتب وأقل إزعاجاً. أما المكتبة الأخري التي أحببناها بما تُتحفنا به من كتب قيمة لا توجد في غيرها، فهي مكتبة المبيعات، فأسعارها مخفضة جداً، وقد استفاد منها كثير من الناس من خارج الجامعة أيضاً. وأكثر الكتب التي تلقى رواجاً وإقبالاً عند الطلبة وغيرهم هي الكتب الإسلامية. ولست أنسى ذلك الكتاب الذي أحضر منه كميات كبيرة جداً، وبقي لفترة طويلة في المخازن ثم أفرج عنه وما أن انتشر الخبر حتى كنت ترى الطوابير الطويلة يومياً أمام هذه المكتبة.هذا الكتاب هو كتاب " فقه السنة ".

وقبل أن نصل المطعم، يطالعنا ذلك الطابور الطويل أمام المطعم. طابور له بداية وليس له نهاية وليس هناك بد من الانتظار وهو انتظار لو اغتنمته لقرأت فيه مجلدات. والغالب في الحال أن الاضطرار هو الذي يُلجئونا إليه. وداخل المطعم، تستطيع أن ترى خارطة ليبيا في تلك الطاولات الطويلة المصفوفة، فترى طاولة مصراته وطاولة زليطن وطاولة زوارة وطاولة بنغازي وطاولة غدامس وطاولة مسلاته و.......... الخ.

وقد يمر بنا يوم أو يومان نكتفي بالجاف من الطعام وما أحضرناه من بيوتنا من زميته وبسيسة و..... أما إذا أقبل رمضان فكنا، أنا ورفاق الغرفة، نطلق المطعم طلاقاً رجعياً نعود إليه قبل انقضاء العدة، أي عقب العيد. ونرتب أمر إفطارنا بأنفسنا.وفي غرفتنا المريحة والتي حرصنا أن تكون مريحة لنا في إقامتنا الطويلة، كنا نتعاون في كل شيء وكان الجو مفعماً بالمحبة والأخوة والتعاون. وكثيراً ما كانت جلسة الشاي بعد الغداء يحضرها بعض الأصدقاء. ولا تخلو هذه اللمات من هدرزات ونكات ونقد للأساتذة. ورغم تخصصي الأدبي، فقد كان زملاء الغرفة من كلية الهندسة وباقي الأصدقاء الذين تربطهم بغرفتنا علاقة طيبة أغلبهم من كلية الهندسة والطب. وكنت أزور كليتهم (الهندسة) وحضرت معهم، جانباً من افتتاح المؤتمر الهندسي الليبي الأول. وكنت أسمع منهم عن أسماء كثيرة ما زالت عالقة بذهني، منهم الدكتور العكي وتميزه العلمي، وعكعك والدكتور فتحي باره، والدكتور القمودي – وامتحاناته المقطرة- والدكتور الأمين بالحاج وشخصيته المحبوبة والدكتور عبد المجيد أبوروين وجرأته غير العادية. وأنا أسمع ولا أعرف منهم أحداً في ذلك الوقت. أما طلبة الطب فلهم أجواؤهم الخاصة وكان يحبون أن تكون لهم خصوصية ولو اصطنعوها اصطناعاً، وكانوا يبوحون بذلك ويشكون من ضيق وقتهم وكثرة درسهم وأنهم يختلفون عن غيرهم من الطلبة.

أما القسم الداخلي، فهو عبارة عن عدة عمارات تنسب إلى جنسية الشركات التي بنتها، فأقدمها عمارات اليونسكو ثم الألمانيات ثم الكوريات، واستخدام هذه المصطلحات مألوف عند الطلبة غريب على من خارجها. وقد كنت مرة مع زميل لي من خارج الجامعة فتعجب منا ونحن نتحدث عن الألمانيات والكوريات حتى أوضحنا له المقصود فزال عجبه. وقد سكنت بالعمارات الألمانية وهي في مجموعها اثنتا عشرة عمارة. وهي عمارات ممتازة التصميم، مناسبة تماما للطلاب. أما الكوريات فهي عبارة عن شقق صغيرة جداً يسكنها في الغالب بعض الدكاترة الأجانب وطلبة الدراسات العليا وقد سكنتها أيضاً. عموماً كانت حالة القسم الداخلي تسوء عاماً بعد عام، وقد عانينا أياماً عصيبة بسبب قلة الإعتناء بالنظافة والصيانة. وهذا كان يربك الطلاب إرباكاً شديداً ويؤثر على نفسياتهم. ولست أنسى صديقي الذي انتصب واقفاً في سريره إثر قبلة سمجة من فأرة (قنطشة) دخلت من بلكونة غرفته. ولكن عددها، القناطش، كان أقل من تلك التي كنت أراها تتسلق العمارات من الدور الأرضي وحتى الدور الرابع وهي لا تلوي على شيء وكأنها لاعب سيرك يؤدي حركاته بكل رشاقة على الحبل.

أما المناشط الطلابية سواء الرياضية أو الفنية فإنني لم أكن أكلف بها كلفاً يثبتها في ذاكرتي فقد كانت تقام بعض المعارض الفنية، تعرض فيها لوحات ورسومات لبعض الطلاب الموهوبين، وكذلك يقام من وقت لآخر دوري في كرة القدم وغيرها من الألعاب , وكذلك بعض الحفلات الفنية؛ وكان ضمن هذه المناشط مسرحية حضرتها وأعجبتني قام بها قسم النشاط الطلابي, كان مسرحية اجتماعية نقدية مثل فيها بعض الممثلين وبعض الطلاب الهواة ؛ وكان الأستاذ محمد شرف الدين والفنان يوسف الكردي هم نجما هذه المسرحية وكان أداؤهما رائعاً نال إعجاب الطلاب والحاضرين جميعا، ويومها أدركت قيمة المسرح والفن الهادف في حياة الشعوب. فالفن الهادف ليس تزجية للوقت بل هو أداة من أدوات الإصلاح الاجتماعي، أما إذا تحول، كما هو الواقع في الغالب، إلى الضحك من أجل الضحك، فإنه لا يثمر إلا مزيداً من الجهل والاستخفاف ولن يكون أستاذاً للشعوب.

أما تقييمي لتلك المرحلة أو تلك الرحلة التي استغرقت خمس سنوات، فقد كانت تجربة خصبة مثمرة. زودتنا بمفاتيح المعرفة وعرفتنا بأصدقاء أعزاء وزملاء أفاضل وأساتذة كرام. وكان الأمل أكبر أن تكون تلك الرحلة أكثر ثراءً وإمتاعاً ومعرفة. لكن كما تقول العرب ما لا يدرك كله لا يترك جله، وأضاف بعضهم ما لا يدرك جله لايترك قله، أي قليله. وأظننا قد أصبنا ما بين الجل والقل.

هذا ما لدي من بقايا ذكريات الجامعة بحت بالمتاح والمباح منها وأبقيت لنفسي بقيتها. بحت بالذي يبعث في النفس الأمل، ويجدد فيها النية للإخلاص والعمل ويذكر بفضل أهل الفضل عسى أن تكون مقبلات الأيام حبلى بما هو خير.



عفوية النص الملون
في
لوحات محمود الحاسي

يقول بيكاسو :

« لقد أمضيتُ سنة طويلة لكي أتعلم أن أرسم مثل رافائيل وقد نجحتُ - لكنني أمضيت سنوات أطول لأرسم مثلما يفعل الأطفال » !

ذلك أن الرسم بتلقائية وبراءة بالنسبة للفنان المحترف أمرٌ بلوغه بالغ الصعوبة .

.. لكنما الفنان محمود الحاسي تمكّنه موهبته الإبداعية ، وعمله الشاق لعقود في مرسمه ، من الاقتراب كثيراً مما كان يعنيه بيكاسو .

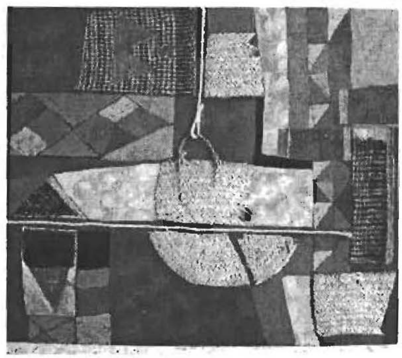
إنه يرسم بعفوية مطلقة ، مضفياً عليها تقنية عالية في تعامله مع الألوان ، موشحاً - إياها بأنماطه البنائية ، ورؤاه ، مما يجعل من اللوحة — في نهاية المطاف — عملاً خلاقاً يثير كوامن النفس إلى حد الدهشة .

خليفة التواتي

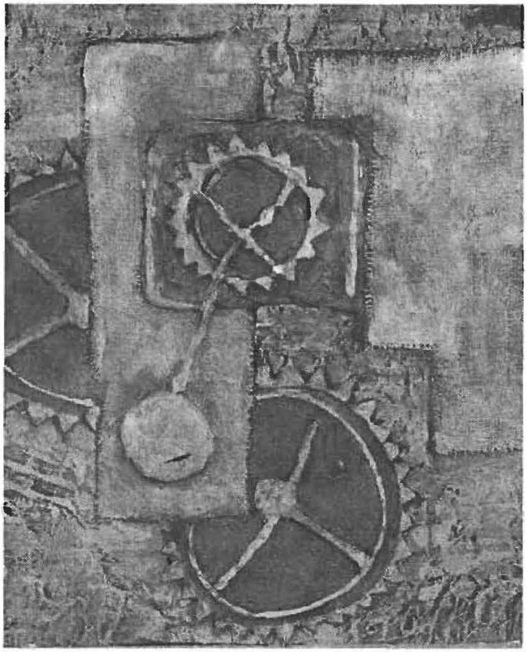
20 - 11 - 2000

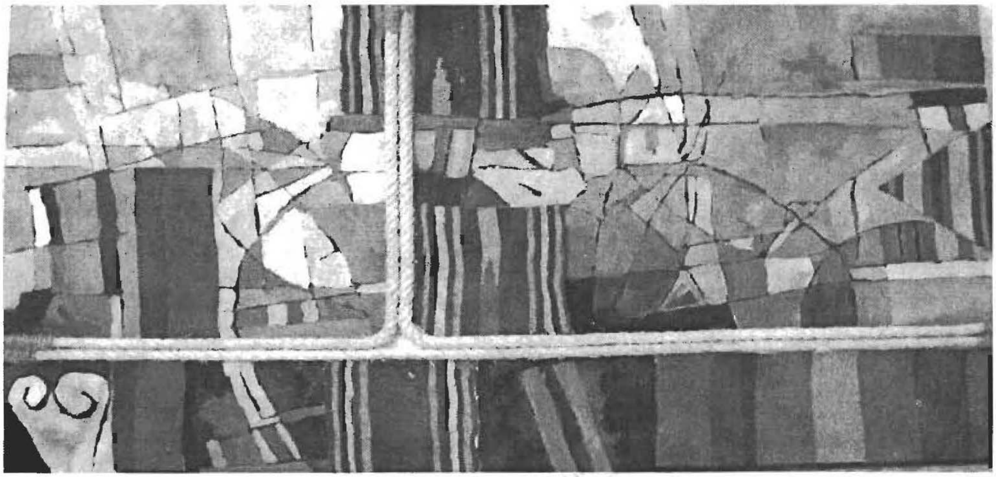




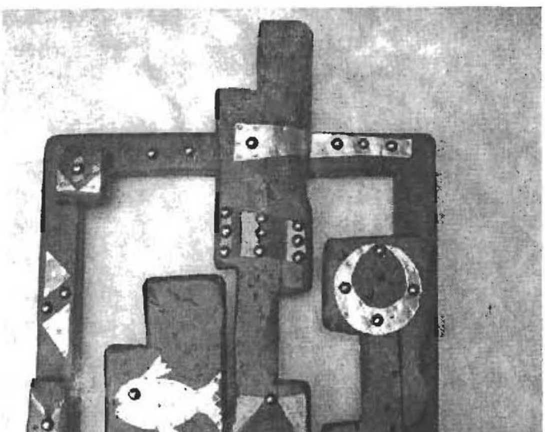


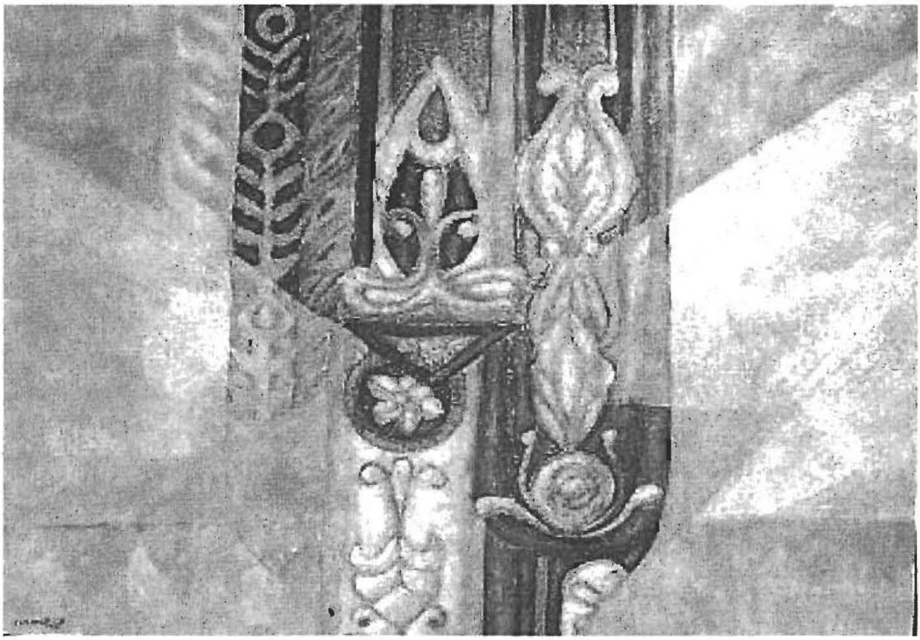




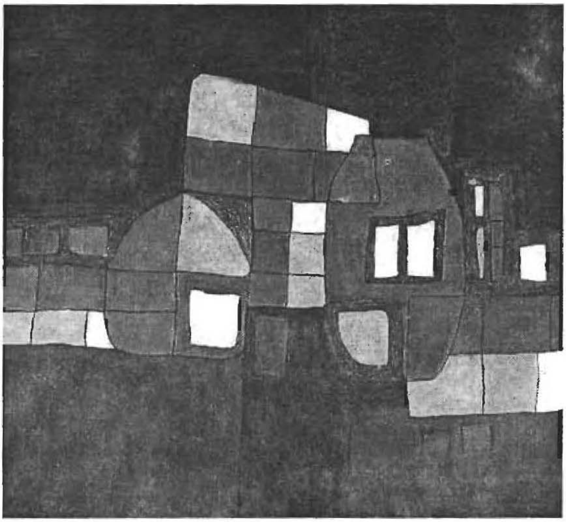


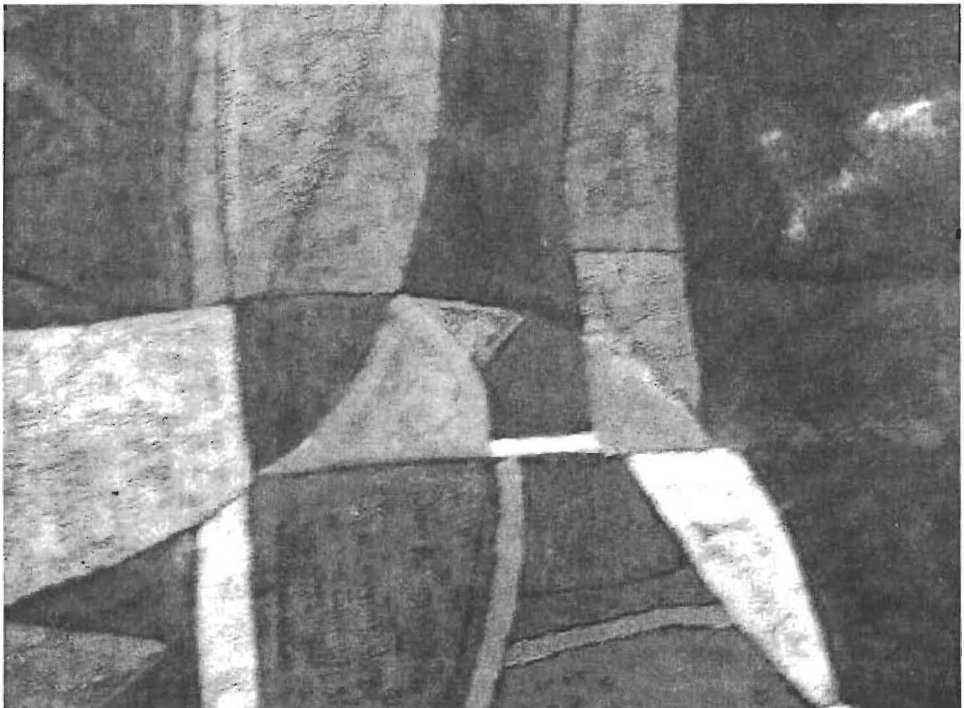


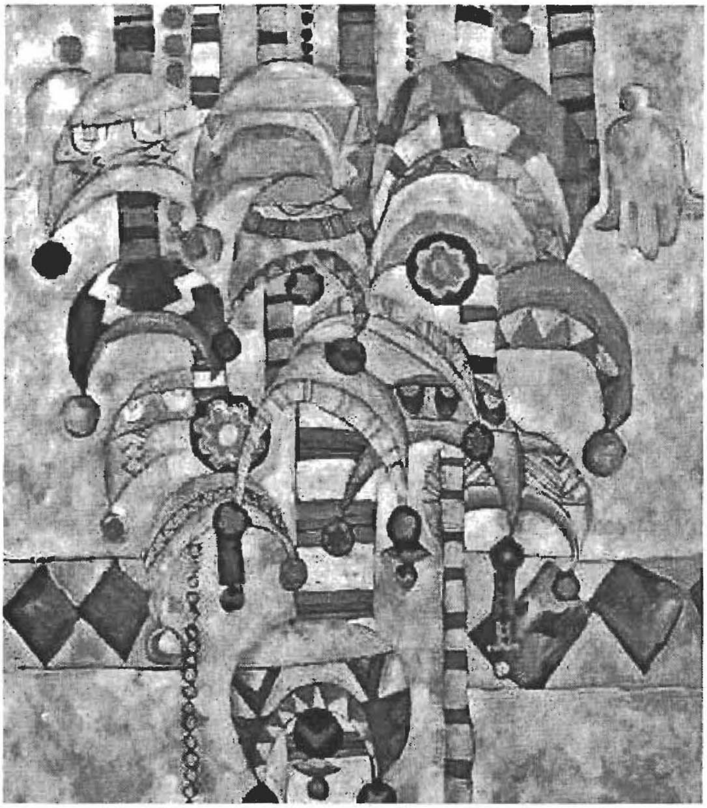


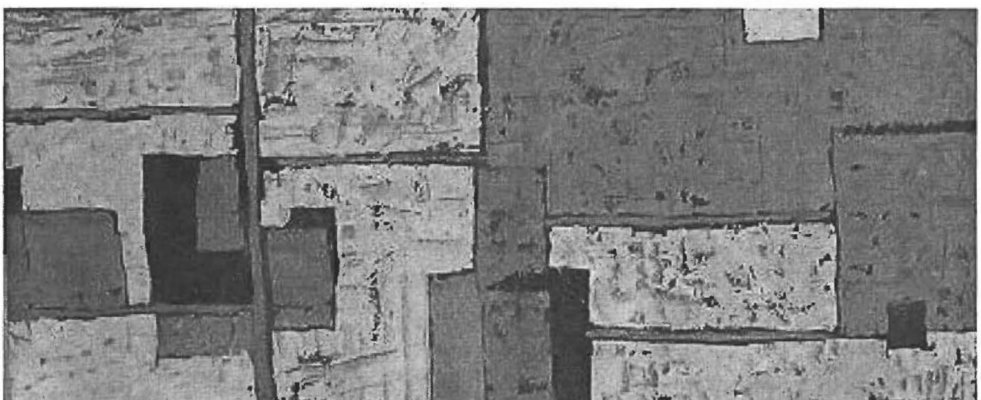


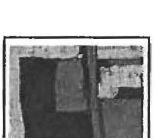












بصائر التشكيل



مختارات من الكلمات التي تقاتل

يوسف القويري

(1) الحكاية وفن السرد

كان السؤال الأول الذي واجهني وأنا أفحص مجموعة يوسف الشـريف (*) هو: أين الأديب في هذه المجموعة؟ بمعنى: إلى أي حد استطاع الكاتب أن يتغلب علىٍ خشونة اللغة وبرودتها وتراكيبها الشائعة المتداولة، وأن يصنع- بالتـالي- نثراً تتوفر فيه الحساسية، والحرارة، والروح، والابتكار.

وهذه- فيما أظن- نقطة بالغة الأهمية، بل هي الفاصل الحقيقي بـين الفـن الأدبي، والكتابة العادية.

والمثال على ذلك أن اللغة قد تكون طيعة، سهلة الاستدعاء عند كاتب عاديٍ لا يمتلك موهبة الخلق والإبداع، وليكن هذا الكاتب باحثاً اجتماعياً أو اقتصـادياً يستطيع أن ينجز عشرات الصفحات العميقة، الرصينة، المفيدة.. قد تكون اللغـة عند هذا الكاتب متدفقة تتوارد كلماتها في ذهنة بلا عناء، ومع ذلك فإن هذه اللغة تظل مفتقرة إلى العنصر الغامض، المؤثر، الذي يميز نثر الأديب.

ولو افترضنا أن هذا الباحث الاجتماعي أو الاقتصادي ينطوي في داخله على استعداد الفنان وروحه ومزاجه، أي علىٍ ملكة التعبير الأدبي، لرأينا أن النثر بين يديه يكتسب خواص جديدة ويصبح قادراً- حينئذ- على أن يحركنا، ويثير

(*) "الجدار" مجموعة قصص – الجائزة الثالثة في مسابقة 1965- اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب.

عواطفنا المختلفة برغم أن المادة التي يعالجها الباحث تقاوم بطبيعتها هذه النزعة الوجدانية.

وبذلك يكون النثر مقياساً دقيقاً يساعدنا على معرفة ما إذا كان هناك أديب وراء الكلمات، أم لا. والحقيقة أنني استعمل لفظة (النثر) موسعاً حدود معناها إلى درجة قد لا تحتملها طبيعة الكلمة، فأنا أعني بها القدرة على نقل الانفعال بواسطة الكلمات وهي أدوات عصية لابد أن يعاركها الكاتب طويلاً حتى يُخضعها لإحساسه، وأعني أيضاً طريقة الأداء أو النسج أو العرض، وكيفية بناء الجمل والمواقف.

فكيف (ينثر) يوسف الشريف مادته القصصية؟ ها هي ثلاث فقرات، من ثلاث قصص مختلفة:

الفقرة الأولى:

"أن تحدث قصة حب في شارعنا فهذا شيء طبيعي ومألوف.. بل ويمكن القول أنه ضروري، وأن يحب منصور فهذا أيضاً ليس بجريمة يمكن أن يعاقب عليها، ولكن إذا عرفنا من يحب منصور فسنجد أن الأمر ليس طبيعياً". (حكاية عن الحب- ص13).

الفقرة الثانية:

"غريب ذلك الحادث الذي وقع في شارعنا منذ أسبوع وسيظل لأيام وشهور، بل لسنوات مقبلة، قصة تروي بشغف في مجالس السمار". الرحيل\-ص 31.

الفقرة الثالثة:

" لم يعتقد أحد أن ما حدث في الشارع يمكن أن يحدث... فالمعروف عنه شدة محافظته على التقاليد.. هذا رغم وجوده قرب المدينة.. فالأسر العريقة وقفت سداً منيعاً أمام بعض المحاولات التي كادت تغير فيه الحياة.. مثال ذلك عندما دخلت فاطمة مهنة التمريض فلاحقتها الألسن بما لا يمكن كتابته، حتى أدى بها الأمر إلى هجر الشارع، ولم يعرف أحد مصيرها حتى الآن". حكاية قديمة – ص 47.

وجميع هذه الفقرات هي استهلال أو بداية للقصص الثلاث، والمهم أن هذا الاستهلال أو هذه البداية شائعة بالنسبة لمعظم قصص المجموعة، وقد اخترتها فقط كمثال لتوضيح الشكل الفني الذي يميل إليه الكاتب ويعشقه. وأعنى به: السرد.

والسرد جزء من العمل الأدبي، فثمة مواقف وأحداث تتطلب من الأديب أن يختصرها ويضغطها ولا يقدمها للقارئ في حالة (حضورها)، وحالة الحضور هي أن ترى الشخص في القصة (متحركاً) أمامك يشم، ويتذوق، ويتكلم، ويرفض، ويرقد، ويهز رأسه أو قدميه، وبعبارة أخرى، فإن لحظة الحضور هي غياب الكاتب عن التدخل في النص الأدبي تدخلاً مباشراً.

ولكن إلحاح السرد، أو ضرورته، تكون أكثر بروزاً في العمل الروائي، فهو- أي العمل الروائي- لأنه يعالج حياة كاملة لشخص أو أشخاص بكل ما تحتويه هذه الحياة كاملة لشخص أو أشخاص بكل ما تحتويه هذه الحياة من ملايين اللحظات الهامة مضطر- لأسباب تكنيكية وجمالية- أن ينأ عن التصوير والتشريح وإعطاء الحركة الكاملة للمشهد أو اللحظة، ولهذا يلجأ إلى ضغط واختصار اللحظات الأقل أهمية، وإلى الاعتماد على السرد من خلال ذاكرة الشخصية التي يعرضها، وأحياناً يلجأ إلي السرد المباشر دون أن يخل ذلك بسباق روايته أو يضعفه طالما كان ماهراً في فهم هذه النقطة الهامة: كيف يسرد، ومتى يتوقف عن السرد؟!

إلا أن السرد، بالنسبة للقصة القصيرة بالذات لا يبدون عنصراً ملحاً بأي حال. فالقصة القصيرة لا تواجه مسئولية ***حياة كاملة***، بل هي تواجه مسئولية لحظة واحدة أو عدة لحظات متلاحقة في حياة شخص أو أشخاص، والمطلوب منها أن تجسد هذه اللحظة أو اللحظات المتلاحقة بأكبر قدر من التركيز، والتوتر، والقدرة علىجعل الحدث ي حضور وحركة.

وهذا لا ينفي- بالطبع- أن السرد يفرض نفسه في بعض الأحيان على القصة القصيرة كمطلب ضروري، إلا أن هذه "الأحايين" قليلة جداً، بل نادرة. وقد ارتكزت القصة العربية في مطلع نهضتها على السرد، وكان ذلك لسببين: أولاً، لاختلاط معنى الحكاية بها. وثانياً، لحداثة أو جدة القصة القصيرة- كفن- على الأدب العربي.

واستهلال يوسف الشريف ليس في حقيقة الأمر- منحصراً في كونه بداية لقصصه، بل إن استهلاله السردي هذا يسري على (جسم) معظم قصص المجموعة أي أنه ليس استهلالاً، بل شكلاً عاماً للمعالجة الأدبية، ولكن ينبغي أن أستدرك مشيراً إلى أن هذا الشكل العام يزاحمه شكل آخر أنضج- وسوف أشير إليه- إلا أنه شكل مخنوق، يتنفس بصعوبة، لأن الشريف لا يمنحه كثيراً من اهتمامه وجهده، ولعل هذا يرجع إلى أن مجموعة (الجدار) لا تمثل تمثيلاً كافياً

المستوى الراهن لمؤلفها، فهو - مثلاً- في قصص أخرى لم تنشر ضمن هذا الكتاب يلوح وكأنه قد أعطى لذلك الشكل المخنوق اهتماماً أكبر.

وعلى أي حال، وحتى لا ننسى، فأنا أعني بهذا الشكل المخنوق: التصوير الفني، التجسيد، حالة الحضور.. وكلها دلالات مترادفة ومتقاربة.

والآن، لماذا اختار يوسف الشريف هذا الشكل وهو يعرف مزالقه، ومصاعبه، وأخطاره، وفوق ذلك يعرف أنه شكل قديم، أولي للقصة القصيرة. يقولون إن الشباب ملتهب الطموح، وهذا صحيح، وكان من البديهي- والأمر كذلك- أن يلجأ يوسف الشريف إلى الأشكال الفنية الحديثة الصعبة، وأن يطرقها، وأن يحاولها، على الأقل- أن لم يكن بدافع الوعي بها- فبدافع الرفض التقليدي الذي يتخذه الشباب بصدد الأشكال القديمة، سواء كان ذلك في الفن أو في المجتمع!!

فلماذا لم يفعل ذلك؟!

إن الإجابة على هذا اسؤال هي التي وضعت يدي على الإجابة الأخرى لأول سؤال طرحته: أين هو الأديب في هذه المجموعة؟ فمؤلف (الجدار) يسرد، ويجد نفسه مسوقاً لأن يسرد لأن ملكة التعبير عنده تتخذ مجرى معيناً، وهو الحكاية، ولست أقصد بـ (الحكاية) أنه يكتب حكايات- وهذا معنى يتبادر إلى الذهن على الفور- ولكني أقصد أن ملكة التعبير لديه هي- بالضبط- الرغبة في أن يحكي.. صار.. وصار.. وكذا.. وكذا.. وكذا.. ورأيت.. وسمعت.. وحدث.. ولم يحدث. والمعروف أن الذي يحكي يتملكه نوع من الايقاع الخفي، وأنه يكون مذهولاً عن نفسه، وعن الوعي الكامل بالناس الذين يصغون له، فحكايته تأسره وتسيطر عليه. والقصاص، أو فلنقل الأديب هو- على وجه العموم مع مراعاة الاستثناء- رجل لا يجيد الحديث العادي إجادة تامة، هو رجل لا يعرف كيف يحكي للآخرين بتلك النشوة المألوفة، وأن كان يعرف كيف يناقش جيداً، ولهذا فإن الكلمات تشكل- بالنسبة له- الجسر الوحيد الذي يربطه عميقاً بالآخرين وبالعالم، إلا أن الأديب يطور هذه الرغبة الأولية- أي رغبته في أن يحكي للآخرين ما شاهده وما أحسه إلى مستويات جديدة، عميقة، باقية، ذلك إذن هو السبب في أن يوسف الشريف إنصاع إلى الشكل السردي وذلك إذن هو الأديب في المجموعة. فخلف النثر إيقاع لا يكاد يسمع، وخلف النثر رغبة مكبوتة في أن يحكي الإنسان، ويشارك، ويقول بيد أن هذا الميل الخاص للكاتب في أن يحكي- على مستوى اللغة المكتوبة- بنفس الايقاع الاجتماعي المعتاد- أي إيقاع (الهدرزة)- اصطدام

داخل نفسه بالتكوين الفني أو الوعي الفني استمده من مطالعة الأعمال القصصية في الشرق والغرب، ولهذا فهو بقدر ما يقترب من السرد كطريقة أداء تتجاوب معها روحه، بقدر ما يبتعد عنها باعتبارها نقصاً فنياً خطيراً، والمجموعة تعكس هذا التأرجح والصراع. فالقصة عنده تسترسل على مستوى واحد هو السرد، وأحياناً نجد أنه يلجأ فجأة إلى التصوير، وأحياناً أخرى نجد أن التصوير يتغلب على السرد وهكذا.

والمثال على انتصار التصوير أو تململ الشكل الناضج المخنوق، يتضح من هذه الفقرة:

"أنتهى الشيخ بلعيد من ركعاته الأربع في ساعة. ولبس حذاءه.. ولف جسمه الضئيل في حوليه الأبيض الرقيق.. وبدأت أصابع يديه البيضاء تطارد حبات المسبحة.. في حركة ليست طبيعة.. بينما شفتيه "!" تنطقان مع كل حبة بأشياء لا يعرفها إل هو. الشيء الخفي– ص 55.

وفقرة أخرى:

"تحرك عطية في جلسته ثم أخرج علبة البافرة وعمل لنفسه سيجارة وعندما شعر بدخانها يصل إلى رئتيه أراح جسمه على الحائط ثم عبر عن ارتياحه فقال من خلال انفه: يا سلا.." الغريب – ص79.

والتصوير في الفقرتين السابقتين لا يصل إلى مداه، ولكنه في الفقرة القادمة– وهي الفقرة الوحيدة في كل المجموعة التي استوقفتني طويلاً– يبلغ التصوير مداه الحقيقي لأنه يصهر اللقطة الفوتوغرافية للشخصية مع أعماقها صهراً فنياً مؤثراً، ولعل مرد ذلك إلى أن القصة التي اقتطعت منها هذه الفقرة هي مخزون نفسي قديم وعميق في وجدان الكاتب، مخزون استطاع أن ينقل المؤلف نقلة مفاجئة بعيداً عن الروح السائدة في مجموعته.

الفقرة:

".. وسألتني في صوت متردد خافت، مفتاح.. مساء الخير.. بوك مريض؟ وأجبتها بإيماءة من رأسي.. وتمنيت لو أقف معها طويلاً أحكي لها عن الخواطر الخرساء التي كانت تأكل أعصابي.. واندفعت أشق ظلمة الليل وقدماي تطاردان الطريق الذي كان يخيل إلى أنه لن ينتهي أبداً".

سويلمه– ص126.

وبعد ذلك، فقد أدى الالتزام بالسرد- الذي جاء بسبب الميل الخاص لملكة التعبير- إلى ازدحام القصص بتفاصيل كثيرة، زائدة، لا تخدم نمو الأحداث، ولا تعبئ القارئ وتشحنه في اتجاه محدد واضح. كما أن السرد دفع بالمؤلف إلى اقتحام السياق الدرامي للقصص اقتحاماً عنيفاً، وقد سبق أن قيلت هذه الملاحظة حول المجموعة، وأنا أضيف مثالاً واحداً هو:

"كانت حياتي وما تزال أشبه بمسرحية تراجيدية"

ص 128.

غير أن المجموعة، مع ذلك، وهذا هو المهم، وهذا هو أيضاً ما لم أقم بدراسته هنا فقد اقتصرت على إبداء ملاحظات حول الشكل تقريباً، كانت انشغالا صادقاً بمشاكل الناس وهمومهم، وكانت تعبيراً عن نبضات أديب جاد نأمل منه لوطننا، ولثقافتنا، كل خير، وعطاء وجهد، واستمرار فوق أرض هذه الطريق الطويلة، الشاقة.. طريق الإبداع الأدبي التي يتلمس الآن بدايتها.

(2) مخلوقات المؤلف

"عندما بحثت في أوراقي وجدت شيئاً فرحت به، وجدت مسودة نقد كان قد كتبه يوسف القويري عن مسرحيتي "المعاناة من أجل شئ" حالما فرغت من كتابتها، وكنت وقتها قد أخذت النقد واحتفظت به، رغم احتجاج يوسف وصيحاته بأنه لا يرغب في نشره باعتباره وجهة نظر سريعة. ولكن، لم أبال باحتجاج يوسف.. فقد تملكني الاعتزاز، وأحسست أن النقد الموضوعي هو ما نحتاج إليه، ويجب أن نتمسك به في مرحلتنا.

ربما خالفت يوسف فيما ذهب إليه، أو في بعضه، ولكنني قدرته، وقدرت ما كتب".

عبد الله القويري

من الأشياء الرديئة أن نجامل الفنان على حساب فنه. وثمة فرق جوهري بين النقد والإبداع، فمهمة الناقد يسيرة بالنسبة لمهمة الإنسان الذي يخلق لنا "حياة" على الورق.. والفنان لأنه "داخل" العمل لا يمكنه أن "يراه": أن يكون "داخله وخارجاً عنه في نفس الوقت". لذلك فإن رؤية الناقد لأبعاد العمل تتسم بطابع "الموضوعة" فهو يتلقاه بلا تفكير سابق ولا معاناة، ولا معايشة للتفاصيل التي تضني ذهن الكاتب وعواطفه.. وهو – أي الناق- قادر على أن يتناول العمل كمتلق لا يحمل إيما فكرة عما يريد الكاتب أن يقوله.. وهنا يتم تقدير نجاح العمل

الفني: هل استطاع أن "يؤثر" علينا؟! أن يجعلنا نقتنع أن ما نقرأه حقيقي.. وحي؟؟

ولندخل الآنِ إلى قلب العمل: مسرحية "المعاناة من أجل شئ". ينتقى الكاتب لحظة صعبة جداً لأنها عادية جداً وهذا الانتخاب وعر لأن إضفاء الجو الفني الغني بالظلا على لحظة عادية عمل إبداعي خارق. فهو النسبة للقصة القصيرة- كما نجد عند انطون تشيكوف ومكسيم جوركي- يحتاج إلى معالجة متمرسة. أما بالنسبة للمسرح فإن صعوبته تشتد وتتعاظم بسبب أن المسرح يحقق "واقعياً" هذه اللحظة للجمهور، سالباً من العمل الفني مقدرة الإيهام التي تمتلكها القصة القصيرة. لأن حدود المسرح أكثر "كثافة" من حدود القصة القصيرة، والمفروض على الكاتب المسرحي أن يرينا- بالنسبة لمعالجته للحظة العادية- كل ما نراه فيها في الحياة الواقعية، وإلا فإن الجمهور سيشعر يقيناً أن ما يشاهده هو مجرد نسخ وفوتوغرافيا، ويصيبه الملل لأن الكاتب لم يبهر أنفاسه بما في هذه اللحظة العادية من ثراء والتفاتات وأعماق.. وكل هذا في حدود الحوار والحركة. اللحظة في المسرحية هي مجموعة من الأصدقاء تجلس في منزل، تشرب وتتناقش. الشخصيات: سامي: كاتب والأصدقاء من حوله: فتحي أحمد، عبد الحميد، وعم سامي: محمد. ومنذ بداية المسرحية حتى نهايتها لا يطرأ عليها جديد سوى توافد الأصدقاء والأقارب على المسرح وخروجهم عقب النقاش. ولست أدري هل يعتقد المؤلف أن خروج الممثلين ودخولهم هو الذي يشكل حدود "الحركة المسرحية" عنده، وهو الذي قرأنا له في أعمال سابقة نظرة أكثر عمقاً إلى مفهوم وتقنية "الحركة" المسرحية؟!

إن خروج الممثلين ودخولهم لا يؤدي وظيفة "الحركة" في المسرحية. ونحن لا نجد أي ارتباط أو علاقة بين خروج الممثلين ودخولهم، توافد الأصدقاء، ومجيء الرجل العجوز قريب سامي، والدقات الكثيرة على الأبواب، لا نجد أي ارتباط بين كل ذلك وبين البناء الدرامي للمسرحية. فهذا الدخول والخروج لم يطور المسرحية وينقلها إلى مستوى جديد، فاللحظة الآنية هي هي لم تتبدل منذ البداية حتى النهاية.

التعارض الوحيد الواضح في المسرحية كان في "النقاش". أما ما يبدو من "حركات" هنا وهناك فهي مجرد أشياء تأتي مفروضة على العمل وليست نابعة من نموه الداخلي. ماذا يحدث لو لم يدخل عم سامي: لا شئ. أما الذي أدى إليه دخوله: لا شئ! فالقلق الذي بدأ به "سامي" هو نفس القلق الذي انتهى إليه، وقد

استقطبت شخصيته جميع الشخصيات الأخرى حتى بدأ وجود عشرة منها أو عشرين أو ثلاثة فقط أمر لا يؤثر ولا يخلو شئ من كيان المسرحية.

لأجل ذلك تبدو المسرحية "محاورة" أكثر منها مسرحية بالمعنى الحقيقي. وقضية الجزائر تأتي عرضاً في الحديث حتى أننا ننساها بمجرد دخول عم سامي..

جاءت قضية الجزائر صدفة، وكان من الممكن ألا تجئ "سيرتها" رغم أن المؤلف اختار هذه النقطة من الحوار اسماً لمسرحيته- أبدل المؤلف اسم المسرحية قبل طبعها- وكان واجبه طالما اتخذ "اصداءها" محتوى للمسرحية أن يجعل كل ما يدور من أمور في خدمة إبراز هذه الأصداء وتجسيدها.

كان الحوار بديعاً يحمل طابع المؤلف. أسلوب قافز، رشيق، فخم الأداء، ولكن بدأ أن المؤلف نفسه يتحدث من خلال الاشخاص، وكان بإمكان أحمد أن يقول كلام عبد الحميد، أو يقوم عبد الحمي كلام فتحي، فليس للشخصيات أماق وعوالم ذاتية تربطنا بهم كأحياء لا كرموز لأفكار الكاتب.

إن مسرحية "المعاناة من أجل شئ" تثبت قدرة المؤلف على تقديم تكنيك بليغ في الحوار، ولكنها- من جانب آخر- مسرحية بلا بناء، ولعل الكاتب يقدم لنا من خلال هذا العمل عملاً جديداً يشد انتباهنا ويثير خيالنا ومشاعرنا.

(3) قريباً من المنبع

"**إن ثقافتنا الوطنية** لا تزال قريبة من المنبع، لا زالت تشق مجراها الطويل، وهي لم تصل بعد إلى المصب،لم تصبح تياراً واضح الاتجاه، ومازالت أيضاً ضعيفة الارتباط بالمجتمع إلى حد مؤلم".

طريقتهم في كتابة التاريخ غريبة حقاً!

أذكر أنه منذ وقت غير قصير نشرت إحدى الصحف الليبية تحقيقاً حول أزمة الثقافة والمثقفين. وقد نشرت بعدئذ- وعلى فترات متباعدة في صحف أخرى- تحقيقات كثيرة حول نفس الموضوع. والواقع أن كلمة "أزمة" قد لا تعجب الكثيرين، مثلما لا تعجبني أنا مثلاً! فهي كلمة سهلة، تلصق إعتباطاً بأي شئ، فهناك أزمة خضروات وأزمة لحوم وأزمة مساكن، وهكذا. ولكن كلمة "أزمة" لا مح لها في نطاق التعبير عن واقع الثقافة والمثقفين في بلادنا.

ولو سألنا الشخص الذي يستعمل هذه اللفظة ويقرنها بالثقافة عن قصده لما أعطانا جواباً شافياً، وأقصى ما يمكن ان تسعفه به قريحته هو كلمة "مشكلة"!

سيقول أنه يقصد بـ "الأزمة"..."مشكلة"، ثم يتوقف! والمعروف أن الأزمة هي منعطف خطير حرج، أو هي ضائقة عميقة.

فالأزمة قمة التوتر لعديد من المشاكل التي تشابكت وتعقدت.

والثقافة في هذه البلاد لم تتأزم، لأن "التأزم" يعني أنها قد قطعت مراحل طويلة، وأنها بحكم غناها وتنوعا وتعد تياراتها واصطداماتها الناجحة والفاشلة بصخرة الواقع الاجتماعي، وتكدس مشاكلها النظري والتطبيقية قد بلغت مستوى الأزمة، وأصبحت تجابه تناقضات عميقة داخلية وخارجية تتطلب الحل. وقد نفهم مثلاً أن تكون هناك أزمة في الثقافة الصينية تتم مواجهتها على الصعيد السياسي فالثقافة هناك تتخذ معني التربية أكثر مما تتخذ أي معنى آخر، ففي تلك الرقعة الآسيوية الشاسعة يلتحم العمل النظري بالتطبيق التحاما شديداً، ولهذا فالثقافة تعطي دلالة التربية أو الدليل المرشد للعمل الاجتماعي الواسع، أي للممارسة، وبهذا تكون أزمة الثقافة الصينية هي انعكاس أمين للتناقضات الاجتماعية والتاريخية القائمة، تكون هي الصراع بين الرواسب الفكرية للطبقات القديمة التي عاشت في ظل المانشو والإقطاع وبين الطبقات الجديدة. وليس هذا المقال دراسة لطبيعة الأزمة الثقافة الصينية وصحة أو خطأ الوسائل السياسة التي يعالجون بها الأزمة هناك. لكن ما يعنينا – فقط– هو التدليل على أن أزمة الثقافة لا تولد إلا من سياق التاريخي فكري طويل امتلأ بمئات المعارك والمشاكل ثم بلغ في ظرف معين– وبضغط محتواه الاجتماعي نفسه– مستوى الأزمة التي تستلزم الحل.

وهذا ما يؤكده الكاتب الصيني الكبير "كوموجو" الذي خدم التحولات الاجتماعية في الصين الجديدة بفنه وبجهوده السياسية المباشرة والذي شكّل أدبه محاكمة كاملة للمجتمع القديم، ومع ذلك فقد وقف ينقد نفسه نقداً ذاتياً– شديد الصرامة إلى حد مؤلم– قائلاً أن بعض مفاهيم الصين القديمة قد تسربت إلى أدبه وأضعفت محتواه، وانه سيواصل النضال لتصفية الرواسب المتبقية في نفسه والمنعكسة في أدبه، وان كل حياته إنما هي في خدمة قضية الشعب الصيني، وبقية شعوب العالم.

فالأزمة كلمة كبيرة إذن، وإذا كنا نشتاق إليها فلابد أن ننتظر جيلاً آخر أو أكثر أو اقل!

واستطرادا للمثال السابق نقول إنه من الممكن أن تقرن الأزمة بالوضع الثقافي في الجزائر، لأن الاستعمار الفرنسي الذي استمر في ذلك القطر الشقيق أجيالا استطاع أن يفرض لغته، وساعده الوقت الطويل على تثبيتها، فأجبر بذلك كتاباً عظاماً مثل محمد ديب وكاتب ياسين ومولد معمري أن يكتبوا بوجدان

جزائري عن مشكلات قومية جزائرية بلسان فرنسي! فاللغة الفرنسية- رغم أنها لغة عظيمة وراقية- فهي تمثل في الجزائر حاجزاً ينبغي كسره ليتحقق للشخصية الجزائرية الاكتمال القومي، وهذا ما تناضل الجزائر الآن- ضمن مجالات نضالها المختلفة- كي تنجزه.

وبناء على ذلك يكون من المفهوم أن هناك أزمة في الثقافة الجزائرية لأن اللغة المصدرة من باريس تحد من انطلاق قوي التعبير القومي، أو هي تفقد هذه القوى ملامحها الدقيقة التي يتعذر على أي لغة أخرى غير اللغة الوطنية تصويرها.

وقد نفهم أيضاً ان تكون هناك أزمة في الثقافة المصرية حيث يرتفع الجدل حول ضعف الدور الذي يلعبه المثقف في التغيير الاجتماعي لبلده وهي هناك أزمة تطبيق لم تأت غفلة من الزمن، إنما جاءت كنتائج لانهيار القوائم الاقتصادية للمجتمع الإقطاعي دون انهيار قوائمه الفكرية، وكنتائج لـ "ذهول " أو "دهشة" المثقف الوطني أمام سرعة التحولات السياسية والاقتصادية التي أحس وكأنه لم يشارك في إنجازها مشاركة كافية رغم إنه ظل يبشر بها عقوداً كاملة من السنين.

ولكن كيف نفهم أن في بلادنا أزمة دون أن يكون لهذه الأزمة سند تاريخي أو اجتماعي يمكن رؤيته وتحديده؟

إن ثقافتنا الوطنية لا تزال قريبة من المنبع، لا زالت تشق مجراها الطويل، وهي لم تصل بعد إلى المصب، لم تصبح تياراً واضح الاتجاه، ومازالت أيضاً ضعيفة الارتباط بالمجتمع الى حد مؤلم. ولكل هذا بالطبع أسباب معروفة، أبرزها التخلف الحضاري، وتأخر ميلاد الطلائع الثقافية نتيجة للعهد الاستعماري الإيطالي، وغير ذلك. وليس هذا من باب التقليل فالبداية الحقيقية للعمل الثقافي الذي يحمل شيئاً من القدرة على الاسترسال تعود إلى ما قبل الاستقلال بسنوات قليلة. وهذه فترة زمنية قصيرة نسبياً. ولكن إذا لم تكن هناك أزمة فماذا هناك إذن؟! كما سبق، هناك مشكلة مختلفة تواجه المجري الثقافي الضيق الصعب الذي يشق طريقه عبر رمال شديدة العطش، هناك مصاعب البداية ومسئولياتها. والبداية مليئة بالقلق، وعدم الثبات، والمفاجآت. لقد قيل في تلك الصحيفة التي أشرت إليها في بداية المقال "إن المثقف يلم قشه ويبني عشه"! ولا أدري لماذا رسخت هذه العبارة في ذاكرتي طوال هذا الوقت، ربما لطرافتها، وغرابتها. فما الذي يحول بين أن يلم المثقف أو أي مخلوق آخر قشه ويبني عشه وبين استمراره في العمل العام؟! إننا نفهم ان المثقف الذي ينقلب تاجرا ويقطع كل

صلاته بالرسالة النبيلة التي ينبغي ان يمنحها كثيراً من وقته، إننا نفهم ان مثقفاً من هذا الطراز غير مفيد من البداية. ولكننا لا نفهم مطلقاً ما هو المانع بين أن يبني المثقف عشه ويبني وطنه في نفس الوقت، مفكراً في الطرق والأساليب التي يمكن بفضلها أن تتسع الحريات العامة وتزدهر الثقافة وتتطور ويشتد عودها وتصل إلى كل بيت وعقل وتستفيد من اشتباكها بالهيئة الاجتماعية لتعود ن جديد فتنمو أكثر فأكثر وتصبح غضاريفها عظاماً قوية قادرة على احتمال الصدمات ومواصلة حفر المجري الطويل، عبر الرمال الكثيرة نحو المصب، حيث يكتمل النهر، ويبدأ تياره الذي لا يوقفه شيء.

(4) الناس يدخلون المحراب

إن خوفو – الملك الفرعوني الشهير – لم يبن الهرم، ولكنه –فقط– رقد فيه رقدته الأبدية!"

طريقتهم في كتابة التاريخ غريبة حقاً! فنحن لا نجد في طول مؤلفاتهم وعرضها أي إشارة لحياة الأكثرية كالصناع الحرفيين والفلاحين والعمال والتجار... إلى آخر قائمة البشر الذين يشكلون فعلاً قسمات العصر التاريخية المختلفة والمتعاقبة. وإن جاءت هذه الإشارة فهي تجئ باستحياء شديد وكأن المؤرخ يكشف للقراء عورته. لا نجد في مؤلفاتهم سوى سير السلاطين والغزاة والقادة العسكريين وأحياناً نتف من حياة الفقهاء، وهي نتف ساذجة تهتم بإبراز الأنساب والعروق والبطون دون أن توضح كفاح أصحابها أو تعرض للظروف التي واجهوها وعملوا في ضوئها. وكأن التاريخ بذلك هو تراجم شخصية للسلاطين والغزاة. والمكتبة العربية مزدحمة بهذا النوع الرديء من المؤلفات القديمة، ومن المؤسف أن غالبية المؤرخين الأولين كانت تعتمد هذا المنهج العجيب في تسجيل التاريخ، فتطمس بذلك معالمه وتزيفه دون قصد أو بقصد حتى لا نكاد نرى عبر ثلاثة قرون أو أربعة سوى مجموعة من السلاطين والفقهاء، ولا شيء غير ذلك!

لا ينكر أحد– بطبيعة الحال– أن السلاطين والفقهاء والغزاة موجودون في التاريخ وأنهم أحد أجزائه. بيد أننا– مثلاً– لا نستطيع أن نفهم التاريخ الأوربي في عهد نابليون بونابرت إذا ما اقتصر التسجيل التاريخي الذي نقرأه على شخصية هذا القائد وحياته الخاصة ومعاركه. هذه أشياء ضرورية داخل المشهد

التاريخي ولكنها بمفردها لا تشكل اللوحة الكاملة. إن نابليون سيبدو حينئذ أشبع ما يكون بنبات شيطاني فهو يتألق يصعد ويدير معاركه وينتصر ويمسك بزمام السلطة ثم ينهزم وينطفئ في منفاه، كل ذلك بمعزل عن "الظروف" التاريخية العريضة من حوله، وهي الظروف التي تعطينا التفسير الصحيح لشخصية نابليون وحقيقة دوره وترسم لنا مشهداً متكاملاً للتاريخ الأوربي في ذلك الحين.

بل إن ثمة أخطاء جسيمة تنتج عن هذا الفصل المتعسف بين الفرد وظروفه أو بيئته التاريخية. من ذلك- مثلاً - اعتباره الفترة التاريخية السابقة للإسلام في شبه الجزيرة العربية فترة جدباء خالية من أية حضارة أو نشاط ذي أهمية، فهي جاهلية تعصف في جنباتها الرياح المحملة بالرمال والخلافات الدموية بين القبائل.

والمؤرخ التقليدي يرتكب هذا الخطأ الفاحش مدفوعاً بمؤثرين، أولهما أن اهتمامه منصب فقط على الأعلام والأشخاص البارزين، وبالتالي فإن الفترات التاريخية الخالية- نسبياً- من "الأفراد القمم" والمحتشدة- في نفس الوقت - بالجهود الصغيرة المضنية والتيارات الحضارية البطيئة، هذه الفترات لا تعنيه على الإطلاق. وثانيهما انه بصدد المرحلة الجاهلية- يغلب الاعتبار الديني، وهذا يسوقه إلى إهمال أي قيمة حضارية أو إنسانية للفترة الجاهلية وعدم الالتفات إلى بذور التطور بداخلها.

ويؤدي هذا الخطأ الشنيع إلى نتائج عكسية تماماً، فهو يفصل الحركة الإسلامية- وهي هنا غير النص الديني- عن السياق التاريخي ويجردها من ماضيها وينأى بها عن الظروف السابقة التي تمخضت عنها. وعلى هذا الأساس نجد أنفسنا عاجزين عن تفسير وفهم قادة الحركة الإسلامية الأوائل الذين تعزز بهم الإسلام وقويت شوكته أمثال أبي بكر الصديق وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وغيرهم....

فليس معقولاً على الإطلاق أن يكون هؤلاء القادة العسكريون والسياسيون بلا ماض معين في ظل حضارة معينة بغض النظر عن طابعها الوثني.

إن المقدرة العسكرية لخالد بن الوليد وتكوينه الحربي سابقة للإسلام، وكذلك أصول التكوين السياسي لعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. ومعني هذا أن هؤلاء جميعاً أستمدوا تكوينهم الشخصي- العسكري والسياسي- من منابع حضارية وفكرية سابقة للإسلام بتعذر إهمالها.

وقد حطم المؤرخ العظيم وعالم الاجتماع البارز عبد الرحمن بن خلدون الدائرة القديمة التي كان المؤرخون يدورون في إطارها، وألقى النور ساطعاً على

حياة الجماعة في التاريخ، وأدخلها إلى محراب الكتابات التاريخية التي كانت - في غالبيتها- مجرد مدائح أو شتائم شخصية يكتبها المؤرخون للسلاطين دون سواهم. أدخل ابن خلدون"الناس" إلى التاريخ، وأعاد الهرم المقلوب إلى وضعه الصحيح. فالناس- منذ الأزل- هم الذين يصنعون الحياة، وهم الذين يعطون- بكفاحهم وأخطائهم وعملهم- لجميع عصور التاريخ المغزى والمحتوى والشكل أيضاً.

إن خوفو - الملك الفرعوني الشهير- لم يبن الهرم ولكنه- فقط- رقد فيه رقدته الأبدية! والتماثيل العظيمة وأعمدة المعابد وسقوف الكنائس ونقوش المساجد الكبرى في مصر والعراق وأثينا وروما لم ينحتها وينقشها ويشيدها القادة العسكريون ولا الأباطرة والسلاطين، إنما نحتها وصممها وأقامها الفنانون والمهندسون والعمال! والتاريخ الخاص بالحضارة البابلية -مثلاً- صنعه عمل ملايين من الناس، أي صنعته الخبرة التاريخية المتكدسة والمتطورة جيلاً بعد جيل. ولا يمكن أن نعزو إلى شخص مهما كان شأنهم منجزات حضارة كاملة. وبالتالي فإن المؤرخ الذي يحصر التاريخ في سير السلاطين والفقهاء حاذفاً كل البشر الآخرين من حسابه فإنه -ولا شك يكذب ويزيف ويكتب تاريخ أسرة أو أسر، ولكنه لا يكتب تاريخاً عاماً. وابن خلدون شق عصا الطاعة على ذلك المنهج البليد الذي كان يتبعه المؤرخون الأوائل، وضع- لأول مرة في العالم باعتراف المستشرقين الأمناء -بداية النظرة العلمية التي يمكننا أن نفسر التاريخ بواسطتها.

فالتاريخ لا يعيد نفسه أبداً...

والتاريخ لا يسير مترنحاً كالمسطول.

والتاريخ لا يصنعه السلاطين والفقهاء فقط.

وقد أفضى إهمال دور الجماعة في التاريخ واستقطاب البطل والفرد لجميع الأحداث والمنجزات إلى اللجوء إلى روايات مغرقة في السطحية والسذاجة، بل إلى اللجوء للخرافة نفسها حين "يخطر" للمؤرخ التقليدي أن يشير إلى المساحات التاريخية المليئة بالظلال، أي الظروف أو البيئات العامة التي تحيط بالأبطال والأفراد اللامعين.

وكتاب "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" يعطينا مثالاً من مئات الأمثلة الأخرى التي تزخر بها كتب التاريخ القديم عن مدى عدم الدقة والإهمال الذي يرافق عمل المؤرخ عندما يتحدث عن ظرف عام. فـ حضرة صاحب السعادة أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي أحد أعضاء مجلس "شهر امانت"

الجليلة بدار السعادة، يروي الواقعة التالية- ويبدو أنها كانت خرافة رائجة في ذلك الحين- ليفسر بها سبب غزو الأسبانيول لطرابلس...

" فبينما أهل طرابلس في أرغد عيش وأهناه، قد أستأثروا مهاد الدعة واستطابوا خفض العيش، وطال نومهم في ظل الغرف والسلم فاستوت الحامية والرعية، وتشابه الجندي والحضري، إذا قدمت سففن النصارى الأسبانيول تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى، فخرج اليهم رجل من التجار فأشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمناً، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً، فلما اخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً ورشها على طعامهم، فبهتوا لذلك، فلما فرغوا قدم لهم بطيخاً أخضر فطلبوا سكيناً لقطعها فلم توجد سكين في داره ولا عند جاره، إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين، فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم مالكهم عن حال البلد التي قدموا منها، فقالوا: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً واقل سلاحاً وأعجز أهلاً من مدافعة عدو...."

وهكذا تتحول الخرافة إلى مصدر للوقائع، والناس إلى كم مهمل وغامض، ويصبح التاريخ بأكمله حكاية سخيفة يطفو فوقها السلاطين والغزاة والفقهاء!



* ((المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب))، ص197

مكابدات الجيلاني

مختارات من شعر جيلاني طريبشان

أحمد الفيتوري



أنا آخر السفهاء لديهم
ولكنني واعجباً آخر الشعراء!
أنا آخر من طاردته القواميس
واللغة العربية

الجيلانى الشاعر المنفى !

أحمد الفيتوري

عصّي الجيلانى، وهو يقف بعيداً عن الشعر بالشعر وفى الشعر، شاعراً لم يلتفت إليه ناقد أو باحث، يعيش شعره غريباً مثلما يعيش الجيلانى نفسه فى منفى نفسه (رجبانى مقطوع من شجرة)، من منفى إلى منفى كائن ولا أحـد، كـأن الجيلانى ينتمي لغيره حيث " أية دراسة جدية للشعر تكشف أن الفرق الحقيقـي بين الشاعر الأصيل والشاعر المقلد هو أن الأول مقلد بصورة أكثر خفاء " فلهذا كأن شعره شعر الآخرين رغم أنه دمه وخبزه وتعلة وجوده كما ينبئ به الـنص الذى يبدو مفككاً ومتلعثماً، فشعريته تأخذها الرياح أينما ولـى الشـاعر وجهـه فيسكنه شعر الآخرين مأخوذاً بالحب والوله كصوفي مريد يبحث عن الحق كمـا يبحث عن الجمال ضالته.

وإذا كان اسمه منفى، فإن شعره المنفى تأخـذه سـيكولوجية الضـال عـن الطريق؛ فهو يبدو من شعرية الستينات التى وصمت بالواقعية ولكن نصه مـن "قصيدة النثر" رؤية وبنية – فالتركيز المحكم فى "قصيدة النثر" يؤدى إلى كثافـة نفسية، وهذا معلم سرمدي فى طبيعة القول الشعري – و إن كانت موزونة كمـا هى قصيدة التفعيلة، وكما هى قصيدة الذات المكلومة والمحاصرة فى جبتها فإن عباءتها يمكن أن تكون لسعدي يوسف حتى يبدو الليبي جيلانى طريبشان عراقياً أكثر من شيخه سعدي وذلك لأن قصيدة الجيلانى تكتسـب ضـوءها مـن كـل القصائد التى كتبت، فكل شيء يردد صدى كل شيء سـواه، ولا شـيء يقـف بمعزل، من هنا جاء الآخرون إلى شعر الجيلانى فالشعر عنـده وكمـا يقـول لوتريامون من صنع الجميع لا من صنع فرد واحد.

تجيء قصيدة الجيلانى هكذا دفقة واختزالا لتنفى الفكر عنها وتحيـل علـى الشطح الصوفي فى مكابداته الاولى، صوفية الفقراء الذين يعانون شظف الحياة، لهذا فإن قصيدة الجيلانى قصيدة الشظف بنية ودلالة، تلملم نفسها مـن أنفـاس الحالة والوجد بالحياة وبالشقاء كمتلازمين ضروريين للفن ضرورة الفن نفسه،

ومن أنفاس الآخرين فالنص- وهو كذلك القصيدة في شعرية الجيلاني- لا يتناص وشعرية الآخر وحسب بل ويؤخذ بها أخذ مريد بشيخه، أخذ حبيب بحبيبه، أخذ ذاهل عن نفسه بمذهوله، أخذ صريع. فيكون النص الجيلاني كما ينتمي إليه ينتمي إلى الآخرين بالانتقال من الجوع إلى الحلم أي " التوحيد الوجودي بين الوسائل والغايات على كل صعيد لتكوين النص المسكون بالمسافة والهواجس والأسئلة "، فـ " تأتي لكل قارئ قراءة ".

إن جيلاني طريبشان لا يكتب نصه ولكن يقرأه في نص الآخر أو أنه يستعيده، ولأن الجيلاني لا ينتمي لأحد حتى للجيلاني فهو لايستعير قناع أحد لأنه الروح أو كما قال ماركس: (كل ما هو صلب فيه يتبدد ويتحول إلى أثير)! والنص لايختزل تجربة، هو حالة أو هو شطح بمعنى اللحظة- وهي الزمن عند أرسطو- اللطخة الأخيرة لفرشاة الرسام، فالنص هنا لا يريد أن يقول؛ يريد أن يكون ولهذا تظهر نصوص طريبشان دون وشائج لأنها تخفي وشيجة تشتت الجيلاني المذهول تجاه عالم كهذا، وخراب يزدهر باضطراد جلي، وبدون ادعاء لانستطيع أن نجد نص الجيلاني ولكن نجد نصوص طريبشان كل نص يبدو كائنا معزولاً ولا ينتمي لأحد، بذا هل يصح أن نقول التجربة الشعرية للجيلاني طريبشان ولاتكون أغلوطة بالمعنى الفلسفي للأغلوطة حيث يبدو وكأن هذا الكائن لا وجود له، فهو بهذا التعدد كائن ولا أحد كما أشرت، وأشرت بدءاً أن الجيلاني طريبشان الشاعر المنفي ومنفاه النص الجيلاني الذي يأخذه الوجد عن نصه فيبدو في النص مشغولا عنه فهو في عجلة من أمره وهو لا يهندمه وهو نص ينهمر كمطر مباغت في شتاء قاحل وبذا يصير النص قريباً لقارئه ولا تربطه وشائج بالشاعر كما أشرنا أيضاً لمسألة الوشيجة عند الجيلاني.

فهل بهذا يكون نص الجيلاني النص الذي لم يكتب بعد ولن يكتب باعتبارات عدة، فيكون النص المستحيل الذي يظهر الشاعر محروم نفسه ؛ فهو يكتب كوابيسه ويسرق لحظته في الجملة الأخيرة لكل نص، التي تظهر كلطخة الرسام الأخيرة والصرخة الأولى (صرخة المولود) حشرجة المحتج المحاصر في جب عميق ومكمم،كما يوسف في البئر.

في النثر نجد طريبشان سلسا، في الشعر نجد الجيلاني متلعثما، ولكنه ليس ثمة برزخ حتى يمكن أن نقول نثراً أو شعراً، وهو هنا بالذات تقليدي بمعنى أنه وهو يكتب النص يكتب قوانينه وهو المعذب القلق بالعالم عن نصه، هذه القوانين الصارمة التي تظهر في البنية المتقشفة والجملة الحوارية التي تستعير صرامتها من البنية المسرحية حتى يبدو نص الجيلاني نصاً دراميا تظهر البنية السردية فيه

غنائية ذاتية صادحة، فتكون هذه الخلائط قانونه الذى لا ينفك عنه فى نصوصه، وفى هذا لعله لسان " شعب لم يكف عن أن يحلم فوق طاقته ".

ورغم ذلك فالنص الجيلانى نص البساطة من حيث أنه يقول نفسه فتكون " عظمة الشرط الإنساني وبؤسه " كما يقول باسكال، والنص عنده لا يقول نفسه فقط ولكنه يأخذك لنفسه، فالشعر- عنده كما تنبئ نصوصه - جهاد يبدأ به الشاعر منذ الطفولة، وعلى طول الطريق التى يمر بها الشاعر يترك أثراً من دمه أو كما يقال.

ولا ينتمي نص الجيلانى لنصه فهو ناقض للنصوص، للنصية فى كل نص جديد، وإن كان لا يغادر الركح لا يغادر ركنه الذى ينزوي فيه حيث يبدو الشاعر فى النص وكأنه يرتكن زاوية معتمة ليشهد على المشهد من بعيد وهو الشاهد الوحيد الذى يعانى وحدته ويستمرها، إن العزلة هى نص الجيلانى الأصيل، وهى احتفاؤه بالحياة.

* إن المأساة الحقيقة الوحيدة التى شغلتني بحق والتى أحرص على الدوام على إعادة تصويرها هى صراع الفرد ضد كل ما يحول بينه وبين أن يكون أصيلا، وضد ما يعرقل كماله وتكامله، وأغلبها مما يكمن فى نفسه، أما البقية فأعراض خالصة: أندريه جيد.

أما أن القول يأخذ الجيلانى فهذا بين، فالنص - أحيانا - يغمغم بالزوائد، فيكون الحشو ظاهرا، مظهرا رغبة فى التقرب من متلق مفترض وفى هذا يخون الشاعر نفسه. وما يثقل نص الجيلانى هو هذه الثرثرة التى تبين عدم اهتمام الشاعر بالنص الذى يبدو وكأنه هم أزاحه الشاعر المثقل بالشعر عن شعريته، وهو بهذا يتحول إلى هجاء عصري يريد أن يكيل الصاع صاعين إلى عالم يقصى الإنسان وتهدر فيه حريته ويقمع فى وجوده وحسب. هذه الروح التى " تترك الشعار يفكر نيابة عنها " هى الروح التى تتبدد فى صيغ بالية من كثرة الاستعمال، وهى الروح المصابة برشح الزمن العادي، الزمن الذى يسير ؛ فى هذا من غير الممكن كتابة قصيدة ذات موقف مغاير لوعى الشاعر الذى وعيه - هنا - فيض من النقمة تجاه صورة (الإنسان المنخرط فى العالم التى تتلاشى فى غبار من المذاهب المتناقضة، التى تقف وراء بروز مقولات شائعة كالقلق والاضطراب الفكري والنفسي، وهى مقولات تجتاح الأدب الحديث من كل الجهات، ومن هنا أيضا يأتى تفكك القوانين الثقافية الذى يجتاح الفن ؛ ومنه تبرز

راهنية مفهوم العبث الذى ينقض جدوى المثل العليا والأحلام الذهبية لدى كبار اليوتبيين.) – داريوش شايغان، هذا القلق والعبث الذى ينقض الجدوى يحولان نص الجيلانى إلى صراخ فى وجه هكذا عالم وعويل لوجه الحلم الذى بدده القمع والعقم، إن يوتوبيا الجيلانى المغدورة ! تثقل نصه وتقشفه وتبدد طاقة الشاعر المقل القلق ؛ فإننا إزاء شاعر مهموم بالشعر مأخوذ بالعالم مهدور البذار، فالجملة – كما المفردة – قلقة وفى غير ترابط بالجملة الأخرى والسياق الشعري يأخذه – هذا – إلى المعتاد الذى أحيانا ينفلت باليومي بمعنى بشعرية اليومي التى تكثف الصورة (الشعرية تلك التى تمثل مركبا فكريا وعاطفيا فى لحظة من الزمن).

إن الشاعر المغلوب على أمره – حال الجيلانى طريبشان أحيانا – حاله حال الأعمى فى قصة العميان الشهيرة.

هذه القصة التى تلخص مشكل الشاعر الذى يكون محروم نفسه الذى يسكنه هاجس قول كل شئ وفي مرة، لكي يستعيد نفسه. فى حين أن الشاعر يحاول أبدا (استرجاع ذاته، قطعة، قطعة. يكتب القصائد لكنه مشروع قصيدة واحدة. كل القصائد الأخرى تمارين من أجل كتابة تلك القصيدة الوحيدة التى يسترجع بها، للحظة خاطفة الشريحة الأكبر من ذاته المفقودة) هذه الذات التى لا نعرف بالمعنى الصحيح أين توجد ؟

لم ينشر الجيلانى سوى ديوان هو البدايات الاولى، ولم يكتب إلا ما جمعه فى مخطوطين لم يصدرا حتى إعداد هذه الدراسة، لكن تلك البدايات أظهرت الجيلانى الشاعر كصوفي متعبد فى معبد الآخرين لهذا قال عنه الكاتب الليبي عبد الله القويرى: (كان يوما يعانى، كانت الكلمة فى أعماقه، وبعد سنوات العذاب أصبحت كلمته شعرا.. لا يستطيع إنسان إلا أن يسمعه. يقول احتراقا، وكان علينا أن نصغي إليه احتراقا، لم نستطيع، لم نقدر، ففي قلبه قدرة، فى قلبه زوبعة، فى عنائه شعر.. الجيلانى احتراق وعناء. هل استطعتم يوما أن تعيشوا العناء والاحتراق ؟! الجيلانى عاش ذلك، وانتظروا يوم أن يعيش أفراحكم، فهو يموت عناء من أجل حياتكم).

بهذا الحس كانت تلك البدايات " نحن نبات شيطاني، شجر نابت وسط الصخر "، والتى تبدو مثل ظل الشاعر ولعنته الأزلية أن يكون الشاعر وأن يكون فى بدايات متتالية لهذا يكتب صديقه إبراهيم الكوني مقدمة لديوان الجيلانى لن يصدر وإن صدرت هذه المقدمة ولكن فى كتاب ابراهيم الكوني الذى دائم النكران لبداياته (ملاحظات على جبين الغربة – الناشر دار الكتاب العربى

لصاحبها مصطفى المجعوك، طرابلس - الطبعة الاولى: مارس 1974م): .. جيلاني طريبشان الذى يتدفق شعره صبرا وتصبرا وطموحا ويقينا بالمستقبل وانتصارا له ولقيمه الجديدة. إنه نزيف مستمر وصبور فى سبيل قضية عادلة. لقد شاهدت ميلاد كل قصائد هذا الديوان تقريبا ... وهكذا بعد أن عشت معه ومع قصائده عمرا كاملا. بعد أن عشت معه محنة الغربة على مستوى الذات.وعشتها فى قصائده على مستوى الموضوع. بعد هذا لا أملك إلا أن أشعر بالسعادة. عندما أحتضن بكلماتي هذه قصائده برغم ما تتسم به هذه الكلمات من سرعة واقتضاب. فالواقع أنني لست بصدد تقديم لديوانه المنتظر أو إعداد دراسة له أو عنه، بقدر ما هو محاولة لتحديد ال " الخط " العام لقصائده فشعر جيلانى الذى استمر - طوال تجربته الشعرية - يفيض غضبا وحسما ورفضا لواقع التخلف، يقف بشموخ فى ناحية الفقراء، لأنه يعبر عن آلامهم كما يعبر عن محنتنا نحن".

جيلانى هذا شاعر طليعي..

هكذا تبين هذه الروح الاحتفائية بالجيلانى أن هذا الشعر كان ينتمي للحالة الشعرية المفترضة / القائمة على قدم وساق فى تلك المرحلة المشغولة بالآخرين وبقضايا وهموم الإنسان، وتبين انتماءه للتجربة الشعرية تلك ولكن بحرارة وصدق نادرين، فالجيلانى الشاعر الصوفي المتقشف الذى فى جملته الشعرية تكمن روح شظف الحياة التى يعيشها ويعيشها أناس بلده الذين ينير نفطهم الدنيا وهم فى ظلمة صحراوية، فى عجاج مملكة الرمال تكمن شعرية الجيلانى طريبشان الذى يعيش فى بيت صغير على ضفة بوابة الجحيم فى السفح الجنوبي للجبل الغربي حيث مكمن الصحراء الليبية الكبرى.



ابتهال إلى السيدة "ن"



تقفين على الناصية
تنشرين ملابسك الداخلية ؛
تتعرين فى لحظة الطلق غب السحر، وأنا واقف كإله
البرابرةِ القادمين على صهوات الجياد الهزيلة ؛
واقف فى الهشيم
واقف فى الظلام
نافض كل غابات أفريقيا
راصد وجهك الملكي ومتشح بالسواد
رافض نزوات الجسد ؛
تضحكين ؛
تضيء نواجذك الذهبية، يزحف القادمون؛!
يرفعون برانسهم ويدقون باب المدينة:
أيها القادمون من الظل: لحظةً، إن لى بينكم صاحباً كان يوماً
ينام بِداري، ويعرف أمي وأختي ويعرف جارى؛
كان يرعى الشياه، ويعشق أجمل ما أنجبته نساء القبيلة،
.... إنه قاتلي.... فليكن.
أيها الزاحفون على نغمات القبائل:
ضيّعتنا المدن.
تعبرين الشوارع غامضة، غير أنى أقرأ سرّكِ فى كل باب
وأعلم سر احتكام محبيك إلى البندقية،
لا زهداً، أتمنى يديك؛
تمرّان فى راحتيّ، وتداعب قلبي وتمسح ما خَلَّفَ الهمجُ المستبدونَ
من ندب فوق جلدي ؛...
لكنني الآن أسألهم، واحداً واحداً: هل تغفرون الإساءة ؟ !
يا امرأة الليل، أعرفهم قبل أن يعرفوك، وأعرف تاريخهم قبل أن تولدي،
وأعرف
أن الأماني الصغيرة، حين تلقين شعرك فوق وسائدهم، قد تذوب صباحا!،
واسألك الآن: إنني واقف فى ردهات المطار؛

يطاردني وجهك النبوي الجميل فأهرب من رخص عينيك الى البار أسأل النادل المغربي:
هل لديك ياسيدى سم سقراط ؟!
وأبصر وجهك خلف المرايا، أبصر عينيك، شعرك سأل:
من رتب القصة السكينة [1] الرائعة؟
* * *
وتنفتح الذاكرة، وأراكِ ورائي خلف المباني التى صادرتها الإرادة!
تنشرين تواريخك الناصعة، تغمزين بنهديك طير الفلاة!
تطلعين من السور، تعرضين مفاتنك البربرية..
ما الذى أزعج السيدة القبلية؟ قال لى صاحبي:
[-إن شكل الزهور على المنضدة لا يناسب]
لحظة أيها القادمون، هذه ليلتي وجه (نوارة) [2] يضحك المرتشون:
سيدي يا ابن دجلة
إن نخل العراق كئيب!
وتلك السموات ؟
" وفى المتوسط لا تستحم الكواسج ".[3]
لا ينبت الألف المشرئب على الشرفات الندية
بالورد، والعشق نار، وتلك القضية،
سأكمل يا سيدي بعض شعري
وأنت الضحية،
كلانا الضحية،
وعبد اللطيف[4] على المتوسط ينتظر الشارة النبوية

---

1 القصة السكنية: نسبة الى سكينة بنت الحسين- (عائشة عبد الرحمن).

2 نوارة: من الأسماء الشائعة فى الريف الليبي.

3 هذا البيت لسعدي يوسف.

4 إشارة الى الشاعر المغربي "عبد اللطيف اللعبى".

طقوس كل يوم

سأقيم مملكتي
وأبني خيمتي
ما شئت لا ما شاءت الأقدار
وأذكر صحبتي
أستحضِر الأرواح
بوركتَ أنت الواحدُ القهارُ
سأقيم مملكتي
يأتي ولا يأتي النهار

***

أي هذا الضجيج ؟
الذي أثقل الرأس، خدر الجمجمة.
أي هذا النحيب
أي هذا البليد يطاردني في المساء الكئيب.
أي هذا البليد
ال..... كنت أسميتها وطناً
.........وبلادي البعيدة
ما لهذي الحرون.... هل جربت نعيها في قصيدة؟

***

أين نجلس يا سيدي
نحتسي جعة ونحاور نخل الرميثة
أين البقية؟
لن تنتصب خيمة المغربي المهاجر
قبل اكتمال العدد.

***

حلوة غير أن التقارير تخدعها
حلوة غير أن التصاوير تخدعها
حلوة غير أن الوظيفة تقتلها
عن البرنامج اليومي

كنا خمسة فى باريس
يقتعد الواحد منا أرضية الغرفة
وجريدة " لوموند "،
ويدير الآخر منا " جرامافون " الصمت
فتغنى " لوليتا " أغنية حب
أو تهمس "فيروز" تناجى العودة
كنا خمسة لا نملك من أمر الأرض
سوى الصمت.

****

فى " الباص " الهابط من مونمارتر
يفاجئني الأفريقي الهارب من تطوان
يبيع الصمت وأردية النسوة، والعادات السمجة

****

فى " الشانزليزيه" تصحبني إيزابيل إلى المطعم
أقتات بباقات الورد، وألتهم شطيرة لحم الأوعال
فى " اللوفر ".. أعقل ناقات زياد
وأبيع قصائد طرفة بن العبد
وأكتب شعراً فى " تواليت " الصمت.

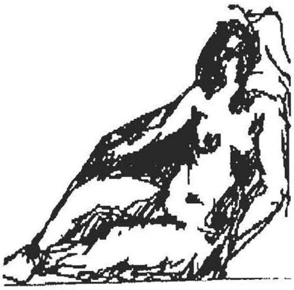
****

أقفل باب الغرفة
أطفئ تبغ الغجر على منضدة من وجدة
وأقلم أزهار الأصص البلورية
وأغنى:" بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه [1]
وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك إنما
نحاول ملكا أو نموتا فعذرا "
واقفل مرتعداً صوب الحان.

1- امرؤ القيس.

مكابدات

"الى فرج العربي"



ما الذي جئت تفعله
في بلاد... لست تعرف فيها أحداً
لقد آن أن تستريح...
ما الذي جئت تفعله؟
فالدوائر ليست كما تتراءى الدوائر
والشوارع عامرة بالأفاعي
والبنات يداومن في الصبح في الثكنات
والقبائل تتهيأ للرقص
في مهرجان النظام الجديد
ما الذي جئت تفعله ؟
تجلس الساعة في فندق يطل على المتوسط
ليس فيه من بهجة النزل سوى الضجيج
قبل عشرين عاماً
عرفتك الشجيرات في أول التل
طفلاً صغيراً
يطاردُ سرب الحمام
ويبني قصوراً في الرمل
أو وطناً يحلم أن يتبادل فيه المهمات
وها أنتذا الآن في جبل
ليس فيه من الأطلس غير الحجارة
تنتظر الشعر
تخلق طقسًا من الوهم
تفتش في ذكريات الليالي الطويلات
هل كنت أنا حقا ذلك المارد المتدفق بالأمنيات
أيها الشعر، أسألك الآن:
كيف تخبو الأماني الصغيرات
هل ذبلت زهرة القلب
أيها الشعر: آه... لو جئتني قبل هذا السكون
حين كان القميص مشجرا.

مقاطع ما قبل الرحيل الأخير

يذكر السرو
والطير يذكر، تذكر الأمسيات، ويذكر المترفون على الطرقات!
ويذكر الليل (صالة الشاي الهندي) تذكر
تذكر القبلات؟
القبلات السريعة ؟
والقبلات البطيئة؟
والقبلات التي قذفتني في لجج الظلمات؟
يذكر النهر، وقد تذكر القبرات
حين كنا نهاجم كل الطقوس البليدة؟
وكنا نعربد، نعري، ونسكر كي تفهمون القصيدة؟
وكنا نغني إلى أمة لم تعد تنجب الأنبياء
أيها السادة السفهاء!
أيها السفراء؟
أيها المرتشون، الفاسدون، النائمون على سرر الفقراء
منتهكين البراءة
مغتصبين الطفولة؟
أيها؟
لكم ساعة قد تحين قريبا؟
ولنا أوبة المقاهي الوضيئة؟
ولنا وطن، حين نبغي نفجره في قصيدة !
ولنا الله، والطفل الحجر؟
ولنا [رغم كل الظروف] سهوب المنافي البعيدة؟
تاركين لكم: كل شيء
قال قارون:
دول الزيف؟
مستنقعات النفط؟
(نساء المعارض)
غرف التعذيب؟
غرف التزوير؟

برامج التنشيط؟
وكل شيء قابل للتداول
ابنتي الأرض مملكة وجزيرة؟
أنشر في مجمع اللغويين بعض القصائد
أنشر الأرض مزرعة ؟
وأخاطب كل الذين أتوا قبلها
وأتوا بعدها؟
أصافح كل الرجال الذين يضنون عنها المرايا؟
يضنون عنها الوسائد
يضنون عنها الرواق
قاعة الخلد
(منزل الأفنان)
إيه، يا وجهها الذى كان يومض في مرايا الدخان.
هو توسده النبي هو
سور السجن
وشرفة العشاق
تبّ أيها الحجر
وإلا ضربتك بحاكمٍ مستعرب.

قداس

.. إلى " كاتب ياسين "



نجمتك الآن تصعد في(ساحة البرج)
في ساحة الجامع القروي
تصعد حينا لتهبط في حانة في (الرباط)
تحاور كل التصاوير عن وجهك المغربي
تحاور آلهة الزيف والصنم الأوحد
تحاور كل دراويش عصر القبائل
هل انت فينا ومنا لنذكرك؟
الآن... يا سيدي راية لا تساوم
حوافر خيلك خمستك الآن واحدهم
أحد
لا أحد

* * *

وحدي أغني رحيلك في بلد التيه
والشعراء/ الأنبياء الجدد
أنت منهم ولم تكن منا
هنالك مقبرة ترفع الآن وجهك/ اسمك/ شعرك/ فقرك /نارك
لكن مقبرة الأصدقاء القدامى الجدد
لن تعيرك بالشيب...
عم صباحاً... مساءً
لا فرق عندي
هو الوقت، لا نعرف الآن أين الدليل / وأين الرفيق
وأين العدو
وأين الصديق ؟
وأين الأحبة...!

* * *

طريق دمشق خراب
كل الدروب خراب/ خراب/خراب
خراب/ خراب/خراب

خراب/ خراب/خراب
خراب/ خراب/خراب
خراب/ خراب/خراب
خراب/ خراب/خراب
* * *

تضيق(الجزائر)
علمتنا أن (الجزائر) يمكن أن تنطق في لغة (الصين)
أيضاً (جزائر)
لا فرق/ خرق الصوف/همهمات القبائل
حزمة من حطب/ جثة نائمة.!
لم يطوقها غيرك في الساحة القانية،
ما الذي تذكر الآن قل لي:
ما الذي تذكر
رحلة الصيف/ رحلة الزيف/ رحلة الريف/ النساء /الخلاخيل المحارم/ إن كل النساء محارم !
يسقط الثلج
وقد كان يسقط فوق برنسك الصوف/
آه كم مرة في أعالي جبال(اليمن)
في أعالي جبال (الجزائر)
والطفلة النائمة
هدهدتها الأمومة كي لا تقوم القيامة.
* * *

إنها الدائرة
ضاقت الدائرة
الفراغ / الطباشير/ المرايا /الكتب/ السجون/ المنافي /المحن/ المقابر
كلنا سوف يملك يوما صليبا ومقبرة باقية.
لا أقول وداعا.
وعليك السلام
وقبلك يرقد فينا عمر
فعليه السلام
وسلام على الأولين.

أوراق مغربية

.. إلى مليكة.. من الرباط



لا أنتظر أحدا
مضى زمن كنا فيه ننتظر الأخضر
صورة فى جدار
ليس فيها من اللون
.. غير اهتبال المرايا
محفظة وقليل من الروج
وبقايا التذاكر
القد.. تقود الى سهرة ماجنة
ما الذى ترتجيه ؟
آي هذى البلاد التى أنت فيها
ولماذا أطلت المقام لديها
آه لو مرة يستقيم بينها.
وحدك الآن منتبذا
مقعدك !
" مطعم فى الرباط "
الرباط، التى كنت دوما تحن إليها
وها أنت فيها
ما الذى قد وجدت
الفراغ، الشوارع مقفرة، والنساء
لا "هاشمى" هنا كي تحن الى مشقة قرب أور !
ما الذى ترتجيه ؟
اسالك الآن يا صاحبي.. ما الذى ترتجيه ؟
النساء / الأساور / النقود / السفر /الحنين /البلاد / المدن / والكتابة.
"هذه مهنة الساقطات ؟ !"
"شقق نصف مفروشة"
– قف !
–يسألك الحرس الملكي المتلفع فى أول الناصية

– الى أين تمضى ؟
–لا تجيب
ستخترع الآن يا سيدي لغة للحوار جديدة.
مزيجا من البربرية
ثم بعض الفرنسية
وان كنت تحلم بالمجد فتتقن الفارسية !
ما الذى جئت تحمله ؟
ورق، وبقايا تصاوير مائية، وكتاب السفر
ــ هل جئت تبحث عن اهلك الغابرين ؟
ــ لا !
الرجل اللابس القمصلة !
الرجل اللابس القمصلة !
وحده جالس والرصيف المقابل
يحتل شيئا يسمى " بمجلس البرلمان "
وحده.. يرقب النجم
أو.. يخط على ورق البرلمان
القصيدة الجديدة
الوداية:
كل هذا المحيط
لا يحرك لى ساكنا !
ــ أين نجلس ياسيدى ؟
ــ نحتسى قهوة ونحاور نخل " الرميثة "
ــ أين البقية ؟
ــ لن تنتصب خيمة الضيف قبل اكتمال العدد !
خلود:–
ــ حلوة غير ان التقارير تخدعها
ــ حلوة غير ان التصاوير تخدعها
ــ حلوة غير ان الوظيفة تقتلها
ــ قادما من بلاد بعيدة
ــ لا النخل نخلى
ــ ولا البلاد بلادى!

ـ تركت القبائل فى زمن البحث عن حائط للبكاء !
ـ فتشت فى كل منعطف،
ـ عل أهل القتيلة
يبنون لى خيمة فأنام
ـ وها أنذا عائد للزمان القديم
ـ وللذكريات الأليمة
لا أحمل اليوم، غير اسمي وزوادتى وجنوني.
ـ لا خيمتي انتصبت
ـ لا الأهل جاءوا... وكل الذين التقيت
.. ما عرفوني؟ !
ـ انا آخر السفهاء... لديهم
ـ ولكنني وآعجبا.. آخر الشعراء !
ـ انا آخر من طاردته القواميس
ـ واللغة العربية
ـ آخر من سيهشم الجيم والقاف و الذال !
ـ ومن سوف يبنى لكم خيمة للدلال !
هذى الرباط إذن ؛
والرباط هى المبتدأ
والرباط هى المنتهى.

حانة الرعب

حانة ليس فيها أحد
إلا وجه الغرباء،
ريش النعام،
وأيقونة من زجاج
وتصاوير مائية، وخرائط بامتداد الصحارى؛
خرائط يحتاجها العسكريون
والعرفاء الجدد
والشعراء السكارى، والساسة السفهاء !
حانة ليس فيها سواي
أتأمل وجهي على الواجهة، فتبسم لي المشرقية من
وجدها الملتهب !
حانة ليس فيها سواي حزمة من غضب !
ومخبرها المنتصب ! ؛
في الزوايا الكئيبة
حانة ليس فيها سواي

* * *

حانة الرعب سميتها
حين هاجمني السفهاء؛ وأريق دمي:
وانتصب الرفقاء يشهرون السلاح
ويردون عني الشقي
... قبل أن يكسر الساعد الملتهب !؛
حانة الرعب سميتها
فندق من عيون الأرامل،
والأرمن البسطاء
حانة ليس فيها سواي
والأرمن البسطاء....ليس فيها سواي.

لن ترى يا امرأة

لن ترى قرطبة
لا الغوطة، لا الحمامات
لا بهو السفراء
لن ترى الأندلس
لن ترى الـــمئذنة
لا الأسد فى ساحة الخيلاء
يزاحمهن الغواني
لا النافذة
لن ترى قرطبة
لا الوادي الكبير، لا القنطرة
لن ترى الورد يهبط من شرفات الغرام
لا العازف المتجول
لن ترى العازف المتسول شرفات الضياع
لا العاشق المتوحد بالوجد والصولجان
لا الثور، لا حلبات الصراع
لن ترى المذبحة
لن ترى يا امرأة.

مساواة

منذ خمسة عشر يوماً ؛
والرياح تفح محملة بتراب الصحارى
الشبابيك مغلقة
والستائر مسدلة ؛
ومصابيحنا انطفأت
والصهاريج قد غيبتها الرمال
العصافير قد هربت لشقوق الجبال
والغصون تئن مع الريح،
ثم تهوى مجندلة فى التراب.

* * *

السماء رمادية غير أن المياه ؛
هاجرت لضفاف البحيرات،..
نحن نبكى..
ولكننا، نتقاسم كل هذى المساواة.

حميمية

مثل ما يحدث فى كل ليلة
تتحين، فرصة أن تكن وحدك
فتجئ بأوراقك الناصعة
وكتاب القصائد
وقليلا من الشاى، والتبغ..
ثم تسأل:
- أين هذا العدو الذى لست تعرفه ؟
ولماذا أنا الآن فى هذه العزلة القاتلة.
....

....
ما جدوى أن أسمع فى هذى الليلة موزارت
ما جدوى أن أسترجع كل الخيبات.
ما جدوى أن أقرأ فى هذى اللحظة بطاقتها
وأنا لم أسبر غور أنوثتها.
لكن الطفل - الزهرة - فى هذى الوحشة
يبدد صمت الليل ويطلب فى نزق زوادته ؛
فتعود سعيدا، مبتهجا تحلم بالآتي..



المشبوهون

صالح قادبوره

نحن لا نضع غطاء الرأس ... حين نسابق أسماءنا
لا تبهرنا النجوم على الكتفين
ويبهرنا تورم ركب جداتنا
نحن لا نتقن الحلم إذا لم يمر من أذن الشخير
ولا إطلاق النكات إذا لم نربط أحذيتنا جيداً
نحن ... الضمير المنفصل عن جسد المغنية
المبنى على انتظار الحافظة نهاية الشهر
نحن أو (فعل) وأخواتها
هم.. لا يظنون إننا نحن
لأنهم نحن مثلنا
الا إذا انشق أحدهم
هو أو هي أو هما
وأضيف إلى (هم) كما يطيب لهم أن يدعونا
لا نشرب حتى نرى وجه إبليس يهرب في قطرة نافرة من الكأس
لا نأكل حتى نلتصق بضيفنا في الدائرة
لا ننام حتى يصفعنا المسلسل البارد بنهاية باردة
لا نفكر في الغد.. بل نفكر فيما سيحمله من مصائب
نحن الفارون من عدالة السياسة
إلى صبر لم يتح لأمير من قريش
أو لبائع الكتب في نهاية شارع الإذاعة

نحن تذاكر وبطاقات صعود
رائحة الزجاج
أو فكرة أن يكون الطيار وحيد قرن
نحن الشبه
المشبهة
المشبوهون
ولا بأس أن ننام في محطة يرتادها الكلاب في العاصمة
نحن المتداعى عليهم
القصعة .. يا من يأكل
المنفضة ... يا من يريد ان يطفئ عينيه
نحن النشيد الوطني
ولا نعرف أوطاننا
وفي رواية أخرى
ولا تعرفنا أوطاننا
نحن الكلام المعتاد



لكننا نحب السفسطة .. لذلك لا يسقط في قريتنا المطر
نحن عقب البندقية
رصاصة فارغة
وزير يزور شهادته في جامعة أنشئت منذ يومين
ولم تفتح قسما للوزراء بعد
نحن هم
يرفدنا سوء الحظ
ونرفده بأبنائنا
من يريد أن يقلم أظافر يديه فليتصل بنا على العنوان التالي
هاتف رقم: دون رد
شارع: لم يصل المخطط بعد
نحن...
ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الصفعة

بشير زعبيه

لم ندرك نحن الذين كنا داخل المقهى أن ما سمعناه هو بالفعل صفعة .. وتحديدا على جانب وجه الرجل المحاذي لنا تماما وهو لازال في نصف انحناءة مديرا رأسه قليلا ناحيتنا كأنه يهيء الجانب الآخر من وجهه لمثلها.. في هذه اللحظة سال خيط دم منحدرا من زاوية الفم عند الجانب الذي اكتسى حمرة كادت تذوب فيها حمرة الدم الذي واصل انحداره نحو أسفل الذقن..

بقي الرجل حينا على وضعه ذاك وهو يسمع سيلا من الشتائم تصدر عن رجل آخر مقابلا له في وضع الجلوس أو كمن يتهيأ للجلوس أو للوقوف وكأنه يسمع تعليمات مكررة ليس أمامها الا الطاعة..

هنا أدركنا أن الصوت الرهيب الذي أجبر الجميع على الالتفات الفجائي بعيون باحثة هو صوت صفعة وجهها هذا الرجل الجالس عند المنضدة المحاذية لنا الى الرجل المنحني بأعلى جسده نحوه.. كان صوت الصفعة حادا حتى طغى على ضجيج المقهى المعتاد..

ما أعطى الحادث غرابة أكثر هو استكانة الرجل المصفوع وبقائه ساكنا في نصف انحناءته دون تأوه أو حراك حتى أوقف الرجل الآخر سيل شتائمه آخذا وضع الجلوس الكامل ساندا ظهره قليلا الى الوراء على كرسيه ملوحا في حركة معتادة بقبضة اليد اليسرى نحو النادل المشدوه بدوره والذي هز رأسه مستجيبا ثم اختفى بسرعة ليعود بالسرعة نفسها حاملا اليه نارا للنارجيلة.

تراجع الرجل خطوتين الى الوراء مبقيا على وضعه ذاك ثم استدار منسحبا من المكان منكس الرأس.. للحظة انتابني شعور بالحنق على الرجلين معا.. هذا المتعجرف الذي يجلس في بلادة نافثا دخان نارجيلته نحو السقف وكأن شيئا لم يحدث وذاك المستكين الذي انسحب جارا وراءه الاهانة وحيرة الجالسين دون أية ردة فعل تحسس هؤلاء بأنه قد أهين وانه يرفض هذه الاهانة..ولسبب ما ربما هو تعاطف غريزي انتابتني وربما آخرين أيضا من حولي حالة غضب رأيت خلالها أنني قادر الآن أن أتوجه مندفعا نحو ذلك الحقير وأصفعه على الفور

وأشتمه بل أركله وأتف عليه دون حاجة للسؤال لماذا يصفع الرجل هكذا ويهينه أو لماذا يسكت الآخر ويتقبل الاهانة بمثل ذلك الذل وينسحب..

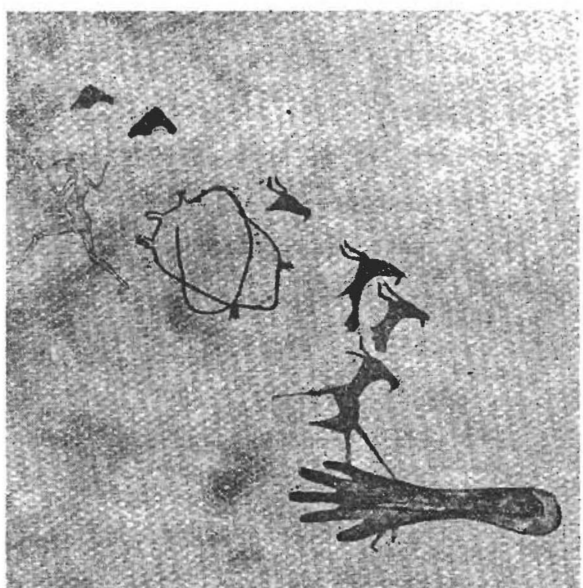
لكن ذلك لم يحدث.. فقط ابتلعت حنقي وحاولت أن أعبر عن غضبي واحتجاجي وأنا في مكاني بهز رأسي ناحيتي اليمين والشمال و لم أفلح أيضا فقد تبين لي أن ذلك الاحساس كان زائفا وأن الحقيقي هو شعور بالجبن والعجز لاحظته أيضا في وجوه من تسنى لي رؤيتهم من حولي..

نهضت تحركني نية مزدوجة..أولا الهروب من الموقف ومن المكان , ثانيا فضول اللحاق بالرجل ومعرفة مالذي سيفعله خارجا.. شجعني أنه لم يبتعد كثيرا اذ كان متجها نحو سيارة سوداء اللون تنسدل على نوافذها من الداخل وزجاجها الخلفي ستائر حاجبة للرؤية.. اقتربت منه وسألته بلهجة ودودة متعاطفة ان كان في امكاني مساعدته وحرصت أن أبين له انني أعني ما أقول.. التفت نحوي نصف التفاتة دون أن يتكلم لاحظت خلالها أثر الدم المنحدر من زاوية الفم وقد مسح بشكل عشوائي ثم أكمل الخطوات القصيرة التي تفصله عن السيارة.. وقبل أن يهم بفتح بابها الأمامي انهال برأسه على السيارة وصار ينطح سقفها مرات متلاحقة ثم فتح الباب وفجأة أخذ يصرخ وهو يلوم نفسه ويحملها مسؤولية ما حدث بل ما يحدث معه دائما اذ استذكر وبصوت عال وقائع مشابهة تكررت فيها الاهانة وتكرر معها هذا الموقف السلبي من قبله.. روى في حمى صراخه أنه ولسنوات عديدة كان الخادم المطيع.. الصبور.. الساكت عن كل شيء.. لا يرى ولايسمع فقط الا ما يقول ويأمر به هذا السيد فلماذا يستعبده ويصر على تقزيمه واذلاله.. دلف بنصفه الأعلى داخل السيارة ناحية باب السائق مادا ذراعه بإتجاه شيء ما بدا أنه يعرف مكانه ثم سحب نفسه خارج السيارة وقد دس الشيء في جيبه دون أن ينقطع عن الكلام لكن بنبرة مختلفة وكأنه يخاطب نفسه بل انني تصورت أنه يخاطبني وهو يقسم أنها ستكون المرة الأخيرة التي يسمح فيها بمثل هذه الاهانة ويعلن أن قدرته على التحمل قد تلاشت وسيثبت لذلك الوغد أنه قادر على وضع حد لمسلسل الذل هذا وقد اتخذ قراره الآن..وهاهو يتجه عائدا الى المقهى وأنا وراءه أسمعه وأعود خلفه دون أن يعيرني اهتماما كأنني ظل أو شبح لايراه.. وسخرت من نفسي قليلا وأنا أعيد مشهد ركضي خلفه عندما خرج من المقهى والآن حين أتبعه عائدا اليها.. لكن ذلك الاحساس الزائف عاد ليحول هذه السخرية الى مشروع بطولة.. لذلك قلت له ولاأدري ان كان يسمعني.. نعم ولن تكون وحدك.. أدخل فقط وسترى..

وعندما دخلت وراءه وأصبحت وسط المقهي خيل اليّ للحظة أنني هو وسأتجه حالا نحو ذلك السافل الذي استقر في جلسته.. يد تحمل كأس الشاي وأخرى تشهر خرطوم النارجيلة وكأن ماحدث قد مضى عليه دهر.. غير أنني في الواقع اتجهت بسرعة نحو مقعدي أرى من هناك مشهد الرجل وهو في طريقه الى المنضدة المجاورة في حالة بين الحماس والارتباك.. عيناه الآن على الرجل الذي اذله أمام الملأ قبل دقائق..واذ صار قبالته مباشرة دس يده في جيب سترته وحاول أن يقول شيئا لكنه تلعثم وخرج كلامه تأتأة.. لابد أنه كان سيعيد ما ردده صارخا منذ حين وسيعلمه على مرآى و مسمع الجميع أنه لن يتيح له الفرصة منذ هذه اللحظة لتكرار هذا المسلك المهين وأن كل شيء بينهما قد انتهى.. وبسرعة ووسط الرؤوس التي تحولقت حوله وتوتري أنا الأقرب الى الرجلين أخرج يده من جيبه واذا به يحمل مسدسا وفي وقت واحد يطلق صرخة ويطلق معها النار..لكن باتجاه رأسه هو, فيسقط راكعا عند قدمي صاحب السيارة السوداء ثم يميل ببطء الى الوراء ويقع ملقى على ظهره فاردا ذراعيه بعينين مفتوحتين ونظرة خلتها وأنا في ذهول وشيء من الرعب المباغت أنها مصوبة اليّ.

(تمت)

القاهرة – نوفمبر 2005



منابت الحنظل

عمر أبوالقاسم الككلي

[يتمدد في الفراغ، ويضرب جذوره في الهشاشة. يتخذ ثمره، عندما ينضج، لون البشرة الملتهبة، لما تنطوي عليه جوانحه من سم ومرارة، ولا ينفتح إلا إذا ديس عليه. كما أنه لا يستفاد منه إلا بالمداورة والتحايل.]

[لا] يدري لماذا أخذ الحنظل، منذ سنوات مديدات، يخطر على بالــه(أو، ربما، كان باله هو الذي أخذ يستدعيه) كثيرا.

والحنظل نبات مداد، ينمو في التربة الرملية، و يدفع بجذوره نحو الماء، لذا يرى في الصيف شديد الخضرة، و:" ...كلما ازداد ريا ازداد مرارة"، كما يقــول المثل، وتضخما. ثمره بالغ المرارة لا يعرف أمر منه(حتى ليقال في التعــابير الجارية" أمر من الحنظل" عن الأمور والحالات التي يتجاوز عنتها وإضــناكها حدود المعقول) ويصير لونه، في ذروة نضجه، أصفر ضاربا إلى البرتقالي، ولا ينفتح من تلقاء نفسه.

ولكنه يتشبه بالنباتات التي تغل فواكه وبثمارها. فالهيئة الخارجيــة لثمــاره تشابه الدلاع، ويمكن أن يقارب حجمها حجم ثمار البرتقال المعروف بــ" بوسرة" وثمار الرمان وبعض أنواع الشمام(وكلها يمكن أن تشبه بها بعض أنواع النهود، ولا يجوز، طبعا، تشبيه النهود بالحنظل). وتشابه أوراقه، إلى حــد مــا، أوراق العنب. لهذا السبب يطلق عليه البعض، إلى جانب أسمائه العديدة الأخرى، التفاح المر والخيار المر والدلاع الوحشي أو المر ودلاع الحمير وقثاء الحمار، ولا أفهم لماذا ينسب إلى الحمير، لكن، أغلب ظني، أنه نتيجة الاعتقاد بأن الحمير، لشــدة غبائها، قد تحسب الحنظل دلاعا أو قثاء، وليس لأن الحمير تتغذى عليــه. لأن الحيوانات، بسبب سميته العالية، لا تأكله. حتى الجمال، التي تأكل شوك القتــاد، تمرض منه إذا أكلته نتيجة خطأ، فيقال: حظل البعير، إذا أكل الحنظل ومرض. ويعتقد أن الغزال يأكله، ومن هنا التعبير الشعبي:" الحنظل ماكلة الغزال"، لكنه، في الواقع، لا يأكل منه سوى الأزهار. الحيوان الوحيد الذي يأكله هو نوع مــن الجرذان.

- ما حكايتك مع الحنظل؟.

يسأله البعض.

فعلا ما حكايته مع الحنظل؟.

الغريب أنه ليس له مع الحنظل، بحد ذاته، حكاية متميزة يمكن أن تحكى. وعلاقته به دون المستوى العادي، إذ أنه ليس من المهتمين بشؤون النبات. وهو لم ير الحنظل منذ أن كان طفلا، وحتى في تلك الفترة لم يكن يصادفه كثيرا.

ومع ذلك صار الحنظل يأخذ بمجامع تفكيره ويلاحقه حتى في المنام: الشوارع يستقر على جانبيها الحنظل متألقا تحت وهج الشمس أو الضوء، أو يقبع منطويا مستجيبا لمعطيات الظل أو العتمة. أو يتدحرج مسابقا الأقدام والعجلات ومزاحما لها. كما أن الناس الذين يشاهدهم متحنظلون. فوجوه الرجال وأجسادهم وكذلك ملابسهم بلون الحنظل، ووجوه النساء تأخذ شكل الحنظل ولونه.. جدائلهن تتدلى متخذة شكل فروعه.. عيونهن خضراء بلون شحم الحنظل أو بنية فاتحة بلون بذوره.. وإذ يتعرين يكشفن عن حنظل معلق بصدورهن وقسم من حنظلة مكفي بين أفخاذهن يتوسطه شق يفتر عن ابتسامة خفيفة ترشح ترفعا و نكاية، أو ينقبض في وجوم[قال: رضينا بالحنظل، لكن الحنظل لم يرض بنا]. البيت يمتليء بالحنظل، وفوق السرير وتحته تتمدد نباتات الحنظل، تزدهي أوراقها وأزهارها و تستريح ثمارها.

تقول زوجته:

- الغداء اليوم حنظل.

أو تأتيه بكأس طافحة قائلة:

- هذه كأس حضرتها لك من روح الحنظل.

فكر،من شدة سيطرة الحنظل على كيانه، في إهداء تعابير للغة العربية مدارها الحنظل. كالقول: ما هذه الحنظلية؟. إذا كان القصد التشدد في معاملة الناس والتصعيب عليهم دون مبرر يقبله العقل السليم. أو القول: رجل[أو شخص، بحيث يشمل المذكر والمؤنث] متحنظل. إذا كان المعنى أنه سيء الطباع مناكد يتعمد التضييق على من هم في مجال تأثيره. أما إذا أريد وصف شخص بلغت به صعوبة الحياة وبلغ ضيقه منها مبلغا بعيدا، فيقال عنه بأنه: محظول.

وما زال يعمل على هذا المشروع.

قالت زوجتي:

- صرت كثير الكلام عن الحنظل، هذه الأيام، وأراك تقرأ عنه كثيرا، فما حكايتك مع الحنظل.
- أنوي كتابة قصة، البطولة فيها للحنظل.

فردت:

- ولماذا لا تكتب عن البصل؟. يبدو لي أن الكتابة عن البصل أسهل، لأنه معروف ومتداول، وتؤدي نفس الغرض.

لم أدر ما هو" نفس الغرض" الذي عنته. وبما أن "غرضها نفسه" بدا لي، من شيء في نبرة صوتها و تعابير عينيها و ملامحها، مبطنا وغير بريء، لم أشأ أن أستوضحها، خشية أن أطأ على لغم عنقودي، قريب من السطح، بالغ الحساسية وشديد الانفجار، أو ألمس منها عصبا عاريا فينهمر عليَّ ما لا يرضيني. لذا آثرت أن أطلق بالونا حراريا يحرف رميتها و يشوش عليها:

- أبدأ الآن بالحنظل. ويمكن أن أكتب، لاحقا، عن البصل وحتى، عن الثوم والكراث.
- سيكون ذلك تطورا يبشر بالخير. لأنك ستنتقل من الكتابة عما لا يؤكل، إلى الكتابة عما يؤكل.

***

وبسبب سميته العالية، يحدث الحنظل الأخضر إسهالا وقيئا شديدين ويكرب التنفس حتى ربما قتل، مثلما يقول ابن سينا. كما أنه يؤدي إلى الإجهاض.

ومع ذلك يحتال عليه البعض فيتخذونٍ منه طعاما.

وهذا ما يعبر عنه المثل الشعبي:" قاله: شن لزك ع المر؟. قالّه: إلِّي أمر منه.". فخطر الجوع يدفع إلى ابتداع طعام من الحنظل. فعلى سبيل المثال يصنع منه التبو و القرعان، بجنوب ليبيا، أكلة تسمى(عبرا)، و ذلك بغلي بذوره حتى تزول مرارتها، ثم تسحق بعد ذلك مع الجراد و يعجن الخليط مع التمر. وما زال أهل نجد إلى اليوم يحافظون على عادة عربية قديمة فيصنعون طعاما من بذور

الحنظل التي يسمونها الهبيد. فينقعونه بالماء و الملح و يضعونه في الشمس و يظلون يبدلون ماءه كل حين حتى تذهب مرارته، ثم يدقونه ويضيفون إليه طحينا وتعمل منه عصيدة. ولا يؤكل إلا في حالة الجوع لأنه يسبب، عند الإكثار منه، إسهالا.

وتقطيع الحنظل الطري لإخراج الهبيد منه يحرق أطراف الأصابع و يجعل العين تدمع و الأنف يرشح.

***

قالت زوجتي:

- تضع ثمرات وغصن حنظل على مكتبك حين تكتب قصة عن الحنظل.

فكيف سيكون الحال لو خطر لك كتابة رواية تدور بين أوساط البغايا؟!.

- لا تخافي. لن أحضرهن إلى البيت.

ثم: أذهب أنا للإقامة معهن.

حدجتني بنظرة نارية و هي تنسحب فارة من ضراوة المزحة:

- تفعلها والله.

لاحقها صوتي:

- من أجل منح البشرية عملا أدبيا راقيا.

***

تذكر أنه سمع من يقول بأنه لو داس إمرؤ وهو حاف على ثمرة حنظل وانفتحت تحت قدمه فإنه سيشعر بطعم المرارة في لسانه.

لماذا لا يجرب؟.

أحضر واحدة. نظف قدميه بعناية شديدة، ثم جاء بها. كان جسده يتشوك ونفسه تقشعر وتشمئز وهو يتخيل طعم المرارة وشدتها، وفكر في العدول عما بدا له لعبا صبيانيا حين أخذت نفسه تسأله لماذا يفعل ذلك ما دام ليس عالم نباتات أو مختصا في شؤون المرارة. فليترك أمر التحقق من ذلك للمختصين. لكنه أكد لنفسه أنه لا بأس لغير المختص من أن يتأكد من أمر ما، ثم أنه لا يتوقع أن تكون مرارة الحنظل المنطلقة من باطن القدم بتلك الشدة التي يخشى منها.

وضع الحنظلة تحت قدمه وهوى عليها بقوة مغمضا عينيه ضاغطا على أسنانه. سمع صوت انفثائها وأحس بالمادة الطرية الرطبة تحت قدمه وظل ينتظر سريانها في جسده ووصولها إلى لسانه.

لم يشعر بشيء.

انتظر أكثر. ضغط بقدمه على أشلاء الحنظلة، و انتظر.

لم يشعر بشيء.

قرر أن يعيد التجربة بشكل آخر.

أحضر كمية كبيرة من الحنظل. استغل خلو البيت من الزوجة والأطفال، فأزاح البساط الذي يفرش الردهة ليترك مساحة عارية فيها. ذهب واستحم. قطع كمية الحنظل. ألقى بالقطع على البلاط العاري. ثم أخذ يتمرغ بكامل جسده عليها، مثلما كان يفعل عندما كانوا يعاقبونه بالتمرغ في التدريب العسكري.

ولم يشعر بالمرارة على لسانه.

أخيرا، كان لا بد أن يتجرأ على تذوقه مباشرة.

ولم يشعر بطعم المرارة. كان طعما مائعا غير محدد.

تذكر بعدها بأيام أنه سمع، في طفولته، أباه يردد أنه إذا احتفظ شخص بتمر في قبضته و فتح ثمرة حنظل بالدوس عليها بقدم حافية، ثم تذوق التمر، فسيجد طعمه شديد المرارة.

رأى أن هذه تجربة معقولة، لأن آثارها تعاين من خلال مادة وسيطة.

لم يجد التمر مرا.

لكنه وجده قد فقد حلاوته.

أثناء ذلك دخل عليه أحد أطفاله، فطلب منه أن يتذوق التمر الذي كان في قبضته. استجاب الطفل للطلب مستغربا، وما أن لامس التمر لسانه حتى رماه متأففا مشمئزا باصقا.

انتهت: يوم 2004.3.12





العيش في ثقافتين مختلفتين

لقـــاء مَع الشّـــاعر "خــــالد المطاوع"

حاوره: غازي القبلاوي
ترجمة: سماح القبلاوي

"خالد المطاوع" شاعر أمريكي بنغازي المولد في 1964، أنتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكي مبكراً، وتحديداً في عام 1997 وهو واحد من المبدعين العرب اللذين يكتبون بلغة غير عربية ويشاركون الأخر في ثقافته التي يعيشونها ويفكرون من خلالها وهذا هو أول حوار ينشر في اللغة العربية مع الشاعر الليبي "خالد المطاوع" الذي أثار خلاله العديد القضايا الثقافية والفكرية المهمة حول الذات والأخر، ومفهوم الهوية، وأشكاليات ثنائية اللغة.. وغير ذلك من رؤى تخص الشاعر، وإن كانت جديدة وجريئة، إلا أنها صادقة.. وهنا نص الحوار:

غازي القبلاوي : كَتبتَ مرة ، "معِ أَنني بالأساس شاعر، فقد حاولتُ أَنْ لا أقصر عملي إلى الشعر فقط "متى بَدأت بإكتشاف هويتكَ كشاعر؟

خالد مطاوع : بعد تجربتي في الكتابة السردية والصحفية. أعتقد أنني كنت أريد التعبير عن شيء ذوِ طبيعة شخصية، قصص أتواصل معها وتلك التي أردت التعبير عنها على نحوٍ معيّن. لذا لأنني كنت أملك قصّة شخصية، فإن القصيدة الغنائية كانتْ الخيارً الواضحَ. إضافة، أنه لم يكن لدي قصص مكتملة يُمْكنُ أنْ تَكْتبَ بشكل مجموعة من القصصِ القصيرة والروايات. كَانَ لدي قطع احتجتَ أن اجمعها على شكل لوحة، والشعر، من ناحية جمعه في ديوان يُمْكِـنُ

أنْ يقدم الكثير مِنْ المصداقية والقوة لمثل هذه الجُهود. كما أنه يَسْمَحُ لنا بتجميع أجزاء متباينة. علاوة على ذلك، اهتممت كثيراً بالجانب اللغوي للكتابة، بمعنى أنني أَردتُ حقاً تعلّمَ الكتابة، للتركيز على كُلّ كلمة، لخَلْق صورة دقيقة، ولخَلْق الإستعارة المثيرة. أردتُ التحدث بعدة أصوات وحول تجارب متعددة. أتاح لي الشعر كلِ هذه الجوانب. الشعرُ يحتوي كُلّ الأدوات الأساسية للكتابة الناجحة، وأكثر الكُتّابِ يَبْدأونَ بالشعرِ، ويَنتقلونَ إلى الأنواعِ الأخرى للكتابة.

غازي القبلاوي: هَلْ تَعتبرُ التَركيز على نوع واحد مِنْ الكتابة الإبداعيةِ يحد من أدوات الشاعر؟

خالد مطاوع: يَعتمدُ هذا على الكاتب. أعتقد أن أولئك الذين يَنْجحونَ هم الذين يستوعبون الاختلافات بين الأنواع، والذين يكتبون القصائد والرواياتِ التي تطور تلك الأنواع. صموئيل بيكيت على سبيل المثال كَتَبَ المسرحيّات والروايات، لكنه عرف بمسرحيّاته، وبينما استمتعت حقاً بقراءة رواياته، أعتقد أنه كان هناك شيء جيد في الروايات، شيء حول الأفكارِ التي أرادَنا أَنْ نتخيلها والتي كانت مناسبة أكثر للمسرح.

غازي القبلاوي: ما الذي استفدته من كونك شاعر ثنائي اللغة، ثنائي الثقافة؟

خالد مطاوع: أحياناً أَتسائلُ هل كان من الممكنُ أَنْ أكونَ شاعر مطلقاً ما لم أخبر العيش في ثقافتين مختلفتين. خلفيتي الأسرية ما كَانتْ ستَقُودُ أَو تُساعدُ على ذلك. لذا في هذا السياق، فأنا لم أَستفد من كوني ثنائي اللغة أَو الثقافة فحسب، وإلا فإنني لنْ أكُونَ شاعراً. فالذي يخلق الشاعر هو نوعَ من التجربةِ التي تستحث المرء أنِ يجلسِ ويَجْردُ تجاربه، ويَأْسرُ الصور الواضحة التي يولدها خيالَه. كُنْتُ طفلاً متعمقاً وواسع الخيال، ويمكنك القولِ أن تلك البذرةِ الضروريةِ للإبداع الأدبيِ أَو الفنيِ كَانت دائماً بداخلي. أعتقد أن العيش بالخارج وبعيداً عن المراقبة الأسرية، ومقدارِ كبير من الوحدة، سَمحَ لتلك البذرةِ بالنَمُو، وسَمحتْ لي بأنّ أؤمن أنه يُمكنُ أنْ يَكُونَ عمل حياتي.

الفنانون جيّدون في تَخَيُّل الأشياء غيرِ الموجودة. هناك شعراء يَكْتبونَ منْ وجهةِ نظر ثقافتهم، الناطقون باسم القَبيلة. أَشُكُّ الآن، في أنه بإمكاننا أَنْ نَعتبرَ أغلب هؤلاء فنانين. هم ببساطة يُزيّنونَ الأفكارَ التي تؤمن بها قبائلهم. لكن الفنانين الحقيقيينَ يَتجاوزونَ تلك الطرقِ للرُؤية، ويَرونَ طريقاً آخرَ للنَظْر إلى العالم. هم قَدْ يَرونَ الأحلام أَو الكوابيس، أَو ببساطة يحددون إمكانية الأملِ أَو اليأس في تجاربِنا الحالية. في تجربتِي، زاد الجانب الثنائي اللغة والثقافة قدرتي على الرُؤية.

قد يطور الفنان هذه القدرة بالانشغال بالتأريخ، أو لَرُبَّمَا سَمعَ الكثير مِنْ القصص أو الموروث الشعبي، أو لَربَّما جرب أو شهدَ طرقَ حياة أخرى، ضمن ثقافته الخاصة، وهذه تحرّضُه ضدّ الأفكار والأيديولوجيا المُؤسَّسة. لذا فالسخرية تعد تجربة ضرورية لبداية الفنان، والرغبة لتَجْسيد ذلك الإحساس مِنْ الإختلاف بين ما يُقال وما يُفْعَل، وما هو موجود وما يمكن أن يكون موجوداً، تصبحُ هي الفجوة التي يسعى الفنانَ لملئها. وذاك الذي يَبْدأُ بملأ الفجوة بشكل أكثر إثارة يمكننا أن ندْعوه فناناً.

إحساسي بالسخرية حينها ازداد بثنائيتي اللغوية والثقافية، لكن بالطبع في ذلك الوقت كُنْتُ أرحل عن ليبيا حيث كان هناك الكثير يُمكنُ أنْ تَكُونَ ساخراً حوله. يَجبُ أَنْ أذكر كذلك بأنّني واجهتُ اللغةَ الإنجليزيةَ بترحيب وتشجيعٍ أكثر بكثير مما واجهتُ العربية في صباي. لَيسَ لأن العربية أكثر صعوبةً، ولكن كان هناك موقفُ تثبيط للمعنويات في نظرة الناس نحو الكتابة باللغة العربية. فنحن ليس لدينا الشعور بأنّ كلَّ شخص يُمْكِنُ ببساطة أن يمسك القلم وَيكْتب، بينما في الولايات المتحدة، فالكتابة، عُموماً، يتم تشجيعها في المَدارس والجامعات، وفي الثقافة بشكل عام. لذا ما زلتُ أتسائل ما إذا كُنْتُ سأمسك بالقلم إذا بقيت في ليبيا، أو قرأت كثيراً في هذا الخصوص.

غازي القبلاوي: ما هي الرسالة الرئيسية في مجموعتِكِ الأولى (خسوف الإسماعيلية)؟

خالد مطاوع: ما هو متأكد منه حول خسوف الإسماعيلية أنّني لا أعْرفُ رسالتَه. الشاعر الكبير (دبليو . إتش . أودين) قالَ مرة بأنّ الشعر " تعبير واضح للمشاعر المتباينة." قرأتُ عبارةَ أودين أثناء كتابتي (خسوف الإسماعيلية) وبالتأكيد لَمْ أستمرّ بكتابَة الديوان لإنْجاز هذا التعبيرِ مِنْ الشعور المُتبَاين. لذا فإنك ستجد في الكتابِ عدداً مِنْ التجارب، بدَلاً مِنْ الرسائل. الناس بدعوا في الحصول على بَعْض الرسائلَ مِنْ الكتاب بتفْضيل بَعْض القصائد. البعض يَجِدونَ عدداً كبيراً من قضايا الهوية، يَرى آخرون العنصرَ التأريخيَ كالسمة الرئيسية. كُلّ هذه حججَ جيدةَ، وتلك الحقيقة التي يَبْدو فيها الكتاب، أنْه اشتمل على عدد مِنْ الرسائل المحتملة جَعلتْني أَشْعرُ بأنّه نجح.

غازي القبلاوي: في مجموعتِكِ الحديثة (فلك الأصداء) ما زلنا نتحسس البحثَ عن الهوية الذاتية، القصص الشرقية السحرية، الإشْتياق للماضي الحالي. كيف تُقيّمُ (فلك الأصداء)؟

خالد مطاوع: في (فلك الأصداء) أردت كتاباً مختلفاً عن خسوف الإسماعيلية تقنياً. كشاعر. أريدُ أن أرتبط مع مدى أوسع من الإختيارات الجمالية. أعتقد أن الكتاب أنجز ما تمنيت. فقد ضم قصيدتان طويلتان، لم يسبق لي أن كتابتها. جربت السرد المجزء. كما أن هناك أيضاً ما يمكن أن أدعوه قصائد غنائية 'صافية'. لذا أنا راضي بأنّه كتاب طموح، كتاب مختلف بشكل نوعي. بالنسبة للقضايا التي أثرتها، كالهوية، القصص الماضية والقديمة، فهذه جزء من شخصيتي وتجربتي. أعتقد أنه لكل كاتب بَعْض المواضيع التي يرجع إليها. لكن كيف يُخاطبُ الكاتب هذه القضايا، وما هي التقنيات المستعملة، ومن أيّ منظور يتعامل معها؟ هلْ نستشعر تطوراً في وجهة نظر الكاتب للعالم؟ سأترك القرأ الذين أطلعوا على الكتابين تقدير تلك القضايا.

غازي القبلاوي: هلْ ما زال سؤال الهوية يُطاردُك؟

خالد مطاوع: أتدري بأن المطلعين ربطوا هذه القضية بأعمالي، وكلما فكرت أكثر بذلك كلما اردت مقاومة هذه الصفة. أتوقعُ أنهم لا يعْرفون حقاً بالضبط ما الذي يَعْنونه عندما يذْكرونَ الهوية. أعتقد أن البشر يعانون أزمات هوية عندما يكون هناك نزاع بين ما يكونون وذلك الذي يسمح العالمَ لهم أن يكونوه. فهو ليس أننا لا نعْرف ما نحن. أو الذي نريدُ أن نكونه، لكن ما إذا كان العالمَ يقبلنا بهذه الطريقة أم لا. أعتقد أيضاً أن أولئك الذين يُواجهونَ أزمات الهوية المستمرة يتحدثون بشكل عام عن إنكارِ جانب من تجربتهم على حساب الجوانب الأخرى، وهم في هذه الأزمة لأنهم يشعرونَ أن عليهم أنْ يَختاروا بين جانب واحد على حساب الجوانب الأخرى. أنا لا أشعر أن هذا ينطبق علي. لنْ يكون على أنْ أختارَ بين الدوائر الثقافية التي اشتغلت بها. أرفضُ أنْ أختار. (والت ويتمان)[1] قال بأنه احتوى تعدداً، وهو كانَ أمريكياً خالصاً كأقصى ما يمكن أن يكون. أنا في ذلك السياق ممتن لإمتلاك العديد من الأماكن التي أنا يُمكنُ أنْ أطلق بسهولة عليها "وطن".

قضيتي هي أنه بإمتلاكي عدداً منْ الدوائر التي أنتمي إليها فإنه ليس هناك وقت كاف لأن أمنح كلاً منها حقها. لكن في رأيي، وَصلت إلى مرحلة إحساس بالإتساق من ناحية الشعور بالإنتماء إلى هذه العوالم. أنتمي إلى هنا وهنا وهنا، وأحياناً لا أنتمي إلى أي مكان، وهو إحساس يواجهه حتى أولئك الذين لم يتركوا مدنهم الأصلية.

[1] والت ويتمان: شاعر أمريكي معاصر.

غازي القبلاوي: بعد مجموعتين شعريتين هَلْ ما زِلتَ تتطلع لأن تبدأ مشروعَكَ المُؤجَّل لكتابة الملحمةِ الليبية؟ أَم أنك وَجدتَ عزاءً في كتابة الشعر حول التاريخ بدون الشكل الملحمي؟

خالد مطاوع: إنّ الشكلَ الملحميَ يَغري بالكتابة، لكنني أعتقد أن الملحمة، في رأيي، تتطلب نوعاً ما مِنْ الإستقرارِ أو التأكد من مواقف المرء. وحتى على هذا المستوي فإنني لَستُ متأكّداً أن هذا صحيح. تجربتي خلال السَنوات القليلة الماضية كان فيها الكثير مِنْ عدم الإستقرار، الكثير مِن التنقل، والعيش هنا وهناك، ومثل هذا اللاثبات لا يُشجّعُ على الكتابة بحدّ ذاتها، ناهيك عن كتابة ملحمة. كان هناك ايضاً عدمِ ثبات بخصوص تجربتي تجاه ليبيا، بعد أنْ بدأت بالعَودة إلى هناك خلال السَنوات القليلة الماضية، وحافزي عن البلادِ هو للكتابة عنها في الوقت الحاضرِ، لَيسَ عن الماضي. لذا أُواجهُ البلادَ ثانيةً، وهذه العملية تبعث أكثرَ على الشعرِ الغنائي مِنْ الملحمي، بل الأكثر، يبعث على كتابة الرواية المابعد حداثية مِنْ أيَ مِنْ الأشكالِ السابقةِ بسبب التنافرِ واللامعقول في قلب تجربة الليبيين الآن.

غازي القبلاوي: تَميلُ إلى إستعْمال العديدِ مِنْ الكلماتِ العربية بل والعاميّة الليبيةِ في شعرِك، هَلْ تَعتقدُ بأنَّ هذا قَدْ يَخلْقُ حاجزاً لغوياً لقرّائكَ؟

خالد مطاوع: تحويل الرمز، أو الثنائية اللغوية في الكتابات الإنجليزية، استعمل منذُ قرن على الأقل، وأتحدّثُ هنا عن إستعارات مِنْ اللغاتَ غيرِ الغربيةِ فقط. لذا فإن قارئ اللغة الإنجليزيِ لَمْ يُفاجأ بمثل هذه الأمثلة لتحويل الرمز، وقارئ الشعر، الذي ينجذب عُموما إلى النصوصِ الأكثر صعوبةً، لَيسَ متفاجئاً بالمرة. لذا فذلك يَعتمدُ على نوعية القارئ، وما نوع هذا الحاجز الذي يُمثّله له. أغلب النصوص الأدبية تخلق عوائق يجب تخطيها من قبل القرّاء. هذا لَيسَ الحاجز الوحيدَ الذي أبدعه في عملي، والقارئ مدعو لحلّ المعنى بنفسه.

غازي القبلاوي: متى بَدأتَ بالتَرْجَمَة إلى الإنجليزية؟ وماذا كانت ترجماتكَ الأولى؟

خالد مطاوع: بَدأتُ بالتَرْجَمَة ما أن بدأت بالكتابَة. في ديسمبر 1988 ذْهبت إلى نيويورك وأخذت معي كتاب لوركا (شاعر في نيويورك). كانت مجرد مصادفة أنني أخذته معي. أو رُبَّمَا إشتريته هناك لا اتذكر. كذلك، بينما كُنت اسير في شارع أتلانتك في بروكلين، الذي به حي عربي، وَجدتُ بَعْض كُتب محمود درويش المبكّرة. لم يكن لدي أي تردد حول الكتابة بالإنجليزية، لكنّني لم أكن متأكّداً حول كتابة الشعر. أتذكرُ بضعة أمسيات حين كنت أقرأُ قليلاً من

لوركا ثم أضعه جانباً لأَقْرأ بعضاً من درويش وأترجمُه إلى الإنجليزيةِ وبعد ذلك أَعُودُ إلى لوركا. في نقطة ما، كنت أَضعُ كلا الكتـابين جانبـاً لأكتـب إحـدى قصائدي.

وبذلك كانت كتابتي متشابهة؛ تتطلب ذلك الكثير من القراءة والعديـد مـن الأصداء الشعرية في رأسي لإستحضار قصيدة إلى الحياة.

أعتقد أنِ ترجمة الشعر العربي ساعدَني للتعبير عن الأشياءِ التي لم أعتقد أن الإنجليزية كانَت قادرة عليٍ التعبيرِ عنها. لذا فالترجمة قد ساعدتني بشكل كبير. بشكل أكثر تحديداً، هَضمتَ عدداً كبيراً من القصائد الممتازة، والمهارات التقنيةَ التي تحتويها هذه القصائد أَصْبَحتْ جزءً من كتابتيَ الخاصة بطرقٍ لا أعرفهـا. وفي هذا السياق فقد تأثّرَ شعري بهذا الحوارِ مـع العربيـةَ، أَو الحـوار مـع الإنجليزية. بالطبع، الآن لا أَستطيعُ أن أَتخيّلَ أي نوع من الشعراء كنت سأكونه بدون الترجمة.

غازي القبلاوي: ما هي في رأيكَ، القوّة التي تَجْذبُ المرءِ إلى الترجمة؟

خالد مطاوع: حتى إذا كنت لم أمارس الترجمة، فما زلتُ أنجذب إلى الشعرِ "المُتَرجَمِ"، إلى الشعرِ منْ البلدانِ واللغاتِ الأخرى المترجمةَ إلى الإنجليزيـة، أَو العربية. بشكل أعم، إنه المستوى التجرّيـديِ الـذي يجـذبني إلـى الترجمـة. الإنجليزية، كونها لغتي المتبناة، أو لسان زوجة أبّي مجازاً. أنجذب للكتابَة التـي تَحاولُ جسر التناقضَ الثقافيَ أو اللغويَ أو الجماليَ، والتي بطريقـة أَو أخـرى تنشغل بالترجمةِ العميقة، إذا كان هناك مثل هذا التعبير. أُحْبُّ اللغة التي تَتجاوزُ لغتَها، لا لأنها مَتسامية بشكل غيبي، ولكـن لأن خيـال وأحاسـيس الشـاعر عريضين، لذا فهي أكثر شمولية. ولأن المترجم، البطل المَنسي العظيم، إستطاعَ بِناء الجسرِ وخلق طريق يُزيل التقسيمَ.

غازي القبلاوي: ما هي القاعدة التي على أساسها تَختار عمل أَو مجموعـة أعمال شعرية لكي تترجمَها؟

خالد مطاوع: ترجمتُ العشراتَ منْ الشعراءِ العرب. ترجمتُ فقط الأعمـالَ التي أعجبتني، لذا ستجد أن أغلبَ أعمالي، منتقاة. لكن ماذا يَعْني أنّني معجـبُ بعملٍ؟ أعتقد أن ذلك يتعلق كثيراً بقدرتي على تَرْجَمَته. لقـد وسّـعتْ الترجمـةُ قدراتي الشاعرية كما أجبرتْني لوَضْع أفكار بكلماتي بشكل لم أتخيله أبـداً. هـذا جزءٌ منِ الإثارة حولها. لكن ذائقتي تَملي علي ما أترجمه. أنا لا أَحْـبُّ اللغـةَ الورديةَ أَو القديمةَ، المشوشة أَو العاطفية. أَجِدُ صعوبة في تَرْجَمَة الأعمالِ التـي تحوي الكثير منْ المبالغةِ والتجريد. هم لا يتحدثون إليّ، وأنـا لا أُتـرجمُهم. إنّ

الشعراءَ، الذين ترجمتُ مجموعاتهم، أعتقد أنهم استثنائيون، وأن أعمالهم يُمْكنني أنْ انفق جزء من حياتِي لأجلها. هم يَتحدّونَ قدراتي، ويَجِبُ أَنْ أَجِدَ أعمالَهم ثرية بشكل كبير وممتعة.

غازي القبلاوي: ترجمتَ ثلاثة مجموعات شعرية لثلاثة شعراء عراقيين مُعاصرين، بالإضافة إلى أسماء أخرى من العالمِ العربي، ما خططكَ المستقبلية في الترجمة؟ وهَلْ تَنْوى تَرْجَمَة أَعمالِ أخرى لأجناسِ أدبيةِ أخرى؟

خالد مطاوع: لَيْسَ لدي خططُ لتَرْجَمَة أيّ شيء عَدا الشّعر. فوقتي محدود. وفي الحقيقة، وقتي للترجمة بدأ يتناقص أكثر وأكثر. لقد كانت متعة كبيرة، لكن الوقتَ يَستمرُّ بالتدحرج، ولقد كَتبتُ أقل مما أوَدّ. ولذا قرّرتُ التَرْجَمَة أقل من ذي قبل.

غازي القبلاوي: يعتبر الشعر العربي البوابة الرئيسية للثقافة العربية، كَيف تَجِدُ ردَّ فعل الثقافة الغربيةِ في الوقت الحاضر للشعر العربي؟

خالد مطاوع: أعتقد إذا قرأتَ البعض منْ شعراء الكلاسيكية الحديثة، مثل أحمد شوقي وآخرون، فستَجِدُ أن الشعر العربي لَيسَ باباً سهلةً للعُبُور بالترجمة. وحتى عندما تأتي إلى السياب مثلاً، فستَجِدُ الكثير منْ صور المبالغة والعاطفية. هؤلاء الشعراء لديهم الكثير منْ التأثيرِ على القرّاء العرب بسببِ موسيقاهم، ولأن الشاعرَ وقرّائه أو مستمعيه يَشتركونَ في رمزٍ عاطفيٍ فإن الشاعر يحتاج فقط للتلميح عنه لكي يُولّدَ ردّ فعل. ولعل المدهش، أن بعضاً من أفضل القصائد العربية التي قرأتها مترجمة هي من الشعر الجاهلي، **ترجمت** بشكل ممتاز من قبل (مايكل سيلز)، بعنوان (آثارُ صحراء). قام سليز بإنجازِ **عمل** رائع في هذا الكتاب، فالقصائد كانت متصلة جداً بالطبيعةِ، ومباشرة جداً **في عواطفها**، ومليئةً بالاستعارات الواسعة، هذه قصائدَ "مفتوحة"، على الأقل بالكيفية التي أراد لها سيلز أن تكون. فيبدو أنه ليست لديهم تلميحات إلى سمات ثقافية لا يستوعبها المخارج للهذه الثقافة. هذا جزءٌ من نجاحِ سيلز. وبإمْكانناً أنْ نقولَ نفس الشيء حول ترجماتِ الشاعرِ الإغريقي القديم، (سافو). فستجد هناك بساطة وتعقيد في نفس الوقت، والعواطف كلاهما فج ومعقد.

ردّ الفعل الغربي للشعر العربيِ مختلف، بالطبع. أعْني البعض منْ القرّاء الغربيينِ يُريدونَ قراءة شعرائنا الآن لأنهم في حالة حرب مَعنا. لذا يُريدونَ معْرِفتنا. أولئك ضدّ حرب العراق يريدون قصائد ضدّ الحرب، وأولئك الذين يساندون الحرب، بحاجة لقصائد حول الإضطهاد وإنعدام الديمقراطية. نظرتهم أحياناً أنثروبولوجية تماماً. لكن بالطبع هناك قرّاء شعرٍ حقيقيين، وأولَئك الذين

يَقْرأونَنا الآن بسبب توفر الكُتُبِ بكثرة، وهؤلاء القراء المصقولون جمالياً تربوا على الشعرِ اللاسياسي، القضيةُ السياسية الوحيدة في الشعرِ الأمريكي المُؤسَّسِ بحزم هي (الهولوكوست) أو المحرقةِ وهؤلاء القرّاء يَبْحثونَ عن البراعة التقنية. أَعْني بأنك يَجِبُ أَنْ تَتنافسَ مع بول سيلان وميلوسز واكتافيو باث لإسْتِرْعاء إنتباههم. وذلك لَيسَ سهلاً.

غازي القبلاوي: ما السببُ، مِنْ وجهةِ نظرِكَ، وراء الحركةَ الضعيفة لترجمة الأدبِ العربيِ إلى الإنجليزيةِ؟

خالد مطاوع: لقد تم توثيق أن البعض مِنْ ذلك سياسي. الراحل إدوارد سعيد كَانَ قَدْ أُخبرَ مرّة من قِبل احد الناشرين أنِ العربية لغة مثيرة للجدل. والذي عَناه الناشرَ أنّ نشر الأدبَ العربيِ يُمكنُ أَنْ يَكونَ جداليَ. لكِن الأشياءَ تَغيّرتْ قليلاً في السَنَوات العشْرِ الماضية، وهناك كتب عربية أكثر تترجمَ الآن. يَجِب أَنْ أُضيفَ عاملين: أولاً أن جودة الترجمة لبعض من تلك الأعمال والتي تصبحُ مَنْشُورةً لَيستْ بالجيدة. وهو ما يمكن لَمسه أكثر بالطبع في الشعرِ مِنْ النثرِ. القضية الأخرى تُنسَبُ إلى نوعية العملِ نفسها. الأدب العربي تَطَوّرَ إلى أدب حديث، وأعتقد أنه مؤخراً فقط يُمْكننا أَنْ نَقُول بأنّ الأدبِ العربي بَدأ بعَرْض نماذجه الخاصة للأدب الحديث. الأَدب الأمريكي اللاتيني كَانَ ناجحاً في الترجمةَ لأنه عَرضَ أشكَالاً جديدةً وأساليبَ جديدة، وفي هذا السياق حدّث كُلّ الأدب. أعتقد أن الأدب العربي قد بدأ القيام بذلك مؤخراً فقط، وأعتقد أن ذلك يخلق إختلافاً كبيراً.

غازي القبلاوي: لقد مرت أكثر مِنْ 25 سنة منذ هاجرتَ إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هَلْ مازلت تَعتبرُ نفسك عضواً واقعي مِنْ القبيلةِ الأمريكية؟

خالد مطاوع: أتدري أنه قبل بضعة عقود، لم يكن لدى المهاجرون إلى أمريكا ذلك التحفظ الذي أبديه الآن بالقول "عضو واقعي مِنْ القبيلة الأمريكية." فقبل بضعة عقود كان المرء يأتي إلى أمريكا، ويتم الإستيعاب بشكل سريعَ جداً، والرغبة للإسْتيعاب كَانَ قويةً للغاية، وبذلك فإن المهاجرين دَعوا أنفسهم أمريكيين بشكل سريع. أَعْني فكّر بشعرائنا المهجريين وفكر في الشاعر إيليا أبو ماضي وهو يكتب قصيدة في مديحِ العَلَم الأمريكي. بالتأكيد، كَتبَها بالعربية، لَكنَّ ذلك يدل بأنك يُمكنُ أَنْ تَبْدوَ أمريكياً حتى وإن لم تَستطعْ أَنْ تكْتبَ بلغة البلاد. الأحوال تَغيّرتْ، فلكي تَكونَ أمريكياً لا يَعْني أنك يَجبُ أَنْ تَشْعرَ بالإضطرار لإظهار هذا النوعِ مِنْ الولاء. ففي أوقات الأزمة كان الناس، مهاجرين ومواطنين، يشعرون أنّهم بحاجة لإبْداء ولائهم إلى البلاد. أنا لا أشعر بذلك

الضغط. قبل عدة سَنوات، عندما كنت ما أزال صغيراً وساذجاً، وفي أحد فروض الصف بالمدرسة، كتبتُ مقالةً حول كيف أنني لَنْ أقاتل من أجل أمريكا في حالة الحرب. وعلى الرغم من أنني ما أزال بنفس الرأي الآن، لا لأنني داعي للسلام في حد ذاته، وإنَّ كان ذلك اتجاهي، لكن لأنني إعتقدتُ ومازلت، بأنّ أمريكا لـم تدخل حرباً عادلة، لَرُبَّمَا بإستثناء الحرب الأهلية، منذ قيامهـا. وفـي حروبهـا الظالمة التي بإمكانك أيضاً أن تضم إليها الحربَ على الإرهاب، على الرغم مِنْ حقيقةِ أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، هي حربُ إمبريالية، لَيست مختلفـة عن الحربِ البويريةِ البريطانيةِ أو حربِ الماو الماو، وهكذا. وبقدر ما يُمْكنني أنْ أتطلع للمستقبلِ، فإنني لا أرى هذه البلادَ تدخل حرباً عادلةً في المدى القريـب. فهي ما تزال سريعة للوصول إلى أسلحتِها، وسياسيوها سَيَستعملونَ أيّة كذبـة أو ذريعة للوُصُول إلى أهدافهم بالوسائلِ العسكرية. لذا لَيسَ في هذه الحياة.

بالنسبة إلى أن تكونَ أمريكياً، فأحد أجزائه يَتضمّنُ الإيمان بالحقوقِ الفردية، الإيمان بحقّ التعبيرِ، و بحكم القانونِ، هذه الأشياءَ هي التي تجعل المرء فخوراً بالإنتماء إلى هذا البلد حتى وبالأخص في هذا الوقت عندما تكون مثل هذه القـيم مهددة.

لَكنَّ، أتَذْري إحساسَي الحقيقيَ كوني أمريكياً ينبع مِنْ التجربةِ الأنتولوجيـة للوجود هنا، لتقديري للمنظر العام، جماله، الإنفتاحِ العامِّ للناسِ، والنجاح العـامّ لمجموعاتِ كبيرةِ من الناسِ في هذه البلادِ بإنجاز طرق معيشة تروّج للتسـامحِ وتقديرِ الجمالِ. لا يمكنني أن أهمل حقيقةَ أنّ هذه الـبلاد قـدمت تقريبـاً كُـل الإبداعات التقنية والعلمية في القرنِ، وهو ما يَجْعلُ المرءَ فخوراً جداً لإرتباطـه بهذه الإنجازاتِ الإنسانيةِ الكبرى. وبالطبع، الفنون. فالجلي، أن الشعر الأمريكي جَذبَني بعمق عاطفيته وروحه التضامنية. هناك أيضاً الموسـيقى. لَـيسَ فقـط الموسيقى الأمريكية، سواء كَان الجاز، البلوز، أو الروك آند رول، كإنجاز ثقافي رئيسي، لكن من وجهة نظر شخصية، موسيقاها التي تتحدث معي بعمق. هنـاك أغانٍ ومقطوعات تؤثر بي بطرقٍ لم يسبق للموسيقى العربيـة أن قامـت بهـا بداخلِي، ولذا فإنه لأمرٌ رائع أنْ تَكونَ في مكان يستمر بتوليد مثل هذا الفَنِّ العالي جداً والذي يجدد نفسه بشكل متواصل. إنّ الحيويةَ مبهجة. أمريكا هـي أيضـا المكان الذي اتاح لي تشكيل صداقات عميقة ودائمة، وهي الأشياءَ التـي يُمْكـن للمرء أنْ يشكّلَ حياة حولها، لَيسَ مختلف عَنْ أيَ علاقات يُشكلّها البشر فـي أي مكان آخر، ولذا فمن هذا المنظور تكمن امريكانيتي.

وبالطبع، أنا محظوظ بأن مهنتي بالكتابة، خصوصاً الشعر. كانت تجربة واعية جداً. أعني بأنك لا تستطيع إيجاد قصيدة أمريكية في القرن العشرين تدعم الحرب، أو تلك التي تغدق المديح للولايات المتحدة أو زعمائها. الشعر كان في عدّة أشكال ضمير أمريكا، وأنا مسرور بأنه الحقل الذي إخترته لعملي.

غازي القبلاوي: ككاتب عربي أمريكي، كيف ترى مساهمة الكتّاب العرب الأمريكيين للأدب الأمريكي في السنوات الخمسين الأخيرة؟ وماذا يمكن القيام به في المستقبل؟

خالد مطاوع: أعتقد أن الأدب العربي الأمريكي بدأ الآن. ففي العام 2003، صدرت ثلاث روايات بأقلام ثلاث كاتبات عرب أمريكيات من قبل دور نشر مهمة، ولذا فهناك أشياء قد بدأت بالحدوث. كان هناك شعراء عرب أمريكيين ينتجون أعمالاً مهمة خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية، لكن لأنهم كانوا يكتبون الشعر، الحقل الأدبي العربي الأمريكي بقي محدوداً. قمت مؤخراً بالاشتراك مع بولين كالداس باعداد انطولوجيا أدبية لقصص قصيرة بأقلام كتاب عرب أمريكيين أعتقد أنها ستصل إلى جمهور عريض. عند جمعنا لتلك القصص، إشترطنا بأنّ تقع أحداث القصص في الولايات المتّحدة. أعتقد أن تلك إحدى الأشياء التي احتجنا لها، وذلك أن يهتم الكتّاب العرب الأمريكيين ببيئتهم. لمدّة طويلة، ركز الكتّاب العرب الأمريكيين على عودتهم إلى أوطانهم الأصلية، ونحن قلنا يكفي ذلك، أخبرنا بقصص دارت بحيك، أخبرنا عن تجربتك الأمريكية. ثانيا، أردنا أنطولوجيا قصصية. لمْ نردْ شعراً، لمْ نردْ تعبيراً عاطفياً؛ أردنا القصص التي توثّق التجربة.

عبّر العرب الأمريكيون لمدّة طويلة عن حزنهم، آمالهم أو غضبهم، لكنّهم لمْ يسردوا قصصهم، والأكثر أهميَّةً أنهم كانوا خجولين جداً لنقد جالياتهم، لأنهم شعروا بأنَّ ذلك بمثابة عرض غسيلهم الوسخ مجازاً. حسناً، الأدب يدور حول الغسيل الوسخ، لا يُمكن أن يكون لديك أدباً إذا كنت تخشى بأنّ شيئاً سَيُحرجُ شخصاً ما أو بضعة أناس. أعتقد أننا نجحنا في تقديم ذلك في (أطفال دينارزاد)، وأعتقد أنه إن اتخذ الكتّاب العرب الأمريكيين هذا الإتّجاه، أن ينسوا النوستالجيا، أن يَنْظروا بدرجة من الاهتمام إلى هذه البلاد، وأن يكْتبُوا بدون أنْ يَكُونَوا حماةً لجاليتهم، حينها سيكون لدينا أدباً.

نقطة أخيرة، أعتقد أن بعض الكتّاب العرب الأمريكيين، في الغالب الشعراء، أحسوا بأنّه طالما كانوا يقولونَ الأشياءَ المقبولة سياسياً بمعنى أنْ يكونوا ضدّ التمييز العنصري، ضدّ الإمبريالية، الخ. ، أنه طالما قالوا هذه الأشياء، فإن

كتابتكَ سَتَكُون جيدة، أو مقبولة، لأن أحاسيسها كَانَت في الموضعِ الصحيح. أعتقد أن الكثير من العرب الأمريكيين الآن مدركون أن القبول لا يَكفي. الأدب فنّ، هو لَيسَ دعاية موجهة (بروباجندا)، ولذا فإن الكثير من الكتاب بَعْدَ أنْ أستوعبوا ذلك، بْدأنا نطلِع الآن على أدبِ حقيقي آخذٌ بالظْهور، أدبٌ مدرك لفَنٍّ الكتابة ولا يخشى أنْ يَكونَ حامياً لمجتمعه.

غازي القبلاوي: كَتبتَ في أحد المرات "حقيقة المسألة انني لا أثق بأي أحد يقول أن الشِعرَ يُمْكنُ أنْ يَجْمعَنا دائماً، وأنا لا أثق بأي أحدَ يقولُ بأنَه لا يَستطيع" أما زلتَ تؤمنُ بأَهميةِ المحاولة؟ هَلْ تَعتقدُ بأنّ الشعرِ ما زالَ ضرورة؟ وبمعنى آخر: هَلْ الشعر في وقتِنا الراهنَ ما زالَ مهماً؟ هَلْ ما زِلتَ تَطرح على نفسك سؤالَ الجدوى؟

خالد مطاوع: مع أنني أعتقد أن السؤال مشروع، إلا أنك لا تتوقّع إجابة قصيرة. سأُحاول أن أمنحك واحدة. أولاً، يَجبُ أن يُقرّر المرء أي من المشاهد الشعرية سيشهدها لكي يُخوض بالإجابة. هناك أماكن حيث يقوم الشعر بعمل مثير في موضعه، وهناك أماكن ليست كذلك. أعتقد أن الشعر في أمريكا ما يزال يمنح حيويةٍ للمشهد الأمريكي، وللمشهد الأدبي الأمريكي الأكبر؛ إلا أنني لا أَستطيعُ قَول نفس الشيء عن إنجلترا، حيث يَبْدو شعرَهم لصيقاً بـ(تيد هيوز) في نزهاته بالطبيعة. لَيسَ هناك الكثير ليذكر في فرنسا بقدر ما يتعلق الأمر بالشعر. لَيستْ تلك هي الأماكن التي تحدث بها الإبداعَات القوية. لذا فالأمرِ يَعتمدُ على أي جهة يتطلع المرء ودرجات الحيوية، وعمق "المحاولة" كما قُلت في الإقتباسِ أعلاه، فجميع هذه النقاط تتفاوت.

لكن عموماً، فالشعر ما زالَ يسحرنا بحيويته وإمكانيته متى ما كتب بشكل جيّد. إذا اعتبرت القصة أو الرواية تحقيقاً للتاريخ الراهن، وأننا نقرأ القصةَ لفَهْم اللحظةِ التي نعيشها، أعتقد أن الشعر كانَ لبَعْض الوقت، النوع الأدبي الذي نحاولُ من خلاله فَهْم الأشياء التي أَصبْحَت غير واضحةَ أمامنا. إذن فالشعر هو أكثر فأكثر رؤيوي. لربُما بَدأَ هذا في الشعرِ الأنجلو-أمريكيِ مَع تي. إس. إليوت. أعتقد أن المطلعين لَمْ يَفْهُموا "الأرض الخراب" كما يجب، حتى وَجدوا أنفسهم يَعيشونها. ما كتبه إليوت عن لندن في أوائل العشرينات إنتهى بكونه وصفاً ممتازاً للمشهد الأمريكيِ، على الأقل بالمستوى البصريِ، في السبعينات.

الشعراء الأمريكيون أمثال جون آشبري، أدريان ريتش، يوسف كومينياكا، توني هوجلاند، ودين يونج، يسبقون زمنهم فيما يكتبونه؛ هم يَستكشفونَ مشاهد عاطفية على مواطنيهم مواجهتها ربما بعد فوات الآوان. أعتقد أيضاً أن أدونيس،

محمود درويش، سعدي يوسف (بالرغم من أنه كَتبَ ما يسمى بالقصيدة اليومية) وإيمان مرسال جميعا يكْتبون قبل زمنهم. سيزار فاليخو كتب قبل وقته، ووالت ويتمان كانَ مدركاً جداً بأنّه كتبَ قبل وقته وفي نقطة ما من حياته خاطب الأجيال القادمةَ بقوله "فقط أنت ستَفْهمُني." ذلك ما يقوم به الشعر مؤخراً في بَعْض الأماكن وذلك نجاحُه، ولذا بهذا المعنى فهو جدير أكثر بالمحاولة، وفي هذا الموضع تكمن جدواه. هي لَيستْ جدوى آنية، لَكنَّها هناك إذا أنتبهنا، وإذا حدث أن أطلعنا على شاعر ينتبه لذلك.

غازي القبلاوي: ما خططك المستقبلية في الشعر؟

خالد مطاوع: أَعْملُ على إنجاز مخطوطتين شعريين. أصبحت أكثر فأكثر مهتمّاً بالتاريخ. أودّ كتابة قصيدة عن النفط، وأعتقد أنه إذا قمت بذلك فسَأكْتبُ قبل وقتي لأننا وصلنا الآن مرحلة في الحضارة الإنسانية حيث الدمّ الذي يَغذّي محرّكنا أصْبَحَ نادِراً وذلك يُمكنُ أنْ يكون له تأثيراتَ جيوسياسيةَ عظيمة. أَحْلمُ بهذه القصيدة، لَكنّي لم أكتبها بعد. كذلك، منذ أن جمّعت (خسوف الإسماعيلية)، وبينما كنت منهمكا بكتابة (فلك الأصداء)، أدركتُ بأنني مهتمٌّ بكتابة كتبِ الشعر، لَيسَ كتباً تَحوي قصائداً. لذلك، فأَنا مُتَأَكدٌ، أنني أستغرقت وقتاً أطول لإنْهاء (فلك الأصداء). الكتابان اللذان أعمل عليهما الآن هما كتابين بهذا المعنى المشار إليه آنفاً؛ سيحويانِ مفاهيم كبيرة لَيستْ مجموعةَ من الوحدات الصغيرة في قصائدَ فردية.

أما بالنسبةِ إلى ما يدور حوله الكتابين، فلا أُحبّ أن أري العجين بينما ما زلت أُعْجنه؛ أُفضّلُ التَحدُّث عن الخبزِ الذي يوشْكَ أَنْ يَخرجَ مِنْ الفرنِ. وهذان الكتابان ما زالا في مرحلةِ العجين.

غازي القبلاوي: ماذا تعني لك ليبيا؟

خالد مطاوع: أتدري، اليوم فقط سألني أحدهم بشكل مباشر، ما إذا كنت أحب ليبيا؟ وأجبته على الفور أن ذلك يعتمد على ما تعنيه (هي). أعتقد أن سؤالكَ، في جوهره، يدور حول نفس القضية. هناك كيفية معينة لما تعنيه ليبيا بالنسبة لي إلى ما تعنيه بالنسبة لليبيين الآخرين الذين يعيشون في ليبيا. إنه المكانُ حيث لدي عائلة وأصدقاء؛ هو المكان كما قالَ روبرت فروست حيث لا يَسْألك أحد لماذا جئتَ. هو المكان حيث تبدو العودة إليه أمراً طبيعياً. لَكنّ يَجبُ أَنْ أُخبرَك بأنّه عندما اكون في ليبيا، وأمضي بضعة أشهر، يخبرني بَعْض الأصدقاء، ما الذي تَفعلُه هنا، ألم تكتفي بعد. ومن عدّة أوجه هم على صواب. هناك أوجه في ليبيا مُنتهيةٌ بالنسبة إليّ، وأعتقد أنه لبَعْض الناسِ الذين يقطنون هناك هي مكان

يستقرون به، لكنَهم يَجِبُ أَنْ يَذْهبوا إلى مكان آخر لشحن بطارياتِهم ولمُواجَهة العالمِ المتنامي. المثقفونُ يذهبون إلى القاهرة، التجار إلى دبي، المحرومون جنسياً يَذْهبونَ إلى تايلند، أولئك الذين يَحتاجونَ لإطْلاقِ سراح أنفسهم في الشراب يَذْهبونَ إلى تونس ومالطا، والملتزمون دينياً يَذْهبونَ إلى مكة المكرمة للعمرة أَو لآداء فريضة الحجّ. يَجِب أَنْ تَذْهبَ لمكان آخر للحُصُول على ما يتطلبه إحساسك بالتوازن.

أنا لا أَستطيعُ كِتابَة تاريخ ليبيا أَو الواقع المُعاصر أفضل مِنْ أولئك الذين يَستثمرونَ جهدهم بعمق في ذلك التاريخِ وذلك الذي يريد الكتابة حوله لتوسيع حساسية رفاقهم الليبيين لما يمكن أن تمنحه بلادهم من إحساس بما كانت عليه. فوق سطح الأشياء، فإن بضعة أسابيع في بنغازي كافية لتشعرني أنني أكتفيت من المكان. لكن أكثر فأكثر هناك مساحات جديدة وإكتشافات جديدة. ماضيي في ليبيا قد انتهى؛ ليست هناك مساحات جديدة لي للمواصلة هناك، جزئياً لأنني تخليت عن الأمر أَو لأنها أصبحت مساحات أقل أهمية. تلك مساحة أنتهيت منها. الأشياء التي لم أعرفها هي المساحات المثيرة. لكن عموماً ليبيا لَيستْ بالمكانِ الذي سيُدهشك بالإكتشافات. الحالةُ السياسيةُ الخانقة جعلت كل شيء خانقاً، والمحافظة الثقافية تَجْعلُها أحياناً مكاناً مملاً جداً. كُلّ شيء مستورد؛ الثقافة وحتى المحافظة الدينية مستعارة مِنْ البلدانِ العربيةِ الأخرى. أفضل الشوارعِ في مُدنِنا بُنيتْ من قبل الإيطاليين. ليست هناك ثقافة مقهى، والنساء هادئات ومقهورات.

الأشياء التي تهمني الآن تثيرني لأنني أشعرِ جزئيَاً أنه بأمكاني استيعابها بشكل أعمق من تلك الأشياء المماثلة التي تَحْدثُ في أجزاء أخرىٍ مِنْ العالم. وذلك ما يبقيني مهتما. لَكنّ أتعَرف أن العالم مكان ساحر. ذَهبتُ مؤخراً في رحلة إلى البيرو، ذلك المكانِ يضج بالإثارة بالنسبة لي، وأمريكا اللاتينيةِ عُموماً تجذبني كالمغناطيس. لذا فالأشياءُ تتنافس لجذب إنتباهك. أعتقد أنك لا تَستطيعُ السَماح للشعورِ الوطنيِ بخدْاعك لإستكْشاف العالمِ الأكبر، ولأنني أعيش بالخارج لا يجب أن أتْرِكَ نفسي أنجرِ باستمرار إلى لِيبيا لأشْعرُ أنني مضطر لمنحها إهتمام خاصّ بينما هناك فعلاً أشياء أكثر إثارة تَحْدثُ في مكانِ آخر.

غازي القبلاوي: كمثقّف ما الخطر الأكبر على حرية التعبير في وقتِنا الراهن؟

خالد مطاوع: أعتقد أن هذا ينطبق على ليبيا وعلى أماكِن أخرى. الخطر الأكبر على حرية التعبير هو خوفنا مِنْ مُمارَستَها. لقد كُنْتُ حذراً جداً للتَعليق حولَ الحالةِ الأجتماعية والسياسيةِ والثقافيةِ في ليبيا لسببين. لأنني لا أَعيشُ هناك

بشكل دائم، لذا فأنا أخشى من ذكر الأشياء التي قَدْ لا تنطبقُ على الواقع أو تلك الخاطئة أو الغير موثقة. لذا فأنا امتنع عن كتابة التعليقات لأنني لا أعتبرُ نفسي خبيراً حول المكان.

أعتقد أن هذا قد استمر لوقت طويل بما فيه الكفاية، والصمت قد نما بمرارة. مُرَاقَبَة الحالة الليبية تشبه الاجبار على متابعة مسرحية سيئة جداً أو الاستماع إلى محاضرة طويلة مملة. في وقت ما يَجبُ أنْ تتأوه بتضايقك. على الرغم من التفكك الذي تبدو عليه تلك الآهة فقدْ يكون مهماً إطلاقها؛ فسيكون من المستحيل العَيْش بدونها بأي مستوى من الكرامة وإحترام الذات.

سأضيفُ نقطة أخرى، وأعتقد أن هذا متوجب نتيجة عيشي الآن في الولايات المتحدة لوقت الطويل. وهي أنني ببساطة لست متمرساً مع الأشكال الذكية للرقابة الذاتية؛ أنا لا أعْرفِ كَيفَ أتكلّمُ بكلا الجانبين من فمّي. بَعْض الأفراد في ليبيا إستطاعوا قَول الحقِ بطرقٍ ذكية، وأعتقد أن تلك مهارة عظيمة. أنا لا أمتلكها. لذا فإما أني سَأصرْخُ أو أَصمت، وحتى الآن فأنا صامت للأسباب التي ذكرتها آنفاً، لَكنّها تجربةً غير صحّيّةَ ولذا كانت تجربة الوجود في ليبيا صَعبة أحياناً.

غازي القبلاوي: مر حوالي العقد منذ أن بدأت بتدريس الشعر والكتابة الإبداعية، هَلّ بالإمكان أَنْ تطلعنا على هذا المجال؟

خالد مطاوع: أرحب بهذا السؤال حول الكتابة الإبداعية لأنه يدور حول حقل جديد في الدوائر الثقافية العربية. في صيف العام 2004 شاركت في القاهرة مَع كاتبين عربيين آخرين، في حلقة دراسية لمدة أسبوع حول الكتابة الإبداعية، والتي بالمناسبة ألغتها الحكومة المصرية بشكل سمج في اللحظة الأخيرة. وبالرغم من الإلغاءِ الرسمي، إستطعنَا أن نجري مناقشات عفوية، وكَانَت لدي فرصة لقاء كُتّاب شباب منْ تونس، سوريا، فلسطين، المغرب ومصر. يجب أن أذكر أنني سعدت بلقاء هؤلاء الكُتّاب الشباب، ومقابلتهم كَانَت ذات نكهة مختلفة عن تعاملي مع طلاب الكتابة الإبداعية اللذين أدرسهم في أمريكا.

هناك شيء يَحْدثَ مَع الشبابِ والكتابة في العالمِ العربيِ وهو مشابه للذي يَحْدثُ مَع الشبابِ في أمريكا. في الحالتين، هناك عنصر من الحرفية يتطور؛ وهؤلاء مهتمّون جداً بتشكيل مهنة وهم يُريدونَك، إمّا أن تساعدهم ليصبحوا كتّاباً أو يشتهروا أو ما شابه ذلك، أو فلتبتعد عن طريقهم. هم حقاً ليسوا بحاجة للكثير منْ الاستبصار حول كتاباتهم. هم لَيسوا مختلفين عن الشبابِ الذي يُريدُ أن يَكُونَ مَغنياً أو الذي يُريدُ أن يكون سوبر ستار العرب.

غازي القبلاوي: لكن ما النواحي التي تكون عليها حالة الكاتب الجديد مختلفة؟

خالد مطاوع: بالمشهدِ العربي ما أن يصدر الكاتب الشاب كتاباً، فسيشعر هو أو هي أنّه على الطريق، ويُصبحُ النشرَ البرهان للنجاح. هناك بعض مِنْ ذلك يحدث بين طلابِي فِي أمريكا، لكن هناك أكثر مِنْ ذلك يحدث في العالمِ العربيِ. في البلدِ العربي، كلّ ما تريد أن تقوم به هو أن تصدر كتابك، أو تدفع لناشر ليصدر لك الكتاب، وبذلك أصبحت كاتباً.

للشبابِ الأمريكي، فالأمر مختلف. فهم يعلمون أنهم لا يستطيعون نشر نتاجهم، وإذا قمت بذلك، لا أحد سيُعيرُك أيّ إنتباه. كما أنك لا تستطيع إرسال قصائدَكَ إلى الصحيفة لنشرها لتبني لنفسكِ أسماً. فالمعاييرَ أعلى بكثير، وحتى مجلة من الدرجة الثالثَة ما زالَتْ لديها سمةُ الصرامةِ فِي إختيارِها. لذا فالشباب الأمريكي يُدركُ بأنّهم في الحقيقةِ يَجبُ أَنْ يَتعلّموا شيئاً حول الكتابة قبل أَنْ يتمكنوا من إعتِبار أنفسهم كُتّاباً، ولِهذا فهم غارقون في فصولِ وبرامجِ الكتابة الإبداعية.

غازي القبلاوي: ما هو تأثير برامج الكتابة الإبداعية على المشهد الأدبي الأمريكي؟

خالد مطاوع: أعتقد أن برامج الكتابة الإبداعية ترينا أنه بإمْكانك أَنْ تُساعدَ على خَلْق مائة كاتب جيد في جيل واحد، بينما بلدان أخرى تَنتظرُ كاتباً ذاتي التعلمِ، ذاتي الإلهام، بموهبةِ إلهية للمَجيء. السؤال هو "ما الذي يصنع كاتباً جيداً؟" أو ما الذي يشترك فيه الكتاب البارعون؟ الروحُ 'الديمقراطية' الأمريكيةُ تقاوم فكرة أن بَعْض البشر لديهم موهبة وآخرون ليسوا كذلك. الأمريكيون لا يَحبّونَ تلك الفكرة. لذا فحقل الكتابة الإبداعية تطوّرَ حول رغبة شاب لِيَكونِ كاتباً، إضافة إلى ذلك تعْرِيض هذا الكاتبِ إلِى تقنياتِ الكتابة الجيدة، مقترناً بمتطلبات أَنَّ هذا الكاتبَ الشابَ سيَقْضي وقتاً علىِ كرسي وأمام منضدة لإعداد شيئاً ذا قيمَة. كُلّ الكُتّابَ البارعون دُفعوا؛ عموماً للقراءة واستوعبوا الكثير مِنْ الأدبِ قبل الكتابة، وهم يَقْضونَ الكثيرَ مِنْ الوقتِ في العمل على تَطوير مهارتهم. ذلك بشكل ملخص ما يعنيه حقلَ الكتابة الإبداعية.

أحياناً هناك ما هو أكثر أهمية مِنْ توفير أماكن لإيواء الطلاب، لذا فبَعْض الطلاب لَمْ يمنحوا الفرصة للتسجيل، لَكنّهم يُعلَمون بأنّهم يُمْكنُ أَنْ يُحاولوا ثانيةً. أنت ببساطة لا تُخبرُ شاباً بأنّه أَو أنها لَيْسَ لَديه موهبة وبذا تَسْحق أناه بذلك الحكم. أنت ببساطة لا تُخبرُ شاباً أن يرمي جهده. الطلابُ يسجلون في المادة

لتقرأ قصائدَهم وتخبرهم بأمانة وبتركيز مطلق على العمل، وجهة نظرك حوله، وما هو أكثر أهمية، كيف يُمْكن تحسينه. مؤكد سمعت عن مبدأ العصا والجزرة في السياسة الخارجية الأمريكية. في الكتابة الإبداعية، لديك الجزر فقط لتقديمه إلى الكاتب الشاب لتحسين كتاباته. كلما تحسن مستوى هذا الكاتب الشاب، كلما رفعت مستوى المعايير أكثر، إلى أن يصبح هو أو هي مقيم جيد لنتاجه الخاص. البعض يَستمرّ، وآخرون يتركون لأنه ببساطة صعب جداً، أو لأنهم لا يَجِدونَه ممتعاً.

غازي القبلاوي: ما هي تجربتكَ الشخصية في حقلِ الكتابة الإبداعية سواء كطالب أو كمعلم؟

خالد مطاوع: لقد كنت محظوظاً في أنّني درست في جامعة متواضعة ولم تكن متسلطة حول ما تقوم به. لقد إهتممتُ بكتابة القصائد وسجّلتُ ببساطة في المادة. لا أحد ذكر بأنّك لا تمتلك موهبة، أو بأنّ إنجليزيتكَ لَيست بالقوية. في الصف، صنّفَ الأستاذ الشاعر القصائدَ تبعاً للأفضلية من وجهة نظره وتحدّث عن تلك القصائد التي يُمْكنه أنْ يُناقشها ضمن فترة الصف. أغلبِ الوقت، نصْف قصائد الطلابَ لَمْ يتم مُناقَشتها. لذا كشاعر فما كنت تريده، أنْ تَكُونَ قصيدتُكَ في أعلى الكومة وأنْ يقدمها الأستاذ للصف.

مع ذلك فالمنافسة ساعدتْني في بداياتِي، أنا لا أَتْبع هذا النظامِ في صفوفي. فنحن نرتب القصائدَ ابجدياً ويتم مناقشة قصيدةِ كل طالب، الجيدة، والسيئة، والقبيحة.

والقاعدة أنه عندما يُناقش عمل الشاعر، فعلى الشاعر أن يَبْقى صامتاً. هو أو هي يستمعُ لتعليقاتِ زملائهم، الإيجابية والسلبية، ولَيْسَ لديهم فرصة، للتوضيح أو للدفاع عن عملهم. لذا بهذه الطريقة هناك كلاً من الإعتراف بالقيمة الفردية لكل طالب، بالتوازن مع الحاجةِ لأن يَطفئ الشاعرَ أناه ويَستمعُ إلى نقّادِه، والتي يجب أن أذكر أنها عادة ما تكون عادلة.

غازي القبلاوي: هَلْ حقل الكتابة الإبداعية مقتصر على أمريكا، وما هو "الأمريكي" حولها؟

خالد مطاوع: حقل الكتابة الإبداعية متوفر الآن في بضعة جامعات في إنجلترا وأستراليا سويّة مع الولايات المتّحدة حيث أنه عنصر ضروريَ منْ أقسام اللغة الإنجليزية. أعتقد أن ورشة الكتابة الإبداعية كما تَطوّرتْ في أمريكا لم تكن لتصبح كذلك لو أنها لم تأتي من مجتمع يمتلك تجربة طويلة في الحوار، والذي يسمح بإجراء حوار حي يتم تشجيع الناس للتعبير عن وجهات نظرهم ولا

يخشون إبدائها، وأيضاً مجتمع حيث يتدرب الفرد لتقبّل النقد ولإبْعاد أناه عن الطريق. في صفوف الكتاب الإبداعية سرعان من يبدأ الطلاب بالتمييز بين الشاعرِ والقصيدة، وفي الورشةِ ما يتم نقده هي القصيدة، ولَيسَ الشاعر، وبالتأكيد لَيسَ شخصيةَ الشاعرَ. نتحدّثُ عن الصوتِ الذي يتكلم القصيدة، ولَيس أي نوع من الأشخاص هو الشاعر أو محاولة تَحليلَ المُؤلفِ نفسياً. من الناحية النظرية، فهي تدور حول الإنصاف، حول ذكر الحقيقة للفردِ بدون التسبّب بأيِ أذى لذلك الفرد. عندما تقَيم أحد القصائد بالضعف، فأنتَ لا تُخبرُ الشاعرَ بإنهُ شاعر ضعيف، والذي بالطبع يمكن أن يكون كذلك. أنت تُخبرُه إمّا أن يبحثَ عن مفهوم أكثر إثارة أو للعَمَل بجدّية أكبر، وأنت تريهم أمثلةً لما تعتبرها أعمالاً جيدةِ وأنْ يستوعبوا المعيار الذي تستند عليهِ في عملك. وهي حول التشجيعِ في أنّك تُحاول رُؤية ما يلمع في العمل ولتُحاول مُساعَدَة الشاعر للخروج بشيء مثير من خلاله. لذا فأنت تمنح هؤلاء الشبابِ الفرصة، وخلال فترة زمنية وبردٍّ فعلك المتزن لعملِهم، بإمكانهم أَنْ يَبْدأوا بالإحْساس بقدرتِهم على الكتابة، ومدى إمكانية أن يعملوا بشكلٍ جيّد أم لا، ومدى رغبتهم في أن يتعهدوا بجعْل أنفسهم كُتّاباً أفضل. جوهرِياً، كماً في كلِّ الفنون، لا تستطيع حقاً تَعليم الكتابة، لكن الطلاب يُمْكِنُ أَنْ يَتعلموها بمساعدة الآخرين.

غازي القبلاوي: ما الدور الذي تلعبه القَراءة لتعليم الكتابة الإبداعية؟

خالد مطاوع: أعتقد الآن في أي مكان تَذْهبُ إليه، ستَسْمعُ أناسَ يُخبرونَك بأنّ لا أحد يقْرأ الشعر، أو الأدب، وغيره. أنا لا أدري حقيقة هذا الأمر، ولَكنَّ يَبْدو لي بأنّ العالم قد وجد أنواعاً آخرى من القراءة لا تستند على اللغة. الناس يَقرأونَ، لكن رُبَّمَا لا يَقْرأونَ لغةً مكتوبة. وليكن كذلك.

لكن في الواقع، أنت لا تستطيعُ جَعْل الناس يقرأون مالم تجعلهم يهتَمون بالأدب، وأنت لا تستطيعُ حقاً أن ترغبُهم في الأَدب مالم تمنحهم إحساساً بإنهُمْ يُمْكِنُ أَنْ يُساهموا فيه. جوهرياً، أنت لا تستطيعُ جَعْل الناس يقرأون، إذا أحسوا بأنّهم لا يَستطيعونَ الكتابَة، أو التعبير عن أنفسهم بطريقة ما. لا بد أنك ستَتذكرُ تلك التجارب البائسةَ في صفوف التعبيرِ "الإنشاء" بالنسبة لك. أو رُبَّمَا لم تكن كذلك، أنا لا أدري. لكن كمعلّم، عندما تخبر طالباً بأنه كاتب سيء، أو بأنه غبيُ بسبب ذلك، فثق وتأكد بأنك خسرت قارئاً. لذا فالكتابة تشجّعُ على القراءة، وكلما خلقت فرصاً أكثر للناس، خصوصاً للشبابِ، للكتابَة، كلما قرأوا أكثر. ولذا فصفوف الكتابة الإبداعية في الولاياتِ المتحَدة كانت مساعدة لتبني القراءة، وخصوصاً قراءة الشعر. بإمكاني أنْ أؤكد لكَ بأنه لولا صفوف الكتابة الإبداعية، والتي يتعرض فيها الطلاب لآخر كتب الشعر والسرْد الخيالي، لكان قراء الكتاب المعاصرين أصغر عددا.

أعتقد أن هذه العوامل تجْعل حقل الكتابة الإبداعية مثيراً، وأعتقد أنه أحد الأشياء التي يمكن أن تكون لها إمكانية كبيرة، ليسَ فقط في المُساعَدَة على تحْسين نوعية الأدب المكتوب في منطقتنا، لكن أيضاً في تدريب الجمهور للمشاركة في حوار منتج ومفيد ضمن روح التسامح. أعتقد أن هذه قيَمَ جيدة للتبني.

غازي القبلاوي: ماذا يمكن تعلمه مِنْ التطور في حقل الكتابة الإبداعية، بقدر ما يهم المشهد الأدبي العربي؟

خالد مطاوع: أعتقد أن هناك شيئين يَحْدثان في صفوف الكتابة الإبداعية، بالتأكيد يمكن للأدب العربي أنْ يَتعلمَها. أحدها، فكرة أن نصاً يُمْكنُ أنْ يُراجعَ. نظرتي لعدد كبير من الكتاب والشعراء العرب، خصوصاً الشعراء، أنهم لا يُغيّرونَ في نتاجهم كثيراً منْ لحظة كتابته. وأنت تشاهد بأنّ النتيجة يُمكنُ أنْ تكونَ غير متزنة. شخصياً أعتقدُ أنّ القصائد كالمنحوتات، يَجبُ أنْ يتم صقلها وأن كل تفصيلة يجب أن يشتغل عليها. أنا لا أؤمن بكتابة القَصيدة لأعلنَ أنها أنتهت وأنشرها هكذا. صفوف الكتابة الإبداعية يُمْكنُ أنْ تساعد الناس لتعلم نقد عملِهم الخاصَ، وجوهرياً مستنداً على الفكرة القائلَة بأن القصيدة أو القصّة يُمْكنُ أنْ تحَسّن، بمعنى أنه ليس هناك مكانة خاصة أو مقدسة للحظة البدائية للكتابة. لذا فالورشة تشجّع الكاتبَ لِمُرَاجَعَة ومواصلة تحْسين النصّ حتى يحقق الرضا.

ذكرت آنفاً أنه ليس كلّ الطلاب المسجّلونَ في هذه الصفوف ينتهي بهم المطاف ككتاب. لكنهم يُصبحونَ قرّاءً ممتازينَ عموماً، وعدد لا بأس به منهم يُصبحونَ محررين صحفيين. صفوف الكتابة الإبداعية تساعدُهم لتطوير مهارات مهمة جداً، ليست مهارات الناقد الأدبي الأكاديمي، لكن مهارات الناقد العملي التي تهدفُ في هذه الحالة لمساعدتك على تصميم نصّ جيد. يَلْعبُ المحرّرونُ أدواراً مهمة في إصدار الكتب الأمريكية، وخبرتي بَعْدَ أنْ تعاملت مع البعض كانت إيجابية. لديك أناسٌ أذكياء يُفتشون خلال عملك ويقدمون أحياناً إقتراحات مثيرة جداً بالنسبة إلى كيفية تحسينه. لذا فصفوف الكتابة الإبداعية دعمت العالَم الأدبي بالولايات المتحدة ليسَ فقط من خلال تبني الكتاب الجدّد، لكن أيضاً بتزويد عالم النشر بقرّاء مدربين جداً، من الممكن أنْ يُصبحوا محرّرين ممتازينَ. أما فيما يتعلق الآنَ بالعالم الأدبي العربي، فالحاجة للمحرّرين ملحة. أحياناً، أصادف روايات عربية ودواوين شعرية وأتسأل عند قراءتي لبَعْض الأجزاء التي تبْدو دون المستوى أو بالتأكيد في مكان غير مناسب، أو بَعْض الجُمَل الضعيفة، جاعلاً النص بمجمله مليئاً بالثقوب، وهو يَجْعلني حقاً إتسأل حول ما يقوم به الناشرون في دور النشر العربية، هل حقاً يقرأون الكتب التي ينشرونها. وبذا فإن إمتلاكنا لمحرّرين جيدين يُمْكنُ أنْ يُحدث فرقاً كبيراً ويُمكِن أنْ يُساعد على رَفع نوعية الأعمال المنشورة.

أول الغيث كتاب عن السعداوي والمؤتمر

محمد الفقيه صالح



1

شهدت بلادنا عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى إجراء أول انتخابات برلمانية في مستهل عام 1952، مخاضا سياسيا وطنيا عسيرا، شرع فيه الكيان الوطني (بأقاليمه الثلاثة) في لملمة جراحــه، ورتــق تمزقاتــه، و التأســيس لمستقبله، في إطار تشابكت فيه قضايا الاستقلال والوحــدة والقيــادة السياســية والدستور وشكل نظام الدولة، ونشأت خلاله أحزاب وتشكيلات سياسية متعــددة، على أيدي نخب وقيادات ــ من الداخل والخــارج ــ باجتهــادات ومرجعيــات مختلفة، وبمشاركة جماهيرية واسعة، مما يجعل مــن أحــداث تلــك الســنوات ووقائعها حلقة مفصلية هامة من حلقات الحركة الوطنية والسياسية الليبية .

الغريب في الأمر، أن هذه الحلقة، رغم أهميتها القصوى في تاريخنا الحديث والمعاصر ورغم مضي ما يزيد على نصف قرن من الزمان، مــا تــزال بكــل تعقيداتها وتفاعلاتها ونتائجها مركونة في زاوية المسكوت عنه وغير المســموح بالتفكير فيه، وهو ما أدى إلى غياب فادح ــ في ثقافتنا الوطنية ــ لآي إصــدار تاريخي أو سياسي أو فكري، يتصدى لأسئلة هذه المرحلة و لأدوار المســاهمين فيها وللكيفية التي تشكلت بها الأحزاب والمنظمات السياســية، ونمــط قياداتهــا وكوادرها، وطبيعة التفاعل أو الصراع فيمــا بينهــا فــي مواجهــة المشــروع الاستعماري .

بكلمة واحدة، ما من دراسة تصدت لمراجعة هذه المرحلة وتقييمها وتأصيلها وإعادة بنائها في الوعي السياسي الوطني المعاصر، باستثناء ما تناثر من معلومات حولها في بعض المذكرات الشخصية الضئيلة [1]،أو في عدد من المقالات القليلة المنشورة على نطاق محدود للغاية في بعض دوريات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية [2] . وتلك ـ لعمري ـ إحدى أعاجيب حياتنا الثقافية، ما تقدم منها وما تأخر .

على أساس من هذه الأرضية، يتعين الترحيب بكتاب الأستاذ محمد محمد المفتي الصادر مؤخرا بالقاهرة، تحت عنوان " السعداوي والمؤتمر بين التمجيد والنسيان " بحسبانها بادرة مشكورة لفتح ملف التجربة السياسية الوطنية الليبية في عشرية الأربعينيات من القرن العشرين، وطرق باب أسئلتها الكثيرة المتشابكة وهو ما يعد إسهاما في كسر (التابو) التاريخي والسياسي الغريب، الذي ما يزال ـ رغم توالى العهود ـ حائلا دون استنطاق هذه التجربة وفض مكنوناتها وخباياها .

2

بعد المقدمة و التوطئة التي جاءت في شكل شهادة شفوية لإحدى قيادات حزب المؤتمر الشابة أنذراك، وهو الأستاذ مصطفى السراج، حول ملابسات تلك المرحلة ودور السعداوي فيها، يستعرض المؤلف في الصفحات (من 31الى 40) الأجواء السياسية العامة في البلاد عقب اندحار أيطاليا في الحرب الكبرى الثانية، ويعرض ـ بإيجاز شديد ـ لطبيعة وتركيبة النخب السياسية والاجتماعية، التي خاضت معمعة الاستقلال السياسية، والتي انقسمت في تركيبتها العامة بين نخب عائدة من المهجر، ومحملة بتأثيراته، مع ما تختزنه في ذاكرتها من خلافات وحساسيات مراحل سابقة، وبين نخب أخرى نشأت تحت الحكم الاستعماري الإيطالي، فتأثر بعضها به، وتهادن معه ثم مع لا حقه البريطاني، فيما ظل بعضها وفيا لثوابت ومبادئ الحركة الوطنية الاستقلالية العريضة. وفي الوقت الذي بدا فيه المشهد السياسي في شرق البلاد (برقة) أكثر تناغما واستقرارا، نتيجة عاملين ؛ أولهما توفر قيادة سياسية واحدة، تمثلت في إدريس السنوسي، وثانيهما تحالف تلك القيادة مع بريطانيا، الدولة الكبرى القابضة على زمام البلاد، تبدى المشهد السياسي في غرب البلاد (طرابلس) منقسمًا على نفسه من خلال تكاثر الزعامات وتوزع الولاءات التي تفتقد الناظم الذي يضفرها في عقد سياسي واحد . وزاد في ارتباك هذا المشهد إن مصير طرابلس

ومستقبلها كان في مهب إطماع دولية متشابكة ومتعاكسة،لعل أسوأها على الإطلاق كان احتمال إعادة إقليم طرابلس لإيطاليا،إرضاءً لهذه الأخيرة بعد مؤتمر الصلح.

ثم يستعرض المؤلف في عجالة أيضا(ص41_ص51)الخطوط العريضة العامة لسيرة بشير السعداوي،منذ ولادته عام 1884م بمدينة الخمس،إلى حين عودته الثانية إلى البلاد عام 1948م،مرورا بدوره في الحركة الجهادية،وفي هيئة الإصلاح الوطني(1920م)وسعيه لتوحيد الزعامة في إقليمي طرابلس برقة التي أسفرت عن تقديم البيعة إلى إدريس أواخر عام1922م،غير أن الحملة الإيطالية لإعادة احتلال البلاد التي تواكبت مع صعود الفاشيين إلى سدة الحكم في روما،حالت عمليا دون جني ثمار المساعي الرامية إلى توحيد تلك الزعامة.

ويشير المؤلف(ص53_ص61)إلى مشاركات السعداوي في تأسيس هيئة تحرير ليبيا،وفي الحوار السياسي الذي جرى في القاهرة بين وفد من الجبهة الوطنية المتحدة(الطرابلسية)وبين الأمير إدريس السنوسي،حيث عمل السعداوي (الذي تصادف وجوده في القاهرة آنذاك لحضور اجتماع في الجامعة العربية ضمن الوفد سعودي)على تضييق فجوة الخلاف بين الطرفين،بدفع الجانب الطرابلسي إلى التسليم بالأمارة السنوسية على ليبيا،واقناع إدريس في المقابل بعدم قبول استقلال أي من الإقليمين أو الوصاية عليه(والمقصود هنا برقة)بصورة منفصلة عن الإقليم الآخر.

ولقد كان واضحا أن الجبهة المذكورة،وفي غمرة تحركها الرامي إلى تفادي وقوع طرابلس في يد إيطاليا،رأت في السعداوي،بسجله النضالي الطويل،وحنكته التفاوضية،وثباته على الرأي الداعي إلى مبايعة إدريس،إمكانية سياسية مثلى لابد من الاستفادة منها،فاتصلت به لاقناع إدريس بربط مصير طرابلس ببرقه،مؤملة أن يسري على طرابلس أيضا التعهد البريطاني لإدريس بعدم إعادة برقة إلى إيطاليا كمكافأة له على تحالفه معها أثناء الحرب الكبرى الثانية.

وواقع الحال أن الحوار السياسي المشار إليه أنفا،بين وفد الجبهة الوطنية والأمير إدريس السنوسي في القاهرة،لم يكن سوى مقدمة للمفاوضات الحقيقية والشاقة التي جرت في مدينة بنغازي بين وفد من الجبهة المذكورة، برئاسة الشيخ أبو الاسعاد العالم وبين قيادات المؤتمر الوطني البرقاوي في مستهل عام 1947،وهي المفاوضات التي آلت إلى فشل ذريع،بسبب تعنت الجانب البرقاوي وإصراره على عدم الربط بين مصيري برقة وطرابلس،مما دفع جمعية عمر

المختار_التي كانت تمثل التيار الوطني الوحدوي في شرق ليبيا_إلى إدانة موقف المؤتمر الوطني البرقاوي(الذي كان ينفذ توجيهات إدريس السنوسي) وحملت قادته مسؤولية فشل تلك المفاوضات.

3

وعلى هذا الأساس تكرس الفصل بين إقليمي طرابلس وبرقة،وبات واضحا أن تعهد بريطانيا_ في مستهل عام 1940م على لسان وزير خارجيتها ايدن_ بعدم إعادة برقة إلى إيطاليا،ومنعها الجيش السنوسي من التقدم مع قواتها إلى طرابلس،ثم إقامتها نقاط تفتيش جمركي على الحدود بين الإقليمين[3] كل ذلك أكد للجميع نوايا السياسة البريطانية الرامية إلى تقسيم البلاد، وأدى إلى اصطفاف جديد للقوى السياسية في كافة أنحاء البلاد،بين تيار وطني وحدودي عريض،وآخر انفصالي تركز أساسا في برقة،دون أن ينفي ذلك وجود ميول انفصالية إقليمية محدودة في كل من طرابلس وفزان.

ولقد زاد من سوء الوضع إن اللجنة الدولية الرباعية لتقصي الحقائق التي تشكلت في خريف 1947م،بمقتضى معاهدة الصلح مع إيطاليا،قد خلصت في تقريرها الذي أصدرته،في ربيع 1948م،بعد جولة قامت بها في البلاد،إلى "أن طرابلس وبرقة وفزان لم تنضج للتمتع بالاستقلال،ولكن الكيان الاجتماعي والسياسي في برقة يصلح كنظام أساسي لتكوين حكومة مستقلة"وهو حكم يساير النوايا والمخططات البريطانية،ويصب في طاحونتها،فيما يضع مزيدا من العراقيل والتعقيدات أمام الحركة الوطنية.جدير بالملاحظة في هذا المقام،أن المؤلف حين تطرق لنشأة الجبهة المذكورة اكتفى بإيراد السبب الظاهر لإنشائها،وهو مواجهة مخاطر إعادة طرابلس لإيطاليا،ولم يعمد إلى توضيح طبيعة القوى الاجتماعية التي تمثلها،ولاطبيعة ميولها ومراميها السياسية،وواقع الحال أن تلك الجبهة أنشئت في الأساس كتجنح يميني عن الحزب الوطني،من أعيان ووجهاء اجتماعيين ودينيين أثرياء مؤيدين للإدراة البريطانية ومساعدين لها(4)وهي بذلك أصبحت تمثل_داخل الحركة السياسية في طرابلس_التيار البراغماتي المهادن والموالي لبريطانيا،من خلال مناداتها بوضع طرابلس تحت الوصاية البريطانية أسوة ببرقه،بدلا من وضعها تحت الوصاية الإيطالية،هذا على الرغم من أنها دعت،ظاهريا وشعاريا،في بيانها التأسيسي،الصادر بتاريخ 1947/5/10م،إلى استقلال ليبيا ووحدتها بزعامة إدريس السنوسي.

في ظل هذه الظروف الباعثة على القلق والمخاوف،عمد بشير السعداوي_ الموجود انذاك في القاهرة_والدكتور عبدالرحمن عزام،أمين عام الجامعة العربية إلى تأسيس هيئة تحرير ليبيا،بتاريخ 1947/3/13م،بهدف "تنوير الرأي العام،وتوحيد الجهود،واجتناب دواعي الجدل والخلاف على نظام الحكم"(ص89من الكتاب).ولئن نزل نبأ إعلان عبد الرحمن عزام عن تأسيس الهيئة المذكورة بردا وسلاما على قلوب الوطنيين والأهالي في غرب البلاد،إلا انه قوبل من الجانب السنوسي البرقاوي باسترابة وتحفظ، نظرا للحساسية الموجودة بين إدريس السنوسي وعزام،وزاد في تعقيد الأمر أن الهيئة لم تضم في عضويتها أيا من الشخصيات البرقاوية، بالنظر إلى أنها تأسست في الأساس لرأب تصدعات الوضع السياسي في طرابلس،وتهيئته استحقاقات المرحلة،التي يأتي في مقدمتها تعبئة الأهالي،وتوعيتهم وتوحيد القوى السياسية لمواجهة اللجنة الرباعية المنبثقة عن مؤتمر الصلح والمكلفة لمعرفة رغبات السكان.وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها السعداوي لاسترضاء الجانب السنوسي البرقاوي،ألا إن هذا الأخير لح في رفض المشاركة في الهيئة،اوحتى التعاون معها،بل اتخذ من إعلانها من طرف عبد الرحمن عزام وخلوها من أية شخصية برقاوية،ذريعة لتعميق توجهاته الانفرداية الإقليمية،وإيجاد مزيد من المسوغات والتبريرات لها.

ومع ذلك فقد كان رجوع السعداوي إلى البلاد،في ربيع 1948م،قبيل وصول اللجنة الرباعية المذكورة بأسابيع قليلة،مبعث أمل في نفوس الأهالي،حيث ملأ حضوره_كما يقول المؤلف_فراغ القيادة السياسية أو الزعامة في طرابلس،وبدأت الحالة الوطنية في طرابلس تشهد تصاعدا متزيدا وصل إلى ذروته بالإعلان عن توحيد القوى السياسية الرئيسية في الإقليم وتأسيس حزب المؤتمر الوطني العام في 1949/7/7م،كرد وطني شعبي فعال على مشروع بيفن_سفورزا سيئ الصيت الداعي إلى تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقاليم،يوضع أحدها_وهو برقة_تحت الوصاية البريطانية،ويوضع الأخر وهو_طرابلس_تحت الوصاية الإيطالية،فيما يوضع الإقليم الثالث_فزان_تحت الوصاية الفرنسية،وقد تشكل حزب المؤتمر الوطني_كما يقول المؤلف من اندماج هيئة تحرير ليبيا وخمسة أحزاب سياسية،لم يذكرها متعمدا فيما يبدو_على قائمة بسبعة أو ثمانية تنظيمات سياسية أوردها في(ص66/64) بإيجاز شديد،بل ومبتسر،لا يكفي لتوضيح البيئة السياسية والممارسة التنظيمية التي بزغ في سياقها حزب المؤتمر وتلك التنظيمات هي:الحزب الوطني،والكتلة الوطنية الحرة،حزب الاستقلال،هيئة التحرير القومي،حزب الأحرار،حزب الاتحاد المصري الطرابلسي،حزب العمال،لجنة أعانة فلسطين.

والكاتب لا يوضح أيا من هذه المنظمات أندمج في حزب المؤتمر،وأيها رفض ذلك،أما الجبهة الوطنية المتحدة فلم يعد يعرف ماذا حل بها بعد فشل مفاوضاتها في برقة؛هل استمرت في ممارسة دور سياسي ثم اندمجت هي الأخرى في حزب المؤتمر؟أم إنها كانت قد تحللت مع فشل تلك المفاوضات .أي قبل تأسيس حزب المؤتمر؟وعلى أية حال،فقد كان المرء يتوقع أن يولي المؤلف عناية 'أكبر بتجربة حزب المؤتمر والبيئة السياسية والتنظيمية التي انبثق منها،وبالكيفية التي استطاع بها السعداوي يصهر في بوتقة واحدة كل تلك التناقضات والحساسيات بين القيادات السياسية والإجتماعية الطرابلسية،لاسيما إذا ما وضعنا في في الحسبان أن الكتاب يكرث أساساً لدراسة السعداوي والمؤتمر كما يشي بذلك عنوانه.

5

بسقوط مشروع بيفن_سفورزا،وصدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1949/11/21م باستقلال ليبيا،وتعيين "أدريان بلت"ممثلا للأمين العام،بمعونةٍ مجلسٍ استشاري،لتهيئة البلاد للاستقلال، يدخل أداء السعداوي السياسي طوراً جديداً، بإعلانه القطيعة مع أمين عام الجامعة العربية"عبد الرحمن عزام"في مؤتمر تأجوراء لحزب المؤتمر المنعقد يوم 1950/3/25م،في محاولة منه– في ما يبدو– لاقناع التالف السنوسيٍ العشائري البريطاني بإزالة أية شبهة للوصاية من طرف "عزام"عليه شخصياً، أو على حزب المؤتمر.

ولم يقتصر الأمر على هذه الخطوة فقط بل أخذ عليه خصومه ومنتقدوه_ بل وحتى أنصاره المقربون الخلص– تغاضيه عن اختيار مندوبي طرابلس في لجنة الواحد والعشرين،ثم في لجنة الستين لصياغة الدستور،بدون الرجوع إليه كزعيم أكبر أحزاب البلاد وأهمها، وتغاضيه عن قاعدة التساوي في عدد مندوبي الأقاليم الثلاثة(طرابلس وبرقة وفزان)في اللجنتين المذكورتين،رغم إن طرابلس وحدها بها ثلثا عدد سكان ليبيا،كما أخذوا عليه أيضا قبوله بالصيغة الفدرالية لنظام الحكم،وتقسيم البلاد إلى ثلاثة ولايات، التي نص عليها الدستور، والذي شارك السعداوي بنفسه مع لجنة الستين في تقديم مسودته إلى الأمير إدريس السنوسي.ولقد تضافرت كل ذلك ليهزّ مكانة السعداوي في قلوب أنصاره"من قيادات المؤتمر"وجماهيره، بل ووصل الأمر بالتيار الوطني الراديكالي في أقصى تجنحاته،ممثلا بحزب الكتلة الوطنية الحرة بزعامة الأخوين الفقيه حسن،إلى التعريض بسمعة السعداوي الوطنية والتشكيك فيها.

وهكذا بدأ السعداوي،منذ بدايات عام 1950م،في خسارة أوراقه الواحدة تلو الأخرى، بداء من دعم أمين عام جامعة الدول العربية ومساندته،مرورا بالقيادات والشخصياتِ الوطنية في المهجر،لاسيما اللجنة الطرابلسية في القاهرة،واخيرا وليس آخراً، العناصر والقيادات الوطنية في حزب المؤتمر ذاته.ومامن تفسير

لهذه المواقف،التي تدخل في باب القطيعة مع التيار الراديكالي في الحركة الوطنية الليبية آنذاك، سوى محاولة السعداوي استرضاء التالف السنوسي البريطاني، وتطمينه ولجم مخاوفه وشكوكه حيال توجهات السعداوي الوطنية وإنه لمن مفارقات هذه المرحلة أن يعمد قادة التيار المهادن والموالي للإدارة البريطانية في حزب المؤتمر ،وفي مقدمتهم الشيخ أبو الاسعاد العالم حتى بعد تلك الخطوات والمواقف التي اتخذها السعداوي،إلى الانفضاض عنه والتبرؤ منه،متخيرين بطبيعة الحال – كفة التحالف السنوسي البريطاني الراجحة، خاصة بعد إن تعمد الملك إدريس تجاهله بتعيين"محمود المنتصر"ممثل التيار الموالي للإدارة البريطانية في طرابلس،رئيسا للحكومة الاتحادية المؤقتة في مارس 1951م.وهو ما شكل صدمة هائلة للسعداوي، كادت إن تفقده توازنه، ودفعته إلى العودة إلى مسايرة جماهير حزب المؤتمر الرافضة والمعارضة للنظام الفدرالي، والدخول في مواجهة صريحة مع النظام،انتهت بأبعاده عن البلاد،واعتقال ابرز قيادات حزب المؤتمر وعناصره، وأقفال الحزب، وإيقاف جريدته"شعلة الحرية".

6

وعل الرغم من إن الكتاب يركز على المرحلة الأخيرة من سيرة بشير السعداوي السياسية، وهي المرحلة المرتبطة بعودته الثانية إلى البلاد، وعلى راس هيئة تحرير ليبيا،ثم تأسيسه حزب المؤتمر الوطني،على قاعدة الاستقلال والوحدة تحت زعامة إدريس السنوسي والانضمام إلى الجامعة العربية،ألا إن السياق التاريخي تطلبّ،في عدة مرات الرجوع إلى خلفيات الأحداث إبان احتدام الحركة الجهادية، ثم النضال السياسي في المهجر، ضد الاحتلال الإيطالي.

ومع ذلك لا يعدو الكتاب إن يكون مقدمة أو ملخصا مكثفا(كما يقول المؤلف نفسه في ص22) لتلك السنوات المشحونة والمتوترة من تاريخنا الوطني السياسي المعاصر، وقد جهد المؤلف من خلالها في رسم صورة تاريخية واقعية هادئة. لبشير السعداوي،تنتزعه من دائرة التجاذب الحاد بين التقديس والتخوين.ذلك إن محور الكتاب وسؤاله الأساسي إنما يدوران حول المأزق الذي وضع(أو وجد)السعداوي نفسه فيه،بعد صدور قرار الأمم المتحدة باستقلال أواخر عام 1949م،من حيث أن هذا الحدث يشكل علامة فاصلة في حياة السعداوي وسائر المناضلين من أجل الاستقلال،بين حقبة النضال الجهادي ثم السياسي من أجل نيل الحرية والاستقلال،وبين مرحلة جديدة ينصرف فيها الشاغل السياسي إلى إقامة الدولة الوطنية الحديثة وكيفية تسيير دواليبها.

وعلى هذا الأساس،فان التقييم الموضوعي لمنهج السعداوي وأدائه السياسي يقتضي التمييز الواضح بين هاتين الحقبتين.فلئن بدا واضحا ارتباكه وتخبطه السياسي، وبالتالي فشله الذريع في الوصول إلى مكان يليق به في سدة الدولة الجيدة، أو في تنظيم وقيادة حركة معارضة فعالة لها، إلا انه كان أبرز الناجحين فيما يتعلق بالحقبة الأولى الجهادية ثم السياسية، حيث تكلل نضاله الطويل

الصبور بثمرة الاستقلال . وفي هذا الصدد لا ينبغي إن ننسى أن السعداوي كان أكثر القادة والزعماء الوطنيين وعياً بأهميه توحيد القيادة السياسية على مستوى البلاد الليبية بأجمعها وأنه ظل منذ عام 1920م ممسكاً بهذه الحلقة الرئيسية في الحركة الوطنية الليبية، على مستوى الفكر والحركة في آن معاً.

وبعد....

فقد بداء لي- عندما فرغت من قراءة هذا الكتاب- إن المؤلف يفترض في قارئه الإلمام بأحداث تلك المرحلة وشخصايتها الفاعلة،فلم يعمد إلى التوضيح والتعريف،مكتفياً "في الكثير من الأحيان"- بالإشارات المقتضبة والسريعة، وكأني به يخاطب النخبة التي عاصرت تلك المرحلة، دون إن يضع في حسبانه الأجيال التالية التي لم يتوفر لها بعد أي مهاد معرفي بتاريخ تلك المرحلة وأجوائها.

ولأن المؤلف ليس باحثا تاريخياً أو سياسياً اوسوسيولوجياً متخصصاً،بل هو مثقف متعدد الاهتمامات والانشغالات،فقد جاء العرض التاريخي الذي تضمنه الكتاب أقرب الى الخطرات واللمحات التاريخية وأدنى إلى أسلوب الترسل الصحفي،منه الى توسل الكتابة التاريخية المنهجية.ومع ذلك فقد أضفت ثقافة المؤلف العميقة وصفاء وعيه الوطني على الكتاب مسحة من العقلانية الهادئة الرصينة التي نفتقدها في كثير من كتاباتنا التاريخية.

الهوامش

(1):نذكر منها على وجه التحديد ما يلي:

الهادي،إبراهيم المشيرقي:ذكريات نصف قرن من الأحداث الاجتماعية والسياسية،منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية_سلسلة الوثائق التاريخية7،طرابلس 1988م.

احمد زارم:حتى لا يضيع التاريخ:ذكريات من الماضي القريب،إصدار شخصي،طرابلس 1972م.

عبد الرحمن الجنزوري:رحلة السنوات الطويلة،وقائع وتأملات في سيرة مواطن ليبي،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية سلسلة التراجم(4)،طرابلس،2000م.

انظر في هذه السيرة على وجه التحديد الفصل المعنون:"أضواء على الحركة الوطنية الليبية"

(2) انظر على سبيل المثال:

علي البوصيري:دور السعداوي في الحركة الوطنية منذ تأسيس هيئة تحرير ليبيا حتى سنة 1952 م،مجلة الشهيد،العدد الثالث،مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي،1982م،ص199219.

محمد مسعود جبران:صفحة مطوية من نضال الشعب الليبي،علي الفقيه حسن والكتلة الوطنية الحرة،مجلة الشهيد،العدد المزدوج السابع والثامن،أكتوبر 1986/1987م.

(3)ورد في مذكرة رفعها للإدارة البريطانية في طرابلس،بتاريخ 1944/3/12م،مستشارون محليون لها،عدد من المطالب الاقتصادية،منها المطالبة "بالسماح بحرية التجارة مع برقة".

انظر نص المذكرة كامل في الهادي إبراهيم المشيرقي،ذكريات.....م س،ص228_230.

(4)سالمة الجاضرة:الجماعة السياسية الليبيية(1943_1948م)رسالة ماجستير غير منشورة بإشراف د.صلاح الدين السوري،جامعة قاريونس 1983م،ص 190

(5)سالمة الجاضرة،ن.م ص 53 /54.

ملاحظات حول القصة والرواية في ليبيا

د. أحمد إبراهيم الفقيه

سأقارب هذا الموضوع من زاوية بعيدة عن البحث الأكاديمي، سأقاربه من زاوية شخصية، هي زوية الشهادة اعتماداً على تجربتي الأدبية وخبرتي الخاصة، ومن خلال هذه الرؤية الذاتية سأحاول الإحاطة بالمشهد الأدبي الليبي خلال العقود الأربعة الماضية، وبصفة خاصة الجهود الإبداعية في مجالي القصة والرواية. والأمر الذي أوجب هذا الأسلوب في المعالجة هو أنني جزء من هذا المشهد الأدبي، وحديثي من موقع الباحث الأكاديمي يستوجب- التزاماً بشروط الحياد والموضوعية- أن أهمل الحديث عن نفسي مكتفياً برصد ما أسهم به الآخرون، وهو ظلم لإنتاجي الأدبي بمثل ما هو ظلم لذلك البحث الذي سيكون ناقصاً برغم الحياد والموضوعية.

وانتقل مباشرة، ودون إبطاء لاختيار نقطة في الزمان، تكون مرتكزاً لهذا الحديث، انطلق منها وأعود إليها هي عام 1960، حيث بدأت في هذا العام اتصالي بالحياة الأدبية، ونشرت أولى محاولاتي القصصية. ظهرت القصة بعنوان "هارب إلى المدينة"، وكانت الصحيفة هي صحيفة فزان.

وبرغم أن ليبيا قد عرفت الصحافة منذ أواخر القرن الماضي، إلا أن ذلك النوع من ثمرات المطابع الذي أسمه الكتاب لم يكن يحظى في ليبيا بالازدهار الذي يحظى به في بلدان أخرى، لم يكن ما صدر في ليبيا من كتب الإبداع الأدبي منذ اختراع المطبعة وحتى بلوغنا تلك النقطة من التاريخ وهي عام 1960 قد تجاوز عشرة كتب، من بين هذه الكتب كتابان قصصيان هما نفوس حائرة لعبد القادر أبو هروس، ومن القصص القومي للسيدة زعيمة الباروني وقد صدرا عام 1957، ولعلني قرأت هذين الكتابين قبل أن أباشر كتابة القصة وأصل إلى مرحلة النشر، ولكنني أعترف بأن ما كان يغذي ملكاتي الأدبية ويسهم في

تكويني ثقافيا وفنيا هو ذلك الرصيد الضخم من ثمرات المطابع في مصر والمشرق العربي تأليفاً وترجمة، حيث كانت الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا الأربعينات والخمسينات تستمد كامل قوتها ومواردها مما يأتيها من الشرق، وكل ما كان يكتبه ا لكتاب يقع تحت تأثير الاتجاهات الفكرية والمدارس الفنية ورياح التحديث والتغيير القادمة من هناك.

لم يكن ضعف حركة نشر الكتاب بل انعدامها إلا في أضيق الحدود، يمنع وجود إنتاج أدبي، ونصوص إبداعية تنشرها الصحف والمجلات، ويمكن العودة إلى منتصف الثلاثينات، وإلى مجلة ليبيا المصورة وقصص الأستاذ وهبي البوري التي ظهرت على صفحات تلك المجلة، لتحديد نقطة البداية لنشأة القصة القصيرة بشكلها الفني الحديث في ليبيا، وهي قصة أكثر نضجاً وإتقاناً من تلك التي وردت في المجاميع القصصية التي صدرت في الخمسينات، وقد تمكنت من جمع عشر قصص لهذا الكاتب نشرتها في كتابي بدايات القصة الليبية القصيرة.

وستظل القصة القصيرة وخلال حقبة زمنية تواصلت منذ زمن البدايات وإلى منتصف الثمانينات هي اللون الأدبي الغالب على إنتاج المبدعين الليبين وسنرى أن عشرات المجاميع القصصية سوف تصدر، وأن إضافة مهمة لا إلى رصيد القصة القصيرة في ليبيا، وإنما إلى رصيدها على مستوى الوطن العربي سيحققها أدباء ليبيون أمثال عبد الله القويري وخليفة حسين مصطفى، وإبراهيم الكوني، وصادق النيهوم، بما توفر لهم من قدرة على التجديد والابتكار انطلاقاً من ذات العناصر التي عرفها الشكل التقليدي للقصة القصيرة دون أن نغمط حتى المبدعين الكبار الذين أثروا تلك الأشكال التقليدية، ومنحوها زخماً شعبياً وإنسانياً أمثال على مصطفى المصراتي، وبشير الهاشمي، بإنتاجها المتواصل الدءوب.

وعودة إلى ذلك العام الذي جعلناه نقطة ارتكاز لهذه الشهادة عام 1960، كانت القصة التي ينتجها كتاب تلك المرحلة تنتمي إلى واحد من هذه الاتجاهات الأربعة:

1- يتمثل الاتجاه الأول في القصة العاطفية الانفعالية التي كان عبد القادر أبو هروس أبرز كتابها، وكانت مجموعته نفوس حائرة تجسيداً لأهم ملامحها، وهي تعتمد أسلوباً وجدانياً انفعالياً في تصوير التجارب العاطفية الفاشلة والآمال المحبطة والمعاناة التي يعيشها الفتى الصغير وسط مجتمع يفصل بين النساء والرجال، والصراع الذي يدور في نفوس الناس بين الواقع المثال، وكانت أغلب القصص التي تنشرها صحف الخمسينات تنتمي إلى هذا النوع، ومن بين الأسماء الكثيرة التي ظهرت

في تلك المرحلة واختفت يبقى اسمان لكاتبين مهمين هما عبد القادر أبو هروس ومحمد فريد سيالة، وسيحد هذا الاتجاه فيما بعد من يهتم بتطويره وكتابة قصة تعني بتصوير العواطف المشنوقة وإحباطات القلوب المعذبة، ولكن بأسلوب أكثر أناقة ولغة أكثر شاعرية كما في قصص مرضية النعاس ومحمد على الشهويدي ممن يواصلون رحلة العطاء الإبداعي حتى الآن.

2- الاتجاه الثاني، هو الاتجاه الذي تنتمي إليه المجموعة القصصية التي نشرتها السيدة زعيمة الباروني، القصة ذات الجذور الشعبية، والتي ظهرت في تلك المجموعة أقرب إلى القصة في مراحلها السابقة على ظهورٍ القصة الفنية ولعل الذين كتبوها في تلك الفترة كتبوها لتكون تدويناً لتراث هائل من الأدب الشفهي، الذي ظل عائشاً في ذاكرة الناس دون أن يحظى في المراحل التاريخية السابقة بمن يهتم بتدوينه وتطويره.

إلى هذا اللون أيضاً، تنتمي قصص كثيرة كان يكتبها تلك المرحلة، ولكن كتاباً آخرين أكثر استيعاباً لمنجزات المدارس الحديثة في كتابة القصة سوف يأتون، وسوف يبرعون في الاستفادة من تلك القصة الشعبية وتوظيف مناخاتها وأجوائها في كتابة قصة حديثة تستفيد من الموروث العربي القومي والمحلي، وتستخدم تقنية حديثة في إنجاز مشروعها التجديد، ويمكن اعتبار مجموعة من قصص الأطفال للصادق النيهوم، والصادرة في منتصف السبعينات ذروة هذه الطفرة الابداعية التجديدية، وبرغم أن النيهوم لم يكن يعتني كثيراً بكتابة القصة، ويركز جهوده في البحوث الفكرية، إلا أنه أفلاح في هذه المجموعة القصصية الوحيدة التي أنتجها أن يؤسس لقصة قصيرة حديثة، نفضت عن نفسها كل تأثير الثقافات الأخرى، واكتست ثوباً عربياً ولونا عربيا ونكهة عربية، فلم تعد القصة القصيرة التي يكتبها الصادقة النيهوم ابنة ثقافات أخرى، وإنما اكتسبت أرومة وهوية عربية.

إلى هذه المدرسة أيضاً تنتمي قصص خليفة الفاخري، ورضوان أبو شويشه، ومحمد المسلاتي، كما كتب الأستاذ/ على مصطفى المصراتي قصة تنهل من معين الحكاية الشعبية وتستفيد من تقنياتها وتعني بتصوير نماذج من البيئة الشعبية وأجوائها بأكثر مما فعل أي كاتب آخر.

3- الاتجاه الثالث، الذي بدأ يحتل مكانه بارزة في إبداع المبدعين في النصف الثاني من الخمسينات هو الاتجاه الواقعي، الذي استفاد من طروحات النقاد لمدرسة الواقعية الاشتراكية وتجليات تلك الأطروحات في الإبداع القصصي، وكان أبرز ممثلي هذا الاتجاه هم كامل المقهور وخليفة التكبالي وبشير الهاشمي، دون أن ننسى نصوصاً يمكن اعتبارها إرهاصاً للقصة الواقعية كتبها كتاب سبقوا هؤلاء من بينهم طالب الرويعي، وأحمد العنيزي ومحمد بادي.

4- الاتجاه الرابع، الذي بدأ إرهاصاته الأولى في أواخر الخمسينات كان ذلك الاتجاه الذي بدأه عبد الله القويري، وواصل تطزويره فيما بعد حتى حقق تفوقاً كبيراً فيه، وهو الاتجاها النفسي، وإذا كان بعض الكتاب الذين جاءوا بعده قد كتبوا قصة نفسية قريبة من أسلوبه كما فعل سالم الحاجي، وعبد الله الخوجه، فإن عبد الله القويري ظل في هذا المجال مدرسة منفردة ذات ملامح وأبعاد لا تنتمي لأحد غيره. إنها القصة التي تتحول إلى شحنة متفجرات وكتلة من المشاعر والانفعالات في حالة صراع وتفاعل وغليان، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى سطور فوق الورق فإن درجة من الاشتعال والتوهج وقدراً من التوتر والانفعال سوف ينتقلان إلى لغة القصة وأسلوبها لتحقيق التفاعل المطلوب بين الشكل والمضمون.

كانت هذه الاتمجاهات الأربعة هي الاتجاهات السائدة فيما ينشر من نصوص قصصية في تلك النقطة من الزمان، ولم أكن وأنا أنشر قصتي ذلك العام على وعي بهذه الاتجاهات، بل لم أكن وأنا في مدرسة القرية أجد ما أقتات به من زاد أدبي سوى الكتب العربية الواردة من خارج البلاد، كما أن حجم ما كان ينشر ويذاع لم يكن يستطيع أن يشبع نهمي للقراءة حتى بعد أن جئت إلى المدينة أبحث عن إنتاج الكتاب الليبين، وعندما كتبت قصتي الأولى كنت قد اهتديت إلى مصادري، وتعرفت على عائلتي الأدبية، ونظرت إلى شجرة الأنساب والسلالات التي تضم أسماء رواد هذا الفن على المستوى العالمي والمستوى العربي، فرأيت أن أحد فروعها أقرب إلى روحي ووجداني، واجتهدت في أن أحظى بشرف الانتماء لتلك العائلة التي كان عميدها الأكبر أنطون تشيكوف، وكان أبرز أبنائها العرب كتاباً مثل عبد السلام العجيلي ويوسف إدريس.

بهؤلاء تأثرت، وإليهم تطلعت، وعلى منوال كتاباتهم كتبت محاولاتي الأولى، وهكذا فإنني عندما كتبت تلك القصة الأولى التي أشرت إليها لم تكن سوى

معارضة لقصة تشيكوف الشهيرة لمن أسرد أحزاني، كانت خلفية المشهد في قصته موسكو ببردها وجليدها، وكانت في قصتي قرية ليبية بدفئها وسطوع شمسها، وفي حين كان الأب المفجوع في قصته لا يجد أحد من الناس ينصت إليه أو يتعاطل معه، حتى لجأ في النهاية إلى حصانه يسرد له أحزانه، فإن الأب المفجوع في قصتي يحظى بحلقات من المستمعين المتعاطفين.

إلى أي اتجاه تنتمي القصة التي كتبتها في تلك الفترة سأكون صادقاً وأقو إنها انتمت إلى هذه الاتجاهات كلها، وفي ذات الوقت تسعى لإعلان القطيعة معها، ومن يقرأ مجموعتي الأولى "البحر لاماء فيه" سيدهشه مدى التنوع والتباين في الأساليب التي كتبت بها تلك القصص. كانت قصة تجريبية مسكونة بهيجس التجديد تضرب شمالاً ويميناً شرقاً وغرباً، في محاولة دءوبة لأن تؤسس لنفسها أرضاً جديدة تقف عليها.

وكان هذا أيضاً حال عدد من الكتاب الذين بدءوا معي أمثال يوسف الشريف، أو بعدى بسنوات قليلة، أمثال خليفة حسين مصطفى، وإبراهيم الكوني (وسأذكر هنا اسم كاتب توقف نتجية المرض عن الانتاج، إلا أنه ترك بصمة لن تمحي وأسهم في كتابة قصة شديدة التوهج والإتقان هو مهدى العدل). وعلى أيدي هذه المجموعة انطلقت القصة القصيرة نحو آفاق جديدة، وحققت أعلى مراتب النضج التي وصلت إليها حتى الآن. لم تعد القصة قطعة من الحياة كما هو الحال مع ذلك الرصيد الكبير الذي تركته مختلف المدارس الفنية التي انتمت إليه القصة عربياً ومحلياً، وإنما تحولت إلى شئ آخر له حياته اتي لا تبحث عن مرجعيتها في أية حياة أخرى، القصة الكيان، القادرة على أن تكون معادلاً للحياة ذاتها، إنها قطعة من الكون، وليست قطعة من الحياة. انتهى الأسلوب التقريري لتحل بدلاً منه لغة سرد جديدة تتكافأ مع المستويات المتعددة التي يتكون منها النص. لغة تستعير من الشعر قدرته على التركيز والتكثيف دون أن تفقد قدرتها على التعامل مع التفاصيل الحميمة والصغيرة، وانتهى الوصف الخارجي ليتحول إلى عنصر صغير في تصوير عالم أكبر من عالم الواقع بمثل ما هو أكبر من عالم القصة النفسية التي تكتفي بتصوير المشارع، والتقاط الإيقاع الداخلي. إنها حتى وإن غرست جذورها في الواقع، فإن أغصانها تنتشر في عالم الحلم والهوم والاسطورة في الطبيعة وما وراء الطبيعة قصتة لا يشغلها الحديث، وإنما الدلالة التي خلف الحديث لا تكتفي بالنظر في الواقع إنما فيما وراء وفوق هذا الواقع. لم تعد مشغولة بما هو طارئ وعابر في حاية أبطالها بقدر ما هي مشغولة بالنفاذ إلى العناصر الثابتة والدائمة الفاعلة في وعي الإنسان، وطوعت هذه القصة

تقنياتها وفق هذه الرؤى الجديدة، انتهت تراتبية الزمن والتسلسل المنطقي للحدث وقواعد البداية والعقدة والنهاية التي أرستها المدارس التقليدية. إلى هذه المدرسة تنمي تلك القصة التي يكتبها الآن جيل ما بعد كتاب الستينات، وإلى هذا النوع تنتمي القصة التي يكتبها سالم الهنداوي، وسالم العبار، وبشير زعبية، وعمر أبو القاسم الككلي، وإبراهيم حميدان، وسالم الأوجلي، وصالح عباس، وعبد الله الماي، ومحمد المغبوب، وعبد الرسول العريبي، على اختلاف المواهب والقدرات.

ومن بين هؤلاء الكتاب أنفسهم الذين اعتنوا لسنوات طويلة بكتابة القصة القصيرة ظهر كتاب الرواية، ولا غرو أن نرى أن اثنين من هؤلاء هم الآن من أهم كتاب الراوية في ليبيا وأكثرهم إنتاجاً، وأعنى بهما خليفة حسين مصطفى، وإبراهيم الكوني.

عن نفسي أقول بأنني بدأت كتابة الراوية عام 1967 ونشرت فصولاً من هذه الراوية في مجلة الرواد وكانت بعنوان "فئران بلا حجور"، ولكنني لم أصدرها مكتملة في كتاب إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثين عاماً، وسوف تمضي سنوات مقدارها تسعة عشر عاماً حتى أتمكن من كتابة وإصدار روايتي الثانية التي حملت عنوان "حقول الرماد" والتي صدرت عام 1985، كما تأخر أيضاً ظهور الراويات التي كتبها خليفة حسين مصطفى، وتأخر كثيراً ظهور روايات إبراهيم الكوني التي تتابع صدورها بغزارة كأنها كانت مطمورة تحت الرمال، فما هي هذه الرمال التي حجبت الإنتاج الروائي من الظهور في البيئة الليبية، لقد تناول عدد من الكتاب أسباب هذا الاحتجاب وأوعزوا السبب الرئيس إلى طبيعة المجتمع الليبي باعتباره أنه مجتمع بدوي رعوي قروي شبه زراعي، ورغم وجود حواضر كبيرة مثل طرابلس، فهي أشبه بالقرى الكبيرة الخالية من مقومات المدينة، ورأي هؤلاء الكتاب أن طبيعة الحياة في مثل هذه المجتمعات التي يغلب عليه التنقل والإقامة المؤقتة لا تسمح بنشوء الأعمال القصصية الكبيرة حتى في الأداب الشعبي ذاته الذي يتميز بوفرة الحكايات والخرافات القصيرة، بل إن هناك لونا أدبياً أسمه "العلم" بالغ الاختصار والاقتصاد حيث لا تزيد القطعة الواحدة على سطر أو سطرين، وقد وجد عدد من الباحثين رابطة تربط بين سيطرة القصة القصيرة على إنتاج المبدعين الليبيين وهذا المزاج الشعبي الذي يحتفي بالأعمال الأدبية القصيرة.

زد على ذلك أن مثل هذه المجتمعات البدوية القروية الخالية من تلك المشاهد المدنية التي يظهر فيها تشابك العلاقات وتنوع النماذج والأنماط البشرية وتصارع

المصالح وتباين المشارب والميول والأذواق والأهواء تفتقر إلى المادة اللازمة لتغذية العمل القصصي الطويل.

كما رأي هؤلاء الباحثون في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يضع كثيراً من الحواجز بين النساء والرجال سبباً آخر يحول دون توفر المادة الصالحة للأعمال الروائية، بينما يقدم مثل هذا التأزم في العلاقة مادة صالحة للقصة القصيرة.

وإذا اكتفينا بذكر هذه الأسباب التي منعت الكاتب من إنتاج هذا النوع الأدبي، فإن هناك جانباً آخر يتصل بغياب القارئ الذي يستهلك هذا الإنتاج، فشعب قليل العدد تبلغ نسبة الأمية بين أبنائه ما يقرب من تسعين في المائة كما هو الحال في مطلع الخمسينات، لا يعرف الكتاب إلا مستورداً، ويكتفي بإصدار عدد من الصحف والدوريات، لا يمكن له وهذه ظروفه توفير بيئة قارئة وقادرة على تلقى هذا الإنتاج الروائي، الذي يعتمد في تسويغ نفسه على الصحيفة لأن الصحيفة ذاتها غالباً ما يشتريها القارئ لغرض آخر غير قراءة القصص، وبالتاي كان من الصعب حتى لو وجد الكاتب القادر على كتابة الرواية أن يوجد الناشر ومن ثم القارئ الذي من أجله تكتب الروايات، وكان لابد أن تمضي سنوات كثيرة يكون خلالها المجتمع قد حقق درجة من التطور تؤهله للخروج من طبيعته البدوية الرعوية القروية إلى مرحلة التمدن، وانتهى من تأسيس بنية تحتية لحياته العلمية والثقافية، فأنشأ المؤسسات التي تعني بنشر الكتاب، وأنشأ دور العلم من مدارس وجامعات، وارتفعت نسبة المتعلمين إلى ما فوق السبعين والثمانين.

وهكذا ترسخت بفضل الرخاء قيمة المجتمع المتدن، وتحقيق درجة الحرية الاجتماعية التي سمحت باختلاط الجنسين في ميادين العمل والدراسة، وكان لابد لهذه البيئة وهذه الظوف أن تصنع كاتبها الذي يتفاعل مع هذه التحولات، والذي تمده الرواية بوسيلة تعبير أكثر قدرة من كل الأشكال الأدبية الأخرى على تصوير هذه التحولات الخطيرة التي عاشها المجتمع.

إضافة إلى ذلك فإن فن الرواية في الوطن العربي صار يستقطب مزيداً من المبدعين ومزيداً من القراء، وكان لابد أن يستجيب الكاتب الليبي الذي شهد هذه التحولات الاجتماعية وتعرض للتأثيرات الأدبية القادمة من العواصم الثقافية في الوطن العربي أن يستجيب لغواية هذا الفن، وكنت شخصياً أحد هؤلاء الكتاب الذين انتقلوا من كتابة القصة القصيرة إلى كتابة الرواية، وبعد أن صدرت لي رواية "حقول الرماد" عام 1985 وجدت نفسي أخوض تحدياً كبيراً لمعطيات هذا الواقع، فأكتب رواية متعددة الأجزاء هي الثلاثية، وكأنني أنتقم من فقر الحياة الاجتماعية التي رفضت أن تمدني بمادة تغذي العمل القصصي الطويل، ولم يكن

شعور التحدي حالة خاصة بي، وإنما ظاهرة عبرت عن نفسها من خلال عدد من الزملاء الذين انتقلوا إلى كتابة الرواية، فقد وجدوا أنفسهم يستجيبون هم أيضا لقوة الغواية، ويكتبون الرواية المتعددة الأجزاء كما هو الحال مع خليفة حسين مصطفى في جرح الوردة، وإبراهيم الكوني في رواياته التي تتحدث عن عالم الصحراء وهي الخسوف والمجوس والسحرة.

ويمكن اعتبار هذه الروايات المتعددة الأجزاء التي تنتمي إلى ما يسمى الرواية النهر أكثر اللحظات تألقاً في مسية الرواية الليبية، هذه المسيرة التي صنعتها جهود كثير من المبدعين بدءاً من محمد فريد سيالة صاحب رواية اعترافات إنسان التي ظهرت في الخمسينات وصولا إلى الرواية المتميزة التي كتبها صالح السنوي، وأحمد نصر أو تلك التي تقف في منطقة الحدود بين والرواية مثل أعمال إبراهيم النجمي، وسالم الهنداوي والكيلان عون، وعبد الرسول العريبي.

وبرغم تباين الرؤى وتنوع الأساليب والمدارس التي تنتمي إليها هذه الروايات وتعدد الأجواء والمناخات التي تصورها فإن هنا خصوصية تجمعها وهي أنها تمنح صوتا لبيئة وإنسان وكائنات ظلت على مدى العصور لا تجد أداة تعبير تنقل صوتها إلى العالم، فلقد ظلت تلك المفازة الصحراوية الكبرى التي تسمى الصحراء الليبية- وهي إحدى أكبر صحاري العالم وأكثرها غزارة في الحفريات الحضارية نتيجة ما شهدته من حضارات بائدة- ظلت قارة مجهولة على مستوى التعبير الأدبي، حتى جاءت راويات إبراهيم الكوني تكشف شيئاً من أسرارها، وتقدم للقارئ جزءاً من تاريخ العواطف والانفعالات والتجارب الإنسانية لقاطنيها، وظل مجهولا أيضاً إنسان تلك الواحات والمراكز الحضرية الذي عاش تجربة من أكثر التجارب البشرية خصوبة وثراء برغم قسوتها فقد وقع ولعدد من القرون بين كماشة الجيوش الغازية التي هاجمته من جهة الشمال وبين بؤس وقسوة البيئة الصحراوية في البلاد، فكانت حياته صراعاً ضارياً من أجل البقاء ونضالاً لا يستهان به ضد جحاف الغزاة، وعاني تجربة حياة حافلة بالأحداث والمواجع دون أن نرى أدباً عظيماً يواكب تلك المرحلة، ويستوعب تلك التجارب حتى جاءت أخيراً هذه الأعمال الروائية التي سعت ولا تزال تسعى لاحتواء زخم الحياة التي عاشها إنسان هذه البيئة.

وتبقى في النهاية ملاحظة أخيرة وهي أن الحديث عن المشهد الأدبي في ليبيا لا يستقيم إلا إذا وضعناه في إطار الصحيح وموقعه الصحيح من الإبداع في الوطن العربي، فلا يمكن التاريخ لأي إسهام أدبي في أي قطر عربي خارج هذا السياق، ولا يمكن فصل ما يحققه الأدباء من إنجازات أدبية في قطر ما عن بقية ما يتحقق في أقطار عربية أخرى، فكلها تنويعات لونية على قماشة واحدة.

استشراف بدائل المستقبل الليبي

مقترح البدء في إجراء الدراسة (*)

د. محمود جبريل

أولاً: ملاحظات ضرورية:

الاستشراف أو التحليل المستقبلي- هو التفكير والحساب المستقبلي لبدائل متباينة تماما (سيناريوهات)، يمثل كل بديل منها مسيرة نحو المستقبل. ويتوقع في هذا النوع من الدراسات: طول مدى فترة الاستشراف، وشمول التفكير لكافة مناهج الحياة، الإبداع في مستقبلات أخرى خلاف البقاء عند " الواقعي " " والمسموح به " والمعبّرعن " توازنات وقوى تقليدية، وتبيان التكلفة الاجتماعية المترتبة على كل سيناريو.

- الدروس الأهم من فن/ علم الاستشراف إنما تأتي من المقارنة بين السيناريوهات، ومن توفير الإدارة والرؤية لسيناريو منها، أو من دروسها المستفادة، في صورة تخطيط استراتيجي لتحقيق هذا السيناريو المختار.
- يفترض هنا قصر الوقت المتاح للدراسة الاستشرافية، والتي ربما يترتب عليها انتظام عمل مؤسسي مكتمل، أو بديل أو عمل يتابع تطوير الرؤية المستقبلية وتعديلها.
- استخدمت كلمة السيناريو (المستقبلي) هنا بمعنى بداية مسيرة، ثم توليد التداعيات بدءا من افتراضات هذه البداية. وليس مجرد استهداف شكل لمجتمع في المستقبل.
- رغم أن الاستشراف هنا لقطر/ ووطن، ففي ضوء المعطيات الدولية وظواهر الحراك الإنساني الواسع للبشر ورأس المال والعولمة وثورة الاتصالات، فالاستشراف يتحول إلى الاهتمام الكبير بالمجموعات والجماعات وتقاطعاتها، أي إلى تفاصيل وتمايزات ودوافع للتكتل ولعكسه. وعلى القائمين بالاستشراف وضع التعريف المناسب للقطر/ الوطن الذي يسمح بالاستشراف في إطار العولمة.

(*) ورقة أولية تطرحها "عراجين" للنقاش وكبداية لفتح الحوار الوطني حول المستقبل الليبي.

- في اشتقاق أولي للسيناريوهات نحن لا نبحث عن الأفضل والأسوأ، ولكن عن احتمالات عالية لمسيرات متمايزة ومتباعدة وقابلة للتنفيذ.
- الاهتمام بالتفاصيل هام وشيق، ولكن يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الطريق/ المسيرة/ السيناريو في التنفيذ الفعلي إنما تصنعه أقدام المواطنين الكثيرين أثناء المشي والتنفيذ، وليس مخيلة القائمين على الاستشراف.
- ما زالت القصص التاريخية والحكمة معطيات هامة، ولكننا نسمعها فقط من الذين عرفوا عن كنه التحديات المستقبلية القادمة. ومن معايير مستقبلية تغير قراءة الماضي.
- كل عمل على سيناريو مستقبلي لابد وأن يتميز بالاتساق الداخلي لمكوناته ومقولاته ومناهجه وسياساته، في السياسة والتنمية وعلم النفس والسلوك وطبيعة المجتمع وقواه.
- ونحن نعيش في عالم شديد القسوة والتدخل في شئون بعضه البعض وبميوعة المواطنة فيه عبر كل دولة، وبزوغ مواطنة عالمية بين الأصغر سناً. ولا يجب أن نهمل هذا الواقع الجديد في بناء المنهج الاستشرافي.
- في كل العلوم نعيش التعامل مع مناهج اللايقين، وتراجع ادعاء السببيّة. فوجب التنبيه إلى طبيعة الشكل النهائي للمرحلة الأولى من الدراسة، وحتى ما يليها.
- وسوف يتم العمل، يتعاظم فيه تعقيد المشكلات ويزداد كثيراً عدد القوى والفواعل السياسية والمجتمعية: ولا يخفف من هذا الحمل إلا توافر معاونات معلوماتية وخبرات منهجية متاحة في كل مكان ولأي إنسان.

ثانياً: الزمن في الدراسة الاستشرافية المقترحة:

- في المنهجية المختارة يكون الاهتمام بفترة تُتاح لها المعرفة بمصداقية مناسبة، وهذه المصداقية تتأثر بالمدى الزمني وتقل كلما بعدنا عن الحاضر.
- والاختيار هو أن الاستشراف هو للفترة 2015-2025 في ضوء المعلومات والاتجاهات العامة المتوفرة.

- وتسمح المنهجية المختارة للإبداع في اختصار الزمن عند البحث عن إنجازات في التنمية والأمن والاستقلال والتمايز والمشاركة وتطوير القيم.
- والمرحلة الأولى من الدراسة الاستشرافية المقترحة هي مرحلة متكاملة تعطي نتائج كلية، قد تطور إذا ما رؤى كذلك. هذه المرحلة الأولى هي عملية استشرافية متكاملة. وتحتاج إلى ستة أشهر من لحظة بدء التطبيق. ويتناسب ذلك مع طبيعة وواقع التحولات بالعالم الآن، والاحتياج إلى تفكير مستقبلي بشكل عاجل.
- ويتضح عند عرض المنهجية إمكانية التنفيذ.
- وإذا ما قبلت فكرة استكمال العمل الاستشرافي في مراحل تالية، نؤكد مرّة أخرى إلى أن لذلك بُعد مؤسسي في تنفيذ المراحل التالية. ويقصد هنا توفير مكان وامكانات لجماعة بحثية مستقلة لمتابعة مراحل تالية يوفر لها دراسات الجدوى وتحدد المطالب وتعني بالتدريب للعقلية الاستشرافية.

في تنفيذ هذه المرحلة الأولى يحتاج الأمر:

- إلمام بآفاق عالمية وبدائل مستقبلية ليبية.
- حصر سيناريوهات عالمية وإقليمية.
- تدريب في المنهجية.
- إقامة علاقات تشابكية مع آخرين.
- تفصيل قضايا الحوار، وأسئلة الاستبيان.

وكل هذا يتم بشكل متوازي، ولا يمثل مراحل داخل هذه المرحلة الأولى.

ثالثاً: المنهجية المقترحة:

- تتوافر دراسات واتجاهات عامة وخطط واستراتيجيات، من العالم ومنظماته وجماعاته، ومن المنطقة العربية والمتوسطية، تعطي اتجاهات عامة حتى حول عام 2020، وتبشر بتحولات تقنية مستقبلية كذلك.
- منع وقع التغيرات وطبيعة التحولات تظهر أساليب المحاكاة الكيفية (كتابة السيناريوهات، وجلسات العصف الذهني) تفوقها على الأساليب الأخرى. كما أن هذه تناسب الخروج بتقرير سريع في نظرة كلية للحركة المستقبلية.

- اشتقاق وتطوير التداعيات (وبدائلها لكل سيناريو) يقوم على الحركة من حدث (أو خليط أحداث) إلى ما يترتب عليه محلياً وإقليميا وعالمياً من ردود أفعال وواقع تالي. يمكن أن نسمى آلية اشتقاق التداعيات المتكررة: "ماذا... لو؟" والخبرات في ذلك متوافرة، وتحتاج في بدايتها جلسات تدريب/ تلقين لإجادة العمل.
- يتكون الفريق القائم على الاستشراف من ثلاث دوائر:
  - دائرة أولى من ثلاث خبراء متخصصين في العمل الاستشرافي المبدع والباحث عن حلول غير تقليدية في الحركة وعن نوافذ للتفاؤل خطوة بعد خطوة أثناء الحركة... هؤلاء لقيادة العمل.
  - دائرة ثانية تشمل 20–30 من أخصائيين علميين وأمنيين ومهندسين، يضاف إليهم حوالي 5 من باحثين شديدي الجرأة في العلوم الإنسانية (اجتماع واقتصاد وسياسة وعلم نفس). وهؤلاء لتوفير احتياجات الدائرة الأولى في الحوار وبعض الدراسات.
  - دائرة ثالثة تشمل مواقع ومراجع واستبيانات وأفراد، يتم الاتصال بهم عن بعد شبكيّاً بالانترنت.
  - بخلاف الدائرة الأولى، يمكن لأفراد من الثانية والثالثة المشاركة عن بعد في كتابة السيناريوهات في تكامليتها باللحظات الأخيرة.
  - وبالطبع يُتاح للدائرة الأولى الوقت للتفرغ الحتمي، وحوالي 5 من مساعدي البحث والكتابة والحساب العلمي، وحاسبات وشبكة الانترنت. والمكان الذي يسمح بامتداد فترات الحوار المكثف.
  - في فن/ علم الاستشراف، المستقبل لا نتنبأ به... ولكننا نصنعه. هذه المقولة الهامة تؤخذ في الاعتبار في اختيار القائمين على الاستشراف وحماسهم واستقلال فكرهم، ومنهجيتهم.
  - ولكن ذلك يعني أيضاً توافر الفهم بينهم حول جيوسياسية العالم والنظام العالمي أخيراً، واقتصاديات الموارد، والليبرالية الحديثة، والاقتصاد السياسي للشركات دولية النشاط، وتغير مفهوم الأمن القومي، والتقنيات الحديثة.... ربما تبدو هذه الموضوعات عادية، إلا إذا أشرنا إلى أن ما هو مطلوب في الدائرتين الأولى والثانية إنما أفراد معبرون عن "عقل جديد لعالم جديد"، وبالتالي فإن نسبة الشباب فيهم هي الأكبر.

- نحتاج في كثافة الحوار الإبداعي في المنهجية إلى الإبداع، التجرد من المواقف المسبقة ومن النعرة الأكاديمية.
- هناك خبرات استرشادية في:
  - توافر المعارف والبيانات.
  - توليد السيناريوهات (تداعياتها).
  - الحوار المثمر.
  - المنطق، وكتابة السيناريوهات.
  - تعريف السيناريو الجيد.
  - البحث عن التقاطعات بين السيناريوهات، وهذا أمر طبيعي.
  - اختصار الزمن.
  - تمييز العوامل المحددة في التغيير.
  - الإبداع في الإدارة العالمية واقتراح السياسات والآليات.
  - الاستفادة بمنهج السيناريوهات في تجربة الأردن ومصر، وفي تجارب سنغافورة وأوروبا، وتجارب شركات ومنظمات دولية.

- ويعتبر إشراك القطاع الخاص والأهلي وفكر المرأة ضرورياً في الأعمال الاستشرافية إضافة للشباب أصحاب المستقبل.
- وأن كان في ليبيا مؤسسات أومجلة تعني بالمستقبليات يمكن الاستفادة منها، وفي ضوء ما أشير إليه.
- وأهم الدراسات المطلوبة في إطار الدائرة الثانية، وبشكل تكاملي مركب هي:
  - الآفاق التقنية العلمية للعالم الجديد وعلاقة ذلك بالميزات التنافسية للمنطقة العربية والبيئة الصحراوية والثقافات المتميزة.
  - آفاق الطاقة عرضاً وطلباً على المستوى العالمي وبدائل القرار أمام ليبيا.
  - الأبعاد الاجتماعية والتربوية والثقافية للعولمة.
  - بدائل في التعاون الإقليمي العربي والمتوسطي.
- يحتاج الشمول دائماً إلى الربط بين الأبعاد التالية: النماذج الفكرية، العلم والتقنية، إقامة الإنتاج على المعرفة، أجيال السكان وحراكهم، التجارة، والطاقة، التعليم وتوفير احتياجات الأمن والتنمية، حل المشكلات الاجتماعية، دور جديد للدولة، عائد التعليم المستمر اقتصادياً، التغيير

المؤسسي المستمر، تغيير القيادات وتدريبها، العلاقة بالآخر... التفكير والمنهج المنظومي:

- تشمل الدائرة الثالثة اللجوء إلى الاستبيان (سيشار لموضوعاته) وذلك لحوالي 70خبيراً وعلى جولتين، ولأسئلة تبدأ من حوالي 60 سؤالاً في الجولة الأولى، وحوالي 12 سؤالاً في الجولة الثانية.
- تتوافر عالمياً جهات ومعاهد تساعد بشكل تطوعي في توفير المعلومات وإجراء الحسابات العالمية، إذا احتاج العمل في المرحلة الأولى لذلك.
- يبنى السيناريو وتداعياته ببذل جهد أكبر في حصر الاتجاهات العامة، وفي حصر محددات حاسمة للمسيرة في المستقبل، وفي حب الاستطلاع والتنوع في تفاصيل ماذا... لو..؟ وخروج المحاولات دائماً بالجديد الذي لم يقل من قبل!؟ واختيار الفريق القادر على مثل هذا الإبداع والاختلاف.

ثالثاً:

1- موضوعات الاستبيان:

- ما يظن أنه اتجاهات عامة (ومتى تتحقق، وتكون اقتصادية أو معقولة حسب طبيعتها).
- غايات في الأمن وأولويات في نوعية الحياة، وفي دور المواطن والجماعة ورأس المال والمشروع الخاص.
- مجتمع المعرفة (إنتاج، تعليم، ميزة تنافسية،...).
- قطاعاته (الاتصالات والنقل والطاقة والموارد المعدنية والبيئة والتحضر والتشييد، الزراعة...).
- نظرات كلية (للإنتاج والبيئة والمياه، وآفاق العلوم الإنسانية والرعاية الصحية والتنمية البشرية والهجرة،....).
- تعليقات (على التقنيات الحديثة (الحيوية والمواد الجديدة. المعلوماتية)، وعلى النظام العالمي الذي يتشكل حالياً، وعلى النظام الإقليمي العربي.
- موضوعات التنميط والتجانس، مقارنة بموضوعات التنافسية والتمايز عبر العالم وعبر أسواقه وعبر تقنيات المستقبل.
- ما الذي يمكن أن نعتبره موضوعات اجتماعية هامة في عالم العولمة، ومع تغير دور الدولة، وظهور مفهوم الحكم الصالح.

- الجديد في مفاهيم: الصحة والمواطنة والخصوصية والجريمة والقيادة والوسائط الإعلامية والإرهاب، الحروب، التحديات العالمية المشتركة، حل الصراع سلمياً، الاستقلال والتبعية في ضوء الثورة التقنية المشاهدة، دور الدين.

2- في البدء حصر معارف عن الاتجاهات المستقبلية العالمية:

- تعريف العولمة، وقواها، ومؤسساتها، وقوانينها.
- الحراك البشري والهجرة.
- نوعية الحياة وطول العمر وظاهرة التشيّخ.
- تبعات أحداث سبتمبر 2001.
- توازن الموارد الطبيعية والسكان بمناطق العالم وتوزيع المياه الحلوة بهذه المناطق، ولأفق الدراسة.
- التقدم والتخلف عبر دول العالم بمعايير متباينة.
- الأمراض والجرائم والكوارث.
- القوى الكبرى والبازغة والمحتملة سياسياً/ اقتصادياً.
- آفاق وقضايا ومشكلات لمجتمعات المعرفة، في الدين، الغايات، الأسرة، المواطنة، الأمن،...
- الذكاء الاصطناعي وتبعاته.
- مستقبل الليبرالية والديمقراطية.

3- يضاف لذلك اتجاهات جزئية مستقبلية في ليبيا:

- السكان.
- المياه.
- المشروعات النفطية- مشروعات الطاقة.

- تقنية المعلومات في ليبيا.
- التراكم المعرفي في التعليم والتنمية البشرية والابتكار.
- تقاطع تقسيمات مجتمعية ونظم إنتاج متباينة.
- الآثار الممتدة لفترة الحصار والمقاطعة.

رابعاً: السيناريوهات المقترحة لليبيا

- يلعب التاريخ والمعطيات الاقتصادية والبيئية دوراً هاماً في صياغة هذه السيناريوهات، ولكن ليس عدد السكان ولا حجم الموارد. إنه التباري الذكي تجاه الأحداث وتجاه الآخرين هو الفيصل في عالم العولمة.
- التحالفات الآن ومستقبلاً تتم بين جماعات وقوى ومؤسسات صغيرة بأكثر مما هي بين دول ؟. وهذا الشكل الجديد، إذا ما اخذ في الاعتبار قوة الشركات دولية النشاط، سيكون الأكثر تأثير في صياغة العالم.
- من صياغة العالم والإقليم قد تتوافر بدائل أفضل أحياناً في صياغة النفس والقطر/ الوطن ومن العولمة وثورة الاتصالات قد تتوافر مزايا تنافسية جديدة.
- وجب التنبيه للإمكانيات الليبية في الموقع، والطاقة، والتقنيات الصحراوية، الخصوصيات البيئية، والبشر،... وإلى دول الجوار،...
- وأيضاً أهمية التقاليد والنظام المجتمعي، وتحميل الاقتصاد الليبي بالتعويضات وغيرها.
- ونضيف لذلك تبادليات ما بين:-
  - الطاقة والمياه الحلوة.
  - العربية والإفريقية.
  - تواضع الهيكل الاقتصادي ونشأة صناعات صغيرة ومتوسطة عالية المحتوي التقني.
  - المشاركة السياسية الواسعة وانتشار كثافة محدودة للسكان عبر مساحة واسعة.
  - طبيعة المجتمع القبلية / تجديد مصادر الشرعية.
  - مشكلات النظام الإقليمي العربي/ توافر خطوط ربط في الغاز والمياه والكهرباء.

- وعند صياغة السيناريوهات الليبية – أيضاً – لابد من التفكير في المحتمل من السيناريوهات العالمية والإقليمية للتقاطع والتفاعل معها، أو درء أخطارها، واحتمالات مشاركة رأس المال الدولي في التنمية.
- لابد من أخذ تحركات ليبيا الأخيرة، في التصالح مع الغرب في عين الاعتبار. فقد كانت هذه بدايات في مسيرة تفضل سيناريوهات دون أخرى. ولابد من حصر تام لكل ما تم في مجالات التحرير الاقتصادي قبل بدء نشاط ألاستشراف/، وحصر تام لطبيعة العلاقات الدولية التي بدأ العمل في تطويرها.

والآن:

السيناريو الأول: والأقرب لامتداد القائم

- في حقيقة الأمر تستمر الضغوط السياسية– دون الاقتصادية المباشرة– على ليبيا. يضاف إلى ذلك عدم خلخلة وعدم تعاون في تخفيف أثر التعويضات والمقاطعات السابقة على الاقتصاد الليبي. تتجاهل الضغوط السياسية طبيعة المجتمع والانتشار عبر المكان والخبرات السابقة في المشاركة السياسية، وتطلب حركة سريعة تجاه التعددية الحزبية.
- في نفس الوقت يزداد تردد ليبيا في الموقف من الغرب، وتحقيق توازن بين العربية والإفريقية، وتحقيق توازن بين الشرعية الثورية ومصادر جديدة للشرعية بالعالم الجديد.
- في نفس الوقت التحصن بالهوية ومفهوم مباشر تقليدي للأمن الوطني دور دراسات كافية ومشاركة شعبية حقيقية فيها.
- استمرار هذا السيناريو لفترة معقولة يحتاج مراجعة الموقف من دول عربية معرضة لنفس الحصار، ولدول افريقية لا تعرف ماذا تفعل، ويحتاج دعم العلاقة بأوربا بحوافز ومعطيات جديدة.

السيناريو الثاني: شكل منافس في التنمية والديمقراطية

- المسيرة تجاه السيناريو الشعبي كمرحلة طبيعية تالية لما كان موجوداً، يفرض على العالم أن يقبله وينتظر نتائجه. لأنه يركز على الإبداع في بدائل للمشاركة السياسية والإنجاز التنموي القائم على اللامركزية والتمايز الحضاري وتنمية المحليات المستقلة التي تشبع الكثير من احتياجات مواطنيها وعلى المستوى الوطني الكلي يتوافر أكثر من قطاع

رائد ومدن علمية (ليست مشروعات كبيرة بالمعنى التقليدي) تتميز بكثافة ما تتعامل معه من معرفة علمية.

- والنموذج الفكري الذي يرتكن إليه السيناريو هو إبداع للجنوب والدول النامية التي تريد التمايز والمغايرة في الغايات والفلسفة التنموية وتدارك عيوب ومصاعب وقوة العولمة.
- يفترض السيناريو – بالطبع – أن العولمة لا تفرض التنميط بل تشجيع التمايز للدول التي لا تقبل الاستسلام لليبرالية الحديثة والشركات الدولية التي يسيطر عليها ثقافة الغرب.
- في هذا تكون ليبيا جزءاً من منظومة عالمية منافسة تتشكل فيها الصين وماليزيا وعديد من التجارب الآسيوية والاسكندنافية، والإفريقية، وفيها جماعات منتشرة حتى في الغرب وأوربا والأمريكيتين.
- وشكل الديمقراطية هذا يختلف عن النمط السائد بالتعددية الحزبية الغربية، ولكنه بالطبع يسلم بأهمية تداول السلطة وإتاحة مستويات أعلى – مقارنة بالغرب– للشفافية والمحاسبية.

السيناريو الثالث: اقتصاد مفتوح منافس لدرجة ما

- يتم التحول إلى الليبرالية الحديثة دون تحفظات فتنشأ مؤسسات (سياسية إدارية اقتصادية وتعليمية) فوراً لتحقيق ذلك. ويعاد ترتيب مسئولية اتخاذ القرار على هذا النحو.
- فتنشأ أحزاب – فوراً– دون قيود.
- ويستفيد هذا السيناريو من المطروح في إطار المشروعات المتوسطية، ويستثمر العلاقات الإفريقية، وتصاغ القوانين لتحفز القطاع الخاص والمجتمع الأهلي المدني.
- يدري القائمون على السيناريو أن النجاح فيه واستمراره ينبني على جاذبية التحول السياسي للحزبية، وعلى نجاح قطاع التعليم والتدريب في إنتاج أفواج جديدة متميزة في المعرفة بمعايير دولية.
- وتقوم الزراعة على وحدات خاصة إنتاجية وتعاونية حتى في مرحلة الاستصلاح. وتقوم الصناعة على وحدات قطاع أعمال صغير ومتوسط.. ويسمح في الموارد المعدنية بمشاركة القطاع الخاص أيضاً.
- وتتاح القوانين التي تسمح بمبادرات الأفراد وحرياتهم بالمفهوم السائد في الغرب.

السيناريو الرابع: النهضة في إطار إقليمي

- يفترض هذا السيناريو أن عدة بلدان لا تطمئن لواقع التحولات الليبرالية ولهيمنة قوة عالمية واحدة على مقدرات العالم، وترى أنه من المستحيل التنازل في أمور الهوية، رغم التسليم بالأهمية الحاسمة للديمقراطية والتعددية. ولكن الاختلاف يحتاج قوة إقليمية حرجة حتى تفرض احترامها على الآخرين. وان توافر ميزة تنافسية في التبادل التجاري يحتاج أيضاً تكاملية في سوق إقليمي وان التنمية تحتاج الحصانة والحماية.
- ولكن السيناريو يعني أيضاً بتخليق عقل جديد لعالم جديد ويتماشى مع هذا بالسيناريو بزوغ تدريجي لتنظيمات سياسية عابرة للأقطار إلى الإقليم الأوسع والى تفوق المؤسسات ونشاط التخطيط على المستوى الإقليمي على ما يقابل ذلك على المستوى القطري.
- يركز العمل في هذا السيناريو لمقابلة شكل من أشكال القوة في مقابلة، القرن الواحد والعشرين، ألا وهو امتلاك وإدارة المعرفة وبناء مجتمع المعرفة، وتقدم العارفين إلى مواقع السلطة واكتساب احترام الآخرين واكتساب الشكل الجديد المطلوب معرفياً لحصانة الأمن القومي.
- وهكذا فإن أهم قطاعات الاستثمار هنا- وعلى مستوى الإقليم المتعاون- هي في البشر والمبدعين.

ويؤخذ في الاعتبار ملاحظات يعتني بها في السيناريوهات العالمية والإقليمية

- مستقبل التحالفات، وظهور تحالفات وقوى جديدة.
- الحوار الدائر حول مستقبل اللغات في العولمة والليبرالية والتدويل.
- آفاق قوة أوربا الموحدة.
- بدائل في العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وسيناريوهات مستقبل إسرائيل وخطط معلنة لأحزاب إسرائيلية.
- مستقبل حكم الشركات الدولية للعالم المعولم.
- مستقبل الابتكار والعلم والبحث والتطوير عبر العالم (مع اهتمام خارجي بمجال الطاقة).
- نفط البحر الأسود والقوقاز.
- الظواهر السكانية.
- مستقبل الحضارة الغربية.

- التعليم والسكان في البلدان والأقاليم المحيطة.
- أبعاد إقليمية في الأمن الوطني.
- أبعاد بيئية لقضايا سياسية والمياه الحلوة.
- أسباب مستجدة في الصراع العربي/ العربي.
- تفاوت الدخل والموارد إقليمياً.
- الفقر والأمية في الأقاليم المحيطة.
- هجرة العقول، والهجرة، والوسائط الإعلامية.
- مستقبل الانترنت والثقافة.
- مستقبل المبادرة الأمريكية للتنمية والديمقراطية.
- مراجعة تعريف العدو، وتعريف النفس، وتعريف المواطنة بالقرن الحادي والعشرين.
- أعمال لجان حقوق الإنسان ومتابعة الاضطهاد والتمييز العدائي.

ملاحظات ختامية ملحة وأساسية

1- الحد الأقصى للبدء بالدوائر الثلاث، ولأسباب عالمية إقليمية، هو اسبتمبر القادم ولمدة ستة أشهر متواصلة.

2- تفرغ الثلاثة خبراء للإستشراف بالدائرة الداخلية هو حتمي. وهو تفرغ كامل.

3- يمكن اختيار المعاونين (5 وتوجيههم من الآن تجاه تدريب الذات وجمع معلومات).

4- قصر الفترة (6 شهور) هو أحد ضمانات النجاح للدائرة الأولى.

5- يمكن للدورة الأولى أن تتم في أي مكان داخل أو خارج ليبيا مع ضمان:

- تنفيذ التصميم المقترح
- ضمان الحوار عن بعد وزيارات

6- الأسماء والمواقع والخبراء والمعلومات... من خارج ليبيا متوافرة بدرجة كبيرة وحتى المساعدة في الحسابات إن طلبت.

7- انتقال العمل إلى مؤسسة مستقلة هو وعد وضمان للجدية، على أن لا يتم ذلك إلا بنهاية الدورة الأولى، وفي ضوء دراسة جدوى ذات طابع مختلف:

8- معنى نهاية الدورة الأولى هو:

- تأسيس الشكل المؤسسي المستقل.
- اختيار
- دروس مستفادة عبر السيناريوهات.
- السيناريو الذي سيطور إلى خطة استراتيجية.
- تعديلات متصلة في السيناريوهات وإضافة غيرها.
- تطوير استراتيجية حركة بعضها.

9- يقترح بداية العمل فى أول سبتمبر ــ ويشمل: تدريب، إمكانات، توزيع، دراسات، استبيان، معلومات.

* الدرس الأساسي هو التباري وفنونه أمام الآخر لصنع للمستقبل.